ثمن النسخة الواحدة اربعة فرنكات

أورشليم الجديدة

او

فتح العرب بيت المقدس

والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها

وهي رواية تاريخية فلسفية اجتماعية حية تتضمن زحف العرب الى بلاد الشام حين ظهور الاسلام وحصرهم مدينة القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينية الكبرى للمسيحيين يومئذ وسفر الخليفة عمر بن الخطاب من بلاد العرب اليها لفتحها بطلب البطريرك صفرونيوس . واقامة المسجد الاقصى فيها على انقاض هيكل سليمان القديم هيكل الاسرائيليين . ويتخلل ذلك كلام عن احوال اليهود والمسلمين والمسيحيين يومئذ والافكار الدينية والسياسية التي كانت تختلج في نفوسهم . والاسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي اضعفت سلطنة الروم في بزنطيه (القسطنطينية) فكانت سبباً في سقوطهم وزوال ملكهم وقيام الامم التي تليهم

﴿تأليف﴾

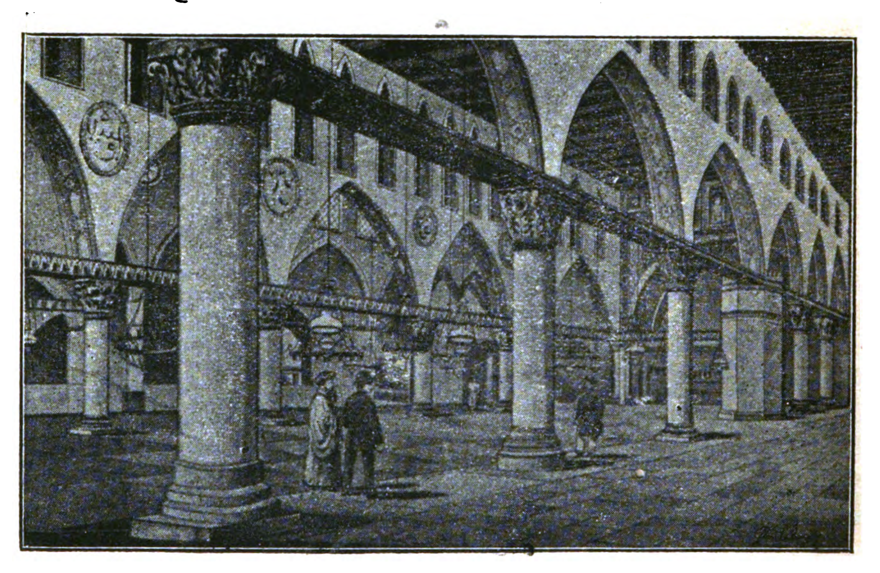
فرح انطون

منشيء مجلة (الجامعة)

الاسكندرية في فبراير (شباط) سنة ١٩٠٤

اورشليم (بيت المقدس)

مصورة كما تظهر من جبل الزيتون وايليا وارميا تحت شجرة في سفح الجبل



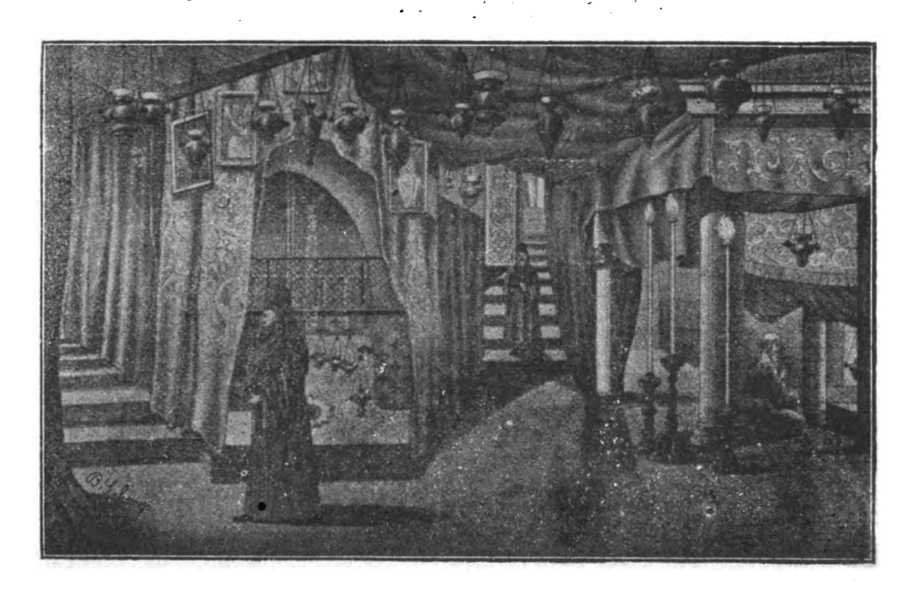
داخل المسجد الاقصى

وهو غير جامع عمر المعروف بجامع الصخرة انظر الصفحه ١٣٢ في الكتاب والصفحه الثالثة في الغلاف



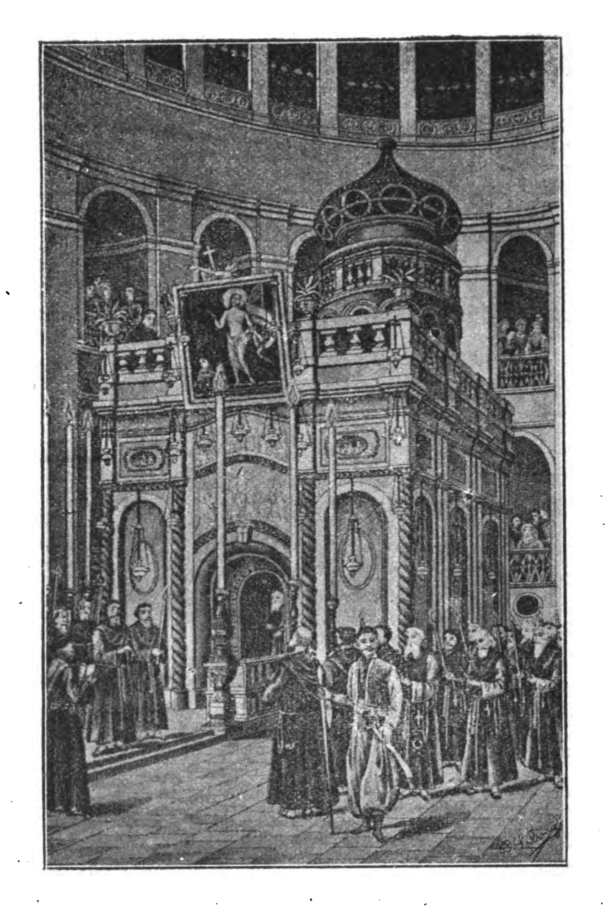
جبل الزيتون المشهور

الوارد ذكره كثيرًا في هذا الكتاب وعليه الكنيسة الروسية الكبرى في القدس



مغارة بيت لحم

التي ولد فيها المسيح وفيها المزود . انظر الصفحة ٤



قبر المسيح

في داخل كنيسة القيامة وامامه افسس والرهبان يحتفلون بعيد القيامه
والدخول الى القبر من الباب في صدر الصورة حيث ترى كاهناً واقفاً فيه والناس جالسون في
شرفات الكنيسة حول القبر

المقدمة

اهمّ انواع الروايات ثلاثة (الاول) الروايات الاجتماعية والاخلاقية وهي افضلها لانها تبحث في اصلاح اخلاق الامة وتكوينها وتنبيه نفسها الى ما فيه منفعتها (والثاني) الروايات التاريخية وغرضها بسط تاريخ الامم اي ذكر اسبابه ومسبباته لاستخلاص النتائج منها بحرية تامة بلا تزلف ولا تحامل للوقوف على الفواعل في تقدم الامم وتأخرها · «والثالث» الروايات البسيكولوجية وتدخل فيها الروايات الحبية التي يُصوّر فيها احتكاك العواطف وتنازع القلوب والاهواء

على ان هنالك نوعاً آخر من الروايات افضل من هذه الانواع الثلاثة وهو الذي جمع بينها في سياق واحد فيكون تاريخياً لمحبي التاريخ فلسفياً اجتماعياً لمحبي الفلسفة والاجتماع ادبياً حبياً لمحبي الادب والعواطف الحبية الطاهرة المنزهة عن الخلاعة والغرام البارد — ومن هذا النوع اشهر الروايات الخطيرة التي كان ظهورها عبارة عن حادثة وطنية كبرى لانها رفعت مبادىء وخفضت مبادىء "كالميزارابل" لفيكتور هيغو "والجحيم" لدانتي وغيرهما

ولقد سلكت «الجامعة» هذا المسلك في روايتها الجديدة «اورشليم الجديدة» فجمعت فيها بين الفلسفة والاجتماع والتاريخ والحب والادب · وفوق ذلك ضمّت اليها «الدين» لان العصر الذي تبحث هنا في شؤونه عصر ديني محض سواء كان ذلك عند المسيحيين او عند المسلمين · فالكلام عنهُ يشمل الدين بالتابع والضرورة وبدونهِ يكون الكلام ناقصاً اهم وجوهه

وهي على يقين من ان ابناء العصر وكتابه الافاضل الذين يرومون تنبيه الشرق من سباته وان يمحوا عنهُ عار الاستسلام للسلطات المضرة ويطلبون الحقيقة اينما وجدوها سينظرون الى هذا الكتاب نظراً يُنسي مؤلفه شيئاً من التعب الذي عاناه في تأليفهِ · لانه لو لم يكن على ثقةٍ من رضاهم وتنشيطهم قياساً على ما مضى لما وجد في نفسهِ القوة اللازمة للاقدام على كتاب كهذا الكتاب مع ما هو معروف في بلادنا عن بضاعة العلم والادب وما هو مشهور من تهشيم حرية الفكر ونزاهة النشر تزلفاً للسذج وذوي المصالح خصوصاً في الشؤون الوطنية والمسائل الشرقية

والمؤلف لا يدعي في هذا الكتاب فضلاً او مزية ولكنه يصرح بانه بذل جهده للجهر بحرية تامة بكل ما يجب الجهر به عند الاشتغال بمسائل مهمة خطيرة كالمسائل التي في هذا الكتاب وطلبِ الحقيقة بين

كل الاحزاب باستقلال تام كانّ الكاتب غير منسوب الى احدها · فاذا كان اخواننا الرصفاء والقراء الكرام يرون بعد مطالعة هذه الرواية ان المؤلف قد قام بهذه الوظيفة فهذا خير جزاء يريده منهم وافضل ثناء يقبله على الطريقة التي اقدم عليها مع معرفته صعوبتها في بدء الامر في بلادنا الشرقية التي فيها سلطان الجبن والذل والمصلحة اقوى من سلطان عزة النفس وحرية الفكروجراءة المبداء

***

ويجدر بنا في هذه المقدمة ان ننبه القارىء الكريم الى امرين (الاول) الطريقة الانشائية التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب · فاننا عنينا هنا بما يسميه الافرنج «جمال التاليف» عناية خاصة لان المجال في هذا الكتاب واسع لفكر المؤلف وقلمه ولا قيد يقيدها البتة · وهذا الذي يسمونه جمال التاليف عليه المعوّل في كل الكتب الجليلة التي هزّت نفوس البشر في الارض ورقتها وامالتها نحو الخير والكمال · وبدونه لا يكون للكتابة اثر في النفوس ولا جاذبية تجتذب القراء للاقبال عليها وتأليف جمهور مفكّر يؤثر غث الامور من سمينها وجميلها من دميمها وهو ما يعبّرون عنه بالرأي العام · وهذا الاسلوب الذي اعتمدنا عليه هنا يعتمد على عاطفة الجمال التي في نفس الانسان والتي بها يؤثر عن الحيوان حتى عرّفوا الانسان "بانه حيوان يعرف الجمال ويشعر به،، · ويقول كثيرون من علماء العمران ان "الجمال" في الفنون والصنائع الجميلة "وصناعة القلم في جملتها،، هو اساس نهضة اوربا · فان ارتقاء هذه الفنون الجميلة في ايطاليا كان ناشئاً عن ارتقاء عاطفة "الجمال" فيها · وهذا الارتقاء لطّف الاذواق ورفع النفوس وكبرها ومن هنا نشأ الميل للحرية والارتقاء فسرى الى اوربا كلها · وبناء على اهمية عاطفة الجمال هذه ترى الناس يبتاعون صورة من صور المصور رفائيل مثلاً بملايين فرنكات · فهم يبتاعون بابتياعها ثمار ارقى نفس لان عاطفة الجمال بلغت فيها اقصى درجات الارتقاء الممكن في الارض · فاذا قابلنا بين هذه العناية" بالجميل،، في بلاد المتمدنين وبين اعتبار بعضهم عندنا الجمال في الكتابة وغيرها شيئاً ثانوياً بل تخيلات وتصورات وادبيات جاز لنا ان ناسف لاننا في الشرق لم ندرك بعدُ ماهية الارتقاء الحقيقي لكوننا لا نزال نذم الورد على اسلوب ذلك الشاعر العربي الذي شبهه ذلك التشبيه المشهور «١»

ولكن من حسن الحظ ان عاطفة الجمال الطبيعية الموجودة في نفوس الناس في الارض اقوى من ان تُخنق اذا لم يفهمها بعض الناس · ولذلك ترى (جمال صناعة القلم) يؤثر في الناس في الشرق من غير ان يدروا به · وهذا سبب نهضة الشرقيين الى الكتابة والمطالعة وتعلقهم بهما · وكلما ارتقت فيهم عاطفة الجمال اي كلما ارتقت «نفسهم نفسها» ارتقى فيهم الميل الى هذه الصناعة وجميع الصنائع الجميلة على نسبة واحدة · فمقياس ارتقاء الامم اذاً انما يكون بالنظر الى ما تقدر على ابرازه من عاطفة الجمال هذه مقرونة بشقيقتها عاطفة الخير "لان الجمال الحقيقي لا ينفصل عن الخير مطلقاً،، لا بالنظر الى ما تقدر على تقليده من

١) قال اناتول فرانس احد اعضاء الاكاذمية الفرنسوية في خطبته امام تمثال رنان في هذا العام عن لسان الالهة الحكمة آثينا «ان قريحة اليونان انزلتني الى الارض · ولما قضت خرجتُ منها · فجاء بعدهم البرابرة واجتاحوا العالم · وكانوا يخافون «الجمال» ويحسبونه شرًا · فلما رأوني "جميلة،، شكّوا فيّ ولم يعلموا انني الحكمة · فطردوني الخ،، "الجامعة السنة الرابعة الصفحة ٢١٠،، قلنا وبذلك تتصل حلقة الارتقاء الايطالي بحلقة الارتقاء اليوناني ولهذا قالوا ان هذا اصل ذاك كما ترى في الخطبة المذكورة وفي خطبة رنان التي تقدمتها

شؤون غيرها · والبلاسفة يضيفون الى "عاطفتي الجمال والخير،" "عاطفة الحق،" التي مقتضاها الجهر بالحقيقة وطلبها باستقلال تام ونزاهة عن كل مواربة وجبن · و يقولون ان هذه الثلاثة هي اغراض العلم العليا ومواضيع الفلسفة السامية · وهو قول حق · ولذلك نتمنى ان يكثر في بلادنا العزيزة كل ما ينمي هذه العواطف الثلاث لانها اساس كل ارتقاء ونزاهة وفضيلة ومصدر كل شيء عظيم · والامم التي لا تؤسس على هذا الاساس المثلث تتعب وتبني عبثاً لانها لا تبني الاَّ على المصالح المادية والقابلية الحيوانية

* * *

(والامر الثاني) الذي احببنا التنبيه عليه ان الروايات التاريخية لا يُقصد بها سرد وقائع التاريخ وارقامه · فان طالب هذه الوقائع والارقام يلتمسها في كتب التاريخ حيث تكون قريبة المنال لتجردها عما ليس منها لا في الروايات المطولة التي تشتبك وقائعها الخيالية بها ولا يصبر طالب التاريخ البحت على مطالعتها · وانما المقصود من الروايات التاريخية (فوق سرد الوقائع والارقام وتصوير الوسط المراد تصويره وابراز العواطف والافكار التي كانت تختلج في هذا الوَسط) تكميل التاريخ في جوانبه الناقصة

ونعني هنا « بتكميل التاريخ » ان يضع المؤلف نفسه موضع الاشخاص التاريخيين الذين يتكلم عنهم ويعبر عن افكارهم وآرائهم في المواقف التي يصورها لهم والتي لا اثر لها في التاريخ مستدلاً على ذلك بما يعرفه عنهم · وهذا الامر في روايات « دياس » المشهور كان اهم الامور · فكانه به يحيي الابطال الذين يتكلم عنهم ويجعلهم يشعرون بالامور التي كانت تنطبق على تاريخهم ومقاصدهم ويكشف لك خبايا كانت مدفونة في صدورهم · ولقد سلكنا هذا المسلك ايضاً في هذه الرواية · غير اننا خشينا ان يختلط التاريخ بما ليس هو في شيء منه فيضلّ القارىء سيما القليل الاطلاع فوضعنا علامات للتفريق بين التاريخ وبين التصنيف والاستدلال · واليك هذه العلامات ·

« هذه العلامة * (اي النجمة) تدل على ان ذلك القول وارد في التاريخ · والعلامة (— تدلّ على عكسه اي انه تصنيف او استدلال من المؤلف لا اثر له في التاريخ · والكلام الموضوع بين قوسين هكذا « » او ( ) او ضمتين " " ومعه نجمة * هو نص تاريخي بحرفه · واما اذا كان الكلام بين هذه الاقواس بلا نجمة او كان بلا اقواس ولا نجمة فليس هو من التاريخ في شيء خصوصاً اذا كان بين اشخاص الرواية الخياليين — هذا الاَّ اذا نُبه عليه في الحاشية »

وسنتابع هذه الاصطلاحات في كل رواياتنا التاريخية لينسع لنا مجال الاستنباط والاستدلال التاريخي في امثال هذه المسائل · اذ بدون هذه الاصطلاحات يشوّه الكاتب التاريخ اذا حرص على الاستنباط والاستدلال و يهمل اهمّ ما في التاريخ الروائي اذا اهملها · والقراء في الشرق على الخصوص يعرفون ان الكاتب في شؤون المسلمين والمسيحيين في بلادهم لا غنى له عن هذا الاحتياط لحرج الموقف وصعوبة الطريق

اما المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب فهي عدة لمؤلفي العرب والافرنج وقد رجعنا في شؤون العرب الى كتب العرب وفي شؤون الروم الى كتب الافرنج كما يجب ان يكون ذلك لان كل قوم ادرى بتاريخهم: ولقد اشرنا في الحواشي الى اكثر تلك المصادر

هذا ما قصدنا ذكره في هذه المقدمه · والان نأخذ بيد القارىء الكريم لنسيح معه في هذا الكتاب سياحة طويلة

مدخل

﴿ على الارض السلام ﴾

على جبل الزيتون فوق بيت المقدس كان في سنة ٦٢٦ قبل عيد الميلاد بثلاثة ايام طيف يتمشى متأملاً في المدينة محنة وهو يقول كانه يخطب في الدنيا كلها :

منذ نحو الفي سنة رنَّ في فضاء هذه الارض التعيسة صوت خارج من جهات مجهولة يقول « المجد لله في العلي وعلى الارض السلام وفي الناس المسرَّة »

ومنذ الفي سنة والبشر بشرٌ السلام على شفاههم لا في القلوب

***

منذ الفي سنة هجمت المادة الترابية في عالمنا الدنيء للاتحاد بالجوهر الالهي · فقبضت يومئذٍ الارض على قسم من السماء · ولكن السماء عادت فافلتت منها فعاد الى الارض ما هو من الارض والى السماء ما هو من السماءِ واختفى عنا ذلك النور الذي اضاء تاركاً البشر في ظلمة ليلاء

***

منذ نحو الفي سنة ثارت بين اسوارك يا « ابنة صهيون » (١) الحرب الابدية بين الحق وبين التقليد الذي يضع نفسه موضع الحق · بين المبادىء وبين المصالح · بين الفكر وبين

(١) بيت المقدس

المادة . بين القديم الذي يظن نفسه قويًا راسخًا ابديًا لا يزعزعه شيء وبين الجديد الضعيف المسلح بمعول العقل والفكر ولا سلاح له سواه . فزلزلت الجبال واندكت الاسوار ونسف الفكر معالم التقليد والمصالح والمادة نسفًا فقلب عالمًا واقام عالمًا

ولكن ماذا جرى بعد ذلك ؟ هل حفظ الغالب السلاح الذي تغلب به ؟ اخبرونا يا رجال صهيون الجديدة يا جند اسرائيل الجديد . وا أسفاه ان الغالب عاد الى عادات المغلوب . ان المادة قويت على الروح . والمصالح على المبادىء . والتقليد على الفكر والعقل . فهاتوا لنا معولاً آخر للهدم مرة ثانية . الينا يا ملائكة السماء بجرّاح جديد لمداواة هذه الحسناء المريضة . ولكن رحماكم فلتكن سكين هذا الجرّاح نحيفة . اننا نشفق على جسمها النحيل وقلبها الرقيق وجمالها الساحر ونفوس الملايين العديدة المتعلقة بها . هات روحك يا بوذه لنعلمها الصبر والقناعة . هات فكرك يا كونفوشيوش لتعلمها الحكمة . هات بلاغتك الالهية يا افلاطون لندخل الى عروقها دم الفلسفة ممزوجة بالانوار السماوية . هات عقلك يا ارسطو لتقوية عقلها . هاتوا يا حكماء منفيس والاسكندرية وآثينا وبناريس وورومة كل حكمتكم وفلسفتكم لعلها تشفى بها . واياكم ان تقولوا انها في غنى عن كل ذلك بما لديها من المبادىء الفطرية الساذجة فانها نسيت ما لديها ونسيت الفطرة والسذاجة . نعم ان فاها لا يزال يردده ويترنم بالفاظه ولكن يا للاسف ان قلبها لم يعد يفهمه ولا يقنع به . ولذلك ذهبت منها صحتها وجمالها . اجل يا بيت الحكمة الفطرية الساذجة . يا قدس الاقداس القديم . يا مأوى الفكر الحرّ المطلق والروح المجرّد . ان حمامة الروح السماوية قد طارت من بين جدرانك . وهذا هو سبب مرضك . فهلاّ استعدتِ روحك لتحيي بها نفسك وتؤهل منزلك . هلاّ نظرتِ باخلاصٍ ونزاهةٍ الى مرضك

انك لم تريدي ذلك يا ابنة صهيون فهوذا جرّاح وخصم شديد قادم نحوك . ولكن وا اسفاه ان سكينه ليست بنحيفة كما طلبتُ بل هي عبارة عن سيف قوي . ومع السيف رمح ونبلة وترس وجواد عربي . ان رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون وزحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها . فاوسعوا اوسعوا المكان في الارض لامة جديدة عظيمة ومدنية جديدة . ان الدنيا تتمخض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . ان ابناء اسماعيل الاقوياء خرجوا من قفارهم الجدباء لملاقاة ابناء اسحق الظرفاء . ولكن يا للاخوة يا لحرمة النسب ان ملاقاتهم كانت للاقتتال على سلطنة الارض كأنّ هذه الدنيا الواسعة تضيق عن اخوين كريمين . فسدّوا آذانكم يا ايها البشر فان ارضكم ستصير ميدانًا واسعًا للحروب والمجازر المختلفة . ناموا

ايها الموتى الشرقيون بامان واحمدوا الله لانكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامم والقارات بعضها على بعض ليفني بعضها بعضاً . ويا سلطنة بزنطية التي ملا ت الدنيا ابهةً وسطوة وجلالاً استعدي فقد دنت آخرتك . ولا تلومي احداً غير نفسك . لماذا اهملتِ شعبك لتشتغلي بالمجادلات الدينية العقيمة . لماذا جهلتِ ان كل بناء لا يُبنى على « اصلاح احوال الشعب» بناءٌ ضعيف يتداعى في مدة قصيرة . لماذا حصرتِ كل قواكِ في الاختلافات على خلافة الملك وانتقال السلطنة . لماذا رمتِ الاستيلاء على الدنيا كلها بدل اصلاح شؤونك الداخلية لجزءات قواكِ بتجزئة اهتمامك على غير فائدة . لماذا هجرتِ الروح والفكر الذي يجعل الافراد اقوياء والشعوب منيعي الجانب سعداء . ان الشعب الشاب الحديث الخارج من رمال بلاد العرب قد استولى على ذلك الفكر الذي هجرتِيه وهجم عليك بسلاحك بريئاً في اول نشاءته من تلك النقائص التي اودت بكِ . لقد زحف يمثل الوحدة والعصبية والاصلاحات الشعبية والحياة الروحيّة والمعيشة الطبيعية والمساواة والاخاء والحرية ومن فرط ثقته من نفسه ومن مبداءه يظن انه وحده يمثل الوحدانيـة . وبهذه المناقب سيستولي يوماً على الكرة الارضية . وسيبقى له هذا الملك حتى تفارقه تلك المناقب كما فارقتكِ فيصيبه حينئذٍ ما اصابك . وفي ذلك الوقت تنطرحان كلاكما على الارض اخوين في المصاب تنظران الى الامم والمبادئ الاخرى التي تجيء بعدكم وتقوم على آثاركم

فيا ايتها الامم المختلفة التي تقوم وتسقط وتتطاحن كحبوب الحنطة تحت الرحى لكِ ان تقولي « المجد لله في العلى » لان الله خالقنـا عظيم . ولكن لا تقولي « في الارض السلام وفي الناس المسرة » فان الارض ليس فيها اليوم شيء غير السيف والنار وليس بين البشر شيء يسرُّ بل السائد بينهم الفساد والاضطراب والبغض والشقاء والدمار

الفصل الأوّل

عيد الميلاد في بيت لحم سنة ٦٣٦

حالة الامبراطور هِرَقْل والسلطنة البيزنطية في صدر الاسلام

« البيت الاحمر »

بيت لحم في يوم عيد الميلاد المسيحي كعبة يحجّ اليها المسيحيون من كل اقطار العالم كما يحجون الى كنيسة القيامة الكبرى في القدس في عيد الفصح الذي هو عيد القيامة . ففي سنة ٦٣٦ للميلاد المسيحي ليلة عيد الميلاد خلت القدس من اهلها ومن الحجاج لزحفهم الى بيت لحم لحضور العيد . وقد بدأوا بالسفر الى بيت لحم منذ يومين رجالاً ونساءً واولاداً بعضهم يقيمون عند اقاربهم ومعارفهم وبعضهم يستأجرون غرفاً خصوصيّة لذلك . فامتلأت بلدة بيت لحم على صغرها باجناس القادمين اليها من نواحي فلسطين والثغور وسوريا ومصر والاناضول والقسطنطينية وقبرص ورودس وغيرها . وكان اختلاف ازيائهم ووجوههم مما يروق النظر فيخيل للناظر ان اجناس البشر كلها تُعرض له في تلك البلدة الصغيرة

وكانت كنيسة المغارة التي هي عند الناس مكان ولادة المسيح قائمة في وسط البلدة . وكانت مؤلفة من قسمين . فقسم هو كنيسة المهد نفسه وهي عبارة عن مغارة منقورة في الصخر مكسوة الجدران بالاغطية الثمينة المزركشة والمزينة افخر زينة وفي سقفها عدة مصابيح بعضها يضيء ليلاً ونهاراً . وقسم هو كنيسة فاخرة كبرى قائمة فوق تلك الكنيسة الصغرى لاجتماع الناس فيها وقد بنتها هيلانه ام الامبراطور قسطنطين الكبير (١) وكانت الكنيستان منارتين في تلك الليلة بالمصابيح والشموع المتعدّدة وروائح البخور تنبعث عن المباخر والناس داخلون

(١) لا تزال الى اليوم وهي الكنيسة الكبرى في بيت لحم

الى الكنيسة الكبرى وخارجون منها ولوائح السرور على وجوههم

فلنترك الناس خارجين وداخلين ولنذهب بالقارىء الى منزل كبير قائم تجاه الكنيسة في الجهة الغربية وهو مدهون بلون احمر ولذلك يسمونه « البيت الاحمر » . وقبل الدخول الى هذا البيت نقرأ على خشبة مسمَّرة فوق بابه هـذه الكتابة باللغة اليونانية « لا شراب رديء يُزعج معدتك ولا رفيق السوء يزعج نفسك » ذلك ان هذا البيت كان معدًّا لنزول الضيوف في الاعياد والمواسم والاحتفالات المختلفة

فاذا دخلنا هذا الفندق وجدناه قسمين . فقسم للرجال وكان يجتمع فيه ضيوف من بيت المقدس وغيره . وقسم للسيدات وكان يجتمع فيه اجمل واذكى سيدات اورشليم(١)وكان امام القسمين حديقة واسعة الجوانب مزروعة بالنباتات والازهار والشجيرات المختلفة وفي وسطها قاعة المائدة وهي قسمان ايضاً واحد للرجال وواحد للنساء

وكان البرد في ذلك اليوم شديدًا والغيوم متلبدة في السماء تنذر بالمطر والهواء يهب من الجهة الجنوبية الغربية هبوبًا عنيفًا ومع ذلك فقد كان في الحديقة في جهة قسم الرجال رجل يتمشى وفي يده كتاب خطي وهو تارة يقرأ وطورًا يتأمل . وربما يظن القارىء ان ذلك الكتاب كان نسخة من كتاب ديني ولكن اذا دنونا من الرجل وجدنا على غلاف كتابه هذه الكلمات « كتاب في النفس ـ تأليف ارسطو »

وكان الوقت مساءً وصاحب الكتاب يقرأ في كتابه على ذرات ضوء النهار الاخيرة بين مداعبة الريح وقرص البرد وقهقهة الرجال والنساء خارجة من داخل الفندق بينما صراخ الناس في الشوارع امام الكنيسة واصوات الباعة وضوضاء المغنين تصمّ الآذان . وكان هذا الرجل القارىء كلما زادت تلك القهقهة والضوضاء الداخلية والخارجية ينظر باشمئزاز وانفة الى الجانب التي خرجت منه ويقرن اشمئزازه بابتسام الاحتقار . الا انه في ذات مرة اشتدت القهقهة والصياح من داخل ومن خارج فمدّ يده الى جيبه وتناول دفترًا وكتب فيه ما يأتي

« الطبقات العالية لا همّ لها الاّ ملاذها . فهي تفرح وتطرب لانّ الامبراطور يترك لها حرية التمتع بها . فكانّ الدنيا كلها عندها اكل وشرب ولذة . والطبقات الواطئة ترضى باقلّ شيء ولذلك يلهونها باصغر الامور ويعملون على ظهرها كل الاعمال . فهل تنفتح عيونها يا ترى يوماً من الايام »

١ اورشليم وابنة صهيون والقدس والمدينة المقدسة وايليا اسماء مختلفة لبيت المقدس

وما اتى صاحب الكتاب على هذه العبارة حتى اندفع من قسم النساء في الفندق نحو عشرين سيدة ضاحكات مقهقهات وتفرقن في الحديقة . فالقى صاحب الكتاب اليهن نظرة ثم عاد الى كتابه بانفة وكبرياء . اما السيدات فلم يصرفن انظارهن عنه بل اخذن يتأملن فيه . فقالت احداهن مَن هو هذا البارد الذي يقرأ في هذا الظلام والبرد يا اخواتي . اظنه راهباً من رهبان دير ايليا . فضحكت رفيقاتها . واجابت سيدة اخرى وحياة العذراء يا اخواتي انني نظرت هذا الرجل قبل اليوم . فانه في كل مساء يخرج من باب يافا وفي يده كتاب فينحدر الى الوادي ويغيب فيه

فرسمت احداهن علامة الصليب على صدرها وقالت « كيريا لايسون » (يا رب ارحم) اظنه يختلي ببعلزبول . فصاحت بعض رفيقاتها : باسم الصليب الكريم يا تيوفانا انك تذكرين بعلزبول دائماً فيظهر انه بينك وبينه شيء من الصحبة . فضحكت السيدات . واما تيوفانا فانها رسمت علامة الصليب على صدرها وبصقت على الارض موجهة هذه البصقة الى بعلزبول

اما صاحب الكتاب فانه لم يسمع من حديث السيدات سوى هذه الكلمة ،، دير ايليا ،، فظن انهن يقلن ،، اسمه ايليا ،، فقال في نفسه من اين يعرفني هؤلاء السيدات

ومن البديهي انه لا يخرج النساء الى الحديقة ويبقى الرجال في الداخل . فخرج الرجال على صوت النساء وتفرقوا في الحديقة محيّين السيدات برؤوسهم . وما زالوا يتمشون حتى التقت طلائع الفريقين فتبادلوا التحيات والابتسامات وتداعوا الى الجلوس على مقاعد الحديقة مع شدة البرد . فجلس النساء في صفوف والرجال في صفوف . ودار الحديث بين الفريقين وصاحب الكتاب في زاوية يصغي ويعي

فقالت احدى السيدات متى يصل مولانا البطريرك . فاجابها احدهم سيصل في الليل فقالت اخرى : الظاهر ان هذا العيد سيكون بهيجاً لكثرة الحجاج والوافدين . فهزّ احد الرجال رأسه وقال ان اكثر هذه الجماهير فرّوا من وجه العرب * ولم يقدموا للعيد . فقالت تيوفانا اذا قصدتم الكلام في السياسة فاخفضوا اصواتكم وانظروا الى ما حولكم . فرفع حينئذ احد الرجال صوته وصاح مم نخاف لقد اضاعوا الامبراطورية بطياشتهم . وها ان العرب قد صاروا على ابواب المدينة * فبغتت النساء وصاحت تيوفانا : وهل انكسر مانويلس . فهزّ الرجل رأسه وقال ان قائدنا مانويلس الظريف قد انكسر في « اليرموك » شرّ كسرة * وهذه الواقعة فتحت سوريا كلها للعرب كما فتحت لهم واقعة القادسية بلاد الفرس * ومن ذلك يظهر ان

الامبراطور كان مصيباً في ما فعل . قال الرجل ذلك ثم نظر الى ما حوله . فقالت احدى السيدات ولكن يظهر ان مولانا البطريرك مستاء جداً من صنعه هذا . فقال ذلك الرجل ولكن ما الحيلة انه لم يكن يستطيع ان يعمل غير ما عمل . فانه بعد ان فتح العرب دمشق لانكسار اخيه تيودوروس امامهم في اجنادين (١) لم يبقَ له الاَّ ترك سوريا وشأنها تدافع عن نفسها بنفسها للعودة الى القسطنطينية قاعدة مملكته لان المغول والسلافيين وفيهم البلغار والسرب كانوا يتهددون حياة السلطنة وقد كسر السلافيون جنده وراء القسطنطينية شرَّ كسرة * وقد بلغني انه لما خرج من سوريا قادماً الى هنا لاخذ الصليب المقدس من الجلجلة الى القسطنطينية خوفاً * من ان يأخذه العرب كما اخذه الفرس لما فتحوا مدينتنا (٢) وقف على نشز في حدود سوريا مودعاً وقال "السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده" (٣) ذلك لانه علم انه لا قِبلَ له على حفظ سوريا ووراءه من ذكرنا من اعدائه . ومما زاد الطين بلة ايضاً ان الجيش تمردَ * واعلن خلعه . فكيف يبقى في هذه البلاد ليدافع عنها بنفسه وتلك حال سلطنته وعاصمته . ان البطريرك مخطىء في استيائه .

فقال رجلٌ آخر وهناك سبب آخر يوجب على البطريرك ان لا يستاء من ترك الامبراطور سوريا وفلسطين وشانها تعتمدان على قواتها الداخلية فقط . وهو اعتلال صحته واضطراب عقله . فانني شاهدتُ الامبراطور مرتين . المرة الاولى منذ ثماني سنوات لما عاد الينا من حرب الفرس ظافراً منصوراً بعد ان سحق سلطنة كسرى الكبير وهدم معابد النيران واستردَّ الصليب وجاء لاعادته الى الجلجلة * فانه كان يومئذ في اوج عزه وعظمته . وكانت الامبراطورية كلها تتحدث يومئذ بسطوته وشاعره « الراهب جاورجيوس بيسيديس » الذي هو معلم اعترافه ايضاً ينشر فيه القصائد الرنانة التي تثير الافكار ويشبهه بالبطل اشيل وقسطنطين الكبير * فيومئذ كان الامبراطور معبوداً عند شعبه وكانت لوائح السعادة تظهر على وجهه . ولست انسى في حياتي منظره لما حمل في كنيسة الجلجلة في مدينتنا الصليب بنفسه وصعد به وحده الى موضعه في الجلجلة لنصبه بيده * فقد كانت لوائح القوة والصحة ظاهرة عليه . اما المرة الثانية التي شاهدته فيها فهي منذ مدة لما عاد الينا من انطاكية

«١» سنة ٦٣٤ للميلاد

«٢» سنة ٦١٤ للميلاد

«٣» رواه ابن الاثير واثبته درابيرون . وهذه عبارة ابن الاثير بالحرف (السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي ابداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم)

بعد استيلاء العرب على دمشق لياخذ الصليب الى القسطنطينية وينصبه في كنيسة هاجيا صوفيا * ففي هذه المرة كان الاضطراب والضعف باديين في وجهه . وصحته كانت في اسواء حال وهذا ما منعه من قيادة جيوشه بنفسه * للدفاع عن دمشق والقائه عهدة ذلك الى اخية ثيودوروس الذي اساء في الدفاع فناله غضب الامبراطور * ثم نظر المتكلم الى ما حوله كأنه خائف ان يسمعه احد وقال : وهناك اخبار جديدة وردت في هذا الاسبوع من القسطنطينية تثبت ان الامبراطور اصبح في حالة صعبة لطف الله به . فان عقله صار مضطربًا * لكثرة مشاكل السلطنة . ويُخشى ان يفقد صوابه * وقد علمت عن ثقة انه لما وصل الى قصره في القسطنطينية اضطر رجاله ان يبنوا له على البوسفور امام قصره حواجز خشبية على صفين من الجسور وتغطيةهذه الحواجز بالخضرة والنباتات * لاخفاء منظر البحر عنه لانه اصبح يخاف خوفًا شديدًا المجرَّد وقوع نظره على البحر * فهل من حق البطريرك ان يلوم رجلاً هذه حالته العقلية والصحية .

وكان بين الرجال رجل يتشاغل عن هذا الحديث بفرك يديه ووجهه من البرد فلما فرغ المتكلم من كلامه التفت الى الحاضرين وقال : هل تعتقدون انَّ البطريرك مستاء من الامبراطور من اجل مسألة الدفاع عن سوريا وفلسطين فقط . كلا فان الاستياء بينهما قديم .

فقال الرجل الذي تكلم سابقًا نعم نحن لا نجهل ما قام بينهما من الخلاف في المسألة الدينية * ولكن ما هذا وقته الآن . فان الواجب علينا لوطننا وديانتنا ومملكتنا ان نكون كانا يدًا واحدة ونفسًا واحدة امام العدو . والا كانت العاقبة وخيمة علينا

فانبرت هنا احدى السيدات وصاحت . يا لله اننا قدرنا على سلطنة عظمى كسلطنة الفرس فسحقناها واحتللنا عاصمتها * وقبائل بدو ضعاف حفاة كقبائل العرب لا نقدر عليها

فساد السكوت حينئذ بين الحاضرين لان هذا السؤال البسيط نقل الحديث الى اهمّ المواضيع اي الى اسباب ضعف الامبراطورية يومئذ مع قوّتها في ما سبق . فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض وابتسموا . وكان فيهم السوريون واليونان بين شرقيين وغربيين * فكأنهم ارادوا بابتسامهم ان يقولوا ان ذلك العيد يوم فرح وسرور لا يوم مناقشات ومخاصمات في امور سياسية دينية جنسية * فقد كفى الناس مخاصماتهم في هذه الامور في باقي ايام الاسبوع *

الفصل الثاني

﴿ يهودي يهودي ﴾

في ان العامّة في كلّ مكان تصدر احكامها بلا تحقيق ولا محاكمة

اما ايليا فانه كان يضحك من زاويته لترك الرجال سؤال السيدة بلا جواب . وكانّ السيدات شعرن حينئذٍ بقرص البرد لانقطاع الحديث فنهضن مبتسمات مرتجفات من القرّ واسرعن الى داخل الفندق . وكان صاحبنا ايليا قد مدّ يده الى جيبه ليتناول دفتره ويجاوب فيه عن ذلك السؤال . واذا بصيحة شديدة علت في الشارع وصار الناس يصرخون ويجلبون . فهرع الرجال الى الباب وفي مقدمتهم صاحب الكتاب وجمدت السيدات في مكانهنّ مرعيات السمع لمعرفة سبب ذلك الصياح . فسمعن العامة يصيحون « غضب الله غضب الله » « يهودي يهودي في المدينة » فلما سمع صاحب الكتاب وقد عرفنا ان اسمه ايليا كلمة « يهودي » وثب الى الشارع وهو يقول في نفسه « هذه رواية جديدة لم نمثّلها منذ زمان » فوجد الناس في هياجٍ شديد لا مزيد عليه وهم يروحون ويجيئون باحثين مفتشين عبثًا . فهذا يقول « رأيته مرّ من هنا وهو بلحية طولها كالذراع ووجه اصفر كوجه الاموات » وآخر يقول « لا بل هو بلا لحية ولكن قامته بطول اربعة اذرع وراسه صغير صغير كالرمانة » وذاك يقول « لا لا لم ارهُ هكذا وانما رايته قصيرًا لا يتجاوز الذراع ولحيته تكنس الارض من قصره » فضحك ايليا من هذه الاقوال المتناقضة واستوقف احد الصارخين وكان من اكثرهم تحمسًا وقال له : اخبرني ايها الرفيق ما سبب هذا الاضطراب . فاجاب الرجل وهو يلهث من تعبه في الصراخ : الا تعلم السبب . ان يهوديًا اجترأ ودخل بيت لحم ليلة العيد فيجب ان نمسكه ونصلبه . فقال ايليا وقد ارتعدت فرائصه من ذكر الصلب . ومن اين علمتم ذلك اذا كنتم لم تمسكوه بعد . فاجاب الرجل علمنا ذلك باعجوبة سماوية . فان المصباح في مغارة المهد انطفأ من تلقاء نفسه وكلما راموا اشعاله لا يشتعل . وهذه علامة قطعية على وجود يهودي في المدينة يُغضب وجوده اهل المقام

فهزّ ايليا رأسه وقال في نفسه : الويل للبريء الذي يشتبه به العامة ويقبضون عليه بدعوى انه يهودي فانه يذوق العذاب والاهانة قبل ان يستطيع ان يُثبت انه ليس بيهودي . ثم قال للرجل : اتريد ان ابرهن لك انه لا يهودي في بيت لحم الآن . فقال الرجل محملقًا

وما برهانك ٠ فقال ايليا اذهب معي الى مغارة المهد وهناك اصبّ امام عينيك شيئاً من الزيت في المصباح الذي انطفاء من تلقاء نفسه فتعلم حينئذ انه لم ينطفىء الا من نفاد زيته

فرسم الرجل حينئذ علامة الصليب على صدره صائحاً ،، باسم الصليب الكريم ،، ثم صرخ مشيراً الى ايليا ،، هذا هو اليهودي فانه ينكر العجيبة ،، (اي المعجزة)

فلم يكن كلمح البصر حتى تألب حول ايليا جمهور من العامة واخذوا بثيابه و يديه وعنقه ٠ وكان احدهم يلطمه في كتفه وآخر يدفعه في صدره وثالث يصفعه على قفاه وهم يصيحون باعلى اصواتهم « مسكناه مسكناه يهودي يهودي » وكان ايليا في اثناء ذلك يتملص منهم ولكن على غير فائدة ٠ وما زالوا يجرّونه و يدفعونه والجماهير تزداد التفافاً حوله حتى وصلوا به الى باب الكنيسة امام البيت الاحمر ٠ وكان الضيوف في البيت الاحمر قد خرجوا الى الشارع حين سماعهم تلك الجلبة والسيدات وقفن في الباب ينظرن الى هذا الاضطراب ٠ فلما وقعت انظارهن على ايليا بين تلك الجماهير في تلك الحالة شهقن شهقة واحدة من الاستغراب والدهشة ٠ وصاحت تلك التي قالت في ما تقدم انها كانت تنظره يخرج من باب يافا : وحياة العذراء مريم ان هؤلاء الناس معتدون على هذا الرجل ٠ فانني متحققة انه ليس يهودي لانني نظرته مراراً ينحني امام الصلبان والرهبان حين دخولهم في بعض الاحتفالات من باب يافا ٠ وانا انظره في المدينة منذ سنوات ٠ فازدادت النساء حناناً وشفقة على الرجل ٠ وقد قالت تلك السيدة هذا القول دون ان تخشي لائمة فيه مع معرفتها انه يحتمل التأويل عليها ٠ ولكن قلبها كان في تلك الساعة كبيراً لرغبتها في انقاذ رجل بريء فافتكرت بغيرها لا بنفسها

و بينما كانت هؤلاء السيدات مشتغلات بالاسف والكلام كانت واحدة منهنّ وهي تيوفانا التي تقدّم ذكرها قد ركضت الى داخل الفندق اول ما وقع نظرها على ايليا بين الجموع ٠ وبعد بضع دقائق عادت ووراءها رجل غريب المنظر وهو يفرك عينيه من النعاس كانه كان نائماً واستيقظته ٠ وكان هذا الرجل كبير الهامة عريض الاكتاف طويل القامة شعره منتشر على كتفيه كشعر الرهبان وفي عينيه لوائح الغلظة والحدّة والذكاء ٠ فلما رأته السيدات صرخن « اهلاً وسهلاً بالنبي ارميا » وقالت له تيوفانا مشيرة الى ايليا بين الجموع « انظر الى هذا المسكين فاذهب وخلصه »

ولكن ما وقع نظر النبي ارميا على ايليا حتى اسرع اليه متفرساً فيه من بعيد ٠ ثم صاح باعلى صوته « النبي ايليا » فالتفت حينئذ ايليا واذ ابصر الرجل القادم صاح به « اليّ ياصديق »

فهجم النبي ارميا على الجموع صائحاً اليكم عنه اليكم عنه . فانزاحت الجموع من طريق الرجل القادم وهم يصيحون مسرورين « اهلاً بالنبي ارميا . سلموه اليهودي ليصلبه » فسلمه العامة ايليا وهم يحومون حوله وايليا يلهث من التعب والالم لا من الخوف . فاخذه ايليا من يده ودنا منه فقبله امام الحاضرين ثم قال على مسمع منهم « اذا كنتُ انا يهودياً فهذا الرجل يهودي » فدهش الحاضرون حينئذ واخذوا يتفرقون عن ايليا وهم نادمون لاسائتهم اليه . اما ايليا فاخذ يصلح ملابسه ثم انه شكر للنبي ارميا مساعدته واوصاه ان يُبلغ السيدات شكره وبعد ذلك استأذن ارميا بمفارقته للتفتيش على الرجل الذي كان السبب في الاساءة اليه . وعاهده على ان يلاقيه في المكان الذي اعتاد ملاقاته فيه

وبينما كان ايليا يفتش في ذلك الشارع عن الرجل الذي حرّض الناس عليه وهو لا يزال في اشد هياج كان العامة قد عادوا الى الاضطراب والحركة واخذوا يتصايحون قائلين « فتشوا على اليهودي ... والاَّ لم يُقم عيدولا احتفال لان المصابيح « تأبى » الاشتعال... هل وجدتم اليهودي ... هل بحثتم في ذلك الشارع ... هل قلبتم الحجارة في الطريق لعله مختبئ تحت احدها »

فمن هذا المزاح يظهر ان العامة كانت بذلك تقصد الهزل على الاكثر اذ لم يكن لديها شيء يلهيها . وهذا ما يحدث في اكثر الفتن والاضطهادات . فان المضطهد (بكسر الهاء) والمضطهد (بفتحها) كثيراً ما يكونان كالهر والفأر الاول يلعب والثاني يتعذب

وكان ايليا قد بلغ حينئذ طرف الشارع دون ان يجد الرجل الذي كان يبحث عنه . وكان ذلك الجانب يكاد يكون خالياً من الناس لبعده عن الكنيسة . فلما وصل الى منعطفه همَّ ان يقفل راجعاً واذا به يسمع هامساً يقول « اسرعي يا استير »

فما سمع ايليا اسم « استير » حتى اجفل وهرع نحو الصوت . فشاهد شبحي رجل وامرأة يسيران في الشارع الثاني . فوقف مبهوتاً ينظر اليهما وقد اشتبه في امرهما من اسم « استير » اليهودي . فقال في نفسه ترى هل صدق ظن العامة ودخل بعض الاسرائيليين الى هذه البلدة في ليلة العيد لمشاهدته مع ما هو مشهور من تحريم الدخول عليهم الى اوروشليم ونواحيها . ولما كاد الشبحان يتواريان اسرع ايليا فقطع عليهما الطريق من شارع الكنيسة ثم عطف على الشارع المقابل لشارعهما فصار امامهما . فسمع الرجل يقول للمرأة باللغة العبرانية همساً « لا تخافي لا تخافي » فتحقق ايليا حينئذٍ ان الرجل والمرأة اسرائيليان لا شك فيهما . فاضطرب لذلك اضطراباً شديداً . ووقف في زاوية ينتظر مرورهما عليه في ذلك الشارع

الخالي . وكان سبب اضطراب هذا الشاب يدلّ على اخلاقه . فانه لم يضطرب لمنظر الدم الذي سفك دماً زكياً عنده . فان نفسه كانت ارقى من نفوس العامة بكثير . بل كان اضطرابه لعلمه انّ العامّة اذا ظفروا بهذا الرجل ورفيقته فانهم يقيمون الدنيا ويقعدونها عليهما لمخالفتهما امر الحكومة بمنع دخول الاسرائيليين الى بيت المقدس ونواحيه . وربما لقيا من الحكومة اشد عقاب من اجل امر صغير كهذا الامر

وبعد دقيقة وصل الرجل والمرأة الى محاذاة ايليا . فامعن ايليا من زاويته النظر فيهما فاذا به يرى رجلاً في نحو الستين او السبعين من العمر وفتاة في نحو العشرين . وكانت ملابسهما كملابس رجال وسيدات اورشليم . وكان الخوف باديًا على وجهيهما الا ان خوف الفتاة كان يطبع على وجهها جمالاً سماويًا ساحرًا . وكانت الزفرات تتصاعد من صدرها وهي سائرة فتخنقها ولكنها تتمالك نفسها رغماً عنها لئلا يُسمع صوتها في هدوء ذلك الليل

فلما لمح ايليا في ذلك الليل هذا الجمال الخائف وطرقت اذنه تلك الزفرات المتصاعدة عن قلب مضطرب متألم من عدوان البشر شعر الشعور الذي يشعر به كل رجل كريم يعرف واجباته الانسانية في حال كهذه الحال . فقال في نفسه انني ساكون الزم لهذين الخائفين من ظلهما . فساتبعهما واحرسهما من بعيد واذا طرأ عليهما سوء وقيتهما منه بنفسي . — وعلى ذلك اخذ يسير وراءهما

اما الشيخ والفتاة فانهما ما قطعا البلدة حتى وصلا الى الطريق العمومية الموصلة الى القدس فهناك تنفسا الصعداء قليلاً . وكان في ذلك المكان محطة للخيل والبغال فاستأجرا بغلين الى القدس وركبا قاصدين المدينة . فجاء ايليا بعدهما واستأجر جوادًا وسار وراءهما

الفصل الثالث

﴿ على الطريق ﴾

في ان الفتاة قد تكون اشد تمسكاً بمبدئها من الشيخ لان نفسها عذراء لم يلوّثها الخوف والجبن ورجاء الفائدة

وكان الناس لا يزالون يفدون على بيت لحم من القدس وهم منتشرون على طول الطريق بين مشاة وركاب وفيهم المغنون والعازفون بالآلات الموسيقية . فلما راى الشيخ والفتاة ذلك علما انهما ما زالا في خطر . وفي الحقيقة ان الناس كانوا ينظرون اليهما حين المرور

بهما نظر الاستغراب لعودتهما في تلك الساعة من بيت لحم مع ان جميع الناس كانوا حينئذٍ ذاهبين اليها

ولم يصل الشيخ والفتاة الى محاذاة المكان المعروف بقبر راحيل حتى سُمع للفتاة شهيق وزفير ضعيف ٠ فصاح بها الشيخ همساً اياك والبكاء يا استير والاَّ تفضحينا ٠ فقالت الفتاة ٠ لستُ ابكي على راحيل بل على انفسنا وعلى حياتنا التعيسة (١)

ولقد أُحسنت الفتاة بترك البكاء في ذلك الحين اذ بعد دقيقة سُمع على الطريق امامهما جلبة شديدة ٠ وكان السبب في ذلك قدوم شرذمة من الجنود الفرسان مسرعة من القدس لان والي المدينة بلغه خبر الاضطراب في بيت لحم وهياج الشعب لظنهم ان في المدينة رجلاً اسرائيلياً فرأى زيادة الجند هناك ٠ فلما نظرت الفتاة لمعان السلاح في الليل وسمعت ضوضاء الخيل ارتعدت فرائصها وغار الدم الى قلبها ٠ فشجعها رفيقها بكلام رفيق تظهر فيه القوة مع انه كان خائفاً مثلها ٠ اما الجند فمرَّت خبباً بانتظام جميل ٠ فتنفس الاثنان الصعداء ٠ وكان ايليا قد دنا منهما اكثر حين سماعه تلك الحركة

فلما مرت الجنود صار الناس يتساءلون عن سبب ارسالها بسرعة كهذه السرعة ٠ ولما عرفوا السبب انتشر بينهم بسرعة البرق فضحك منه الراكبون لعدم تصديقهم اياه واما المشاة فانهم جدُّوا في السير لمشاهدة المصابيح التي ابت ان تشتعل واليهودي الذي امسكه الناس ٠ وكانوا في اثناء سيرهم يتهددون ويتوعدون ذلك اليهودي الذي كدر صفوهم في ذلك العيد ٠ فلما وصلت طلائع هذه الجماعات الى الشيخ والفتاة وسمعا حديثهم عراهما حينئذ خوف شديد ٠ اما الناس فلما ابصرا الشيخ والفتاة اخذوا يحدقون فيهما ويعجبون بعودتهما في تلك الساعة قبل الاحتفال بالعيد ٠ وكانت تصوراتهم ملتهبة للقصة التي سمعوها عن بيت لحم فاخذوا يقتربون من البغلين ويتفرّسون في صاحبيهما وهم سائرون ٠ فاصاب الفتاة ضعف شديد فمدَّت يدها وغطَّت بها وجهها لتخفي لوائح الاضطراب والاصفرار وفي الوقت ذاته بدرت منها زفرة رغماً عنها لان صدرها ضاق بما كانت تجده من الاضطراب ٠ فازدادت شبهة الناس فيهما وصاروا يلتفتون نحوهما من كل جانب ٠ ثم قوي قلب بضعة من المتحمسين

(١) راحيل هي امراة يعقوب ويُقال ان قبرها هناك وان كان ذلك يحتاج الى اثبات ٠ وهو اليوم مزار مبني للاسرائيليين ٠ وقد دخلنا اليه منذ نحو ١٢ سنة فوجدنا فيه عشرات من النساء الاسرائيليات يبكين فيه وينحن ويلطمن حزناً على راحيل وعلى اسرائيل وهنَّ بحالة تشبه حالة النساء فوق الميت تماماً من حيث البكاء واللطم والهياج

منهم فاتجهوا نحو البغلين وامسكوهما ليسألوا الراكبين عن حادثة بيت لحم وبذلك ينبشون حقيقـة امرهما

فلما رأت الفتاة ذلك لم تتمالك ان اجهشت بالبكاء واطلقت لزفراتها العنان . اما الشيخ فقد صار وجهه كوجوه الموتى من الاصفرار لانه تحقق الخطر . واما ايليا فانه اعمل المهماز في شاكلة الجواد و بوثبتين صار بجانب البغلين

وكان الناس قد تألبوا حول الشيخ والفتاة من كل صوب حتى سدّت الطريق وصار كل قادم ينضم اليهم مستخبرًا مستعلمًا . وكان هذا يقول انهم قد القوا القبض على اليهودي الذي فرَّ من بيت لحم . وذاك يقول بل هذا رفيقه لا هو نفسه لان ذاك مسجون في بيت لحم الى ان يحضر البطريرك . وهكذا شبهات العامة وتصوّراتها احيـانًا تكون مصيبة واحيانًا مخطئة . فاذا اصابت اكتشفت ما لا يستطيع احد غيرها اكتشافه لان اكتشافه انما يكون بالشبهة والتهمة اي بالصدفة . واذا اخطأت فالويل للبريء الذي ينشب فيه سهم خطاءها

فلما وصل ايليا الى الجموع المتألبة صاح بها بلغة يونانية فصيحة . افسحوا الطريق يا اخوان فاننا نريد المرور . فقال له احدهم ولماذا تركتم بيت لحم في هذه الساعة هل تكرهون حضور العيد والقداس في الصباح . فقـال ايليا انا سائر الى المدينة في شأن خصوصي وساعود قبل الفجر لحضور القداس معكم (١) فساله الحاضرون ورفيقاك هذان . فاجاب انا سائر وحدي ومن هما هذان المسافران . ثم التفت الى الشيخ وساله ايها الاخ هل انتَ ذاهب مثلي الى المدينة لتعود قبل الفجر . فقالـــ الشيخ حينئذٍ بلغة يونانية عامية نعم ايها الاخ الكريم . فقال ايليا انت اكرم يا اخي فهلمَّ بنا نسير معًا . فافسحوا الطريق يا اخوان ولتهنئوا بالعيد المجيد

ولكن الجمهور لم يتفرق بل كانت انظاره متجهة الى تلك الفتاة الحسناء التي بكت منذ حين بكاءً يدل على الخوف . فقال احدهم . ولكن لم تخبرونا شيئًا عن اليهودي الذي قبضوا عليه في بيت لحم فماذا صنعوا به . فهنا ظهر الارتعاد على الفتاة رغمًا عنها . وما الحيلة باعصاب النساء فانها ضعيفة . فازدادت شبهة المتحمسين وصاح احدهم : الحق نقول لكم اننا لا نترككم تمرّون الاّ اذا وجدنا بيننا من يعرفكم وقد رآكم في المدينة . فهلموا بنا الى دير مار الياس القريب على الطريق *وهناك نراكم على النور

فهنا علم ايليا ان الجبانة مضرَّة ولا يفيد شيء مثل الجراءة والشجاعة . فقالـــ بنزق

(١) المسافة بين بيت لحم والقدس خمسة اميال

وحدّة لاسيما وانه كان يعلم تأثير بعض الالفاظ على اذهان العامة : الا تخجلون ايها الاخوة من القاء الشبهة على مسيحيين مثلكم « باسم الآب والابن والروح القدس » قال ذلك ورسم علامة الصليب على صدره . ثم قال للشيخ والفتاة برهنا لهم مثلي على انكم مسيحيون ايضاً

فعند هذا الكلام اتجهت جميع الانظار الى الشيخ والفتاة . اما الشيخ فانه مدّ يده بكل تأنٍ ورسم علامة الصليب على صدره كما رسمها ايليا . واما الفتاة فان يدها لم تتحرك . بل عاودها البكاء

فهنا علم ايليا الخطأ العظيم الذي حدث . وزاده علماً به تهيج العامة حينئذ ونداؤهم « فلتصلّب الفتاة فلتصلّب الفتاة » اي فلترسم علامة الصليب على صدرها . فرأى الشيخ حينئذ ان الخطر قد وقع ولا سبيل لرده . فقال بصوتٍ يرتجف من التأثر والانفعال . نعم هي تصلّب يا اخوان. صلّبي يا بنيّة واسألي الهنا ان يعينك على المرض الذي تبكين منه

فشعر ايليا بما في هذا الكلام من المعنى . وحدّق في يد الفتاة ليرى اتخلّص نفسها ورفيقها ام لا . فاذا بيد الفتاة قد بقيت جامدة وزاد بكاؤها

فهنا اشتد اللغط والهياج بين العامة وصار المتحمسون منهم يصيحون « يهودية يهودية » وسرى كالبرق بين القادمين والحاضرين انهم امسكوا يهودياً ويهودية . فاشرأبت الاعناق وتطاول الناس لرؤيتهما . وفي هذه الاثناء دنا ايليا من الشيخ وحدّثه ملياً والناس لا يسمعون حديثهما . وبعد حين التفت ايليا اليهم وقد عدل عن الخطة الاولى الى خطة جديدة فقال ضاحكاً مخاطباً الجمع : الآن ايها الاخوان عرفتُ حقيقة المسألة . ويكفي ان اقول لكم انّ هذه الفتاة الصغيرة السن قد قدمت منذ اسبوعين من بُصرى (١)

فصاح الجمع حينئذٍ باصوات متقطعة متتابعة « بُصرى بُصرى ... هاهـا نهي اذاً وثنية ... بُصرى بُصرى ... صحيح صحيح . لذلك هي بهذا الجمال . ان « باكوس » الملعون قد كساها كل جماله ... كيريالايسون كيريالايسون ... هلموا بنا الى بيت لحم لتعميدها في هذه الليلة ليلة العيد»

ثم صاح احدهم . ورفيقها هذا أهو من بُصرى ايضاً . فاجاب ايليا لا بل هو من المدينة ولكنه جاء بها لارشادها وتعميدها

«١» بُصرى مدينة ادومية مشهورة في فلسطين كانت آخر المدن الفلسطينيّة التي عُبدت فيها آلهة الرومان واليونان الاقدمين وكان فيها هيكل للاله « باكوس » وهو ابن جوبتير واله الخمر . وكانت في مقدمة المدن التي فتحها العرب عند حملتهم على الشام . وقد اخرنا تاريخ الوثنية فيها للرواية .

هذه هي الحيلة التي دبرّها ايليا لانقاذ الفتاة . فانه كان يعلم انّ العامة يتساهلون مع الوثنية اكثر من اليهودية اذ ليس بين المسيحية والوثنية دمٌ زكي وثأر عظيم فضلاً عن ان الاولى كانت على ثقة من ان مصير الثانية اليها . ولم يكن محرماً على الوثنيين دخول اورشليم . ومن جهة اخرى فقد كان يعلم ايضاً بناءً على ما ظهر له ان تلك الفتاة قد تفضّل اسم « وثنية » على اسم « مسيحية »

و بينما كان الناس يتحدثون و يلغطون مسرورين بانهم سيعيّدون في تلك الليلة عيدين عيد الميلاد وعيد هداية نفس بشرية واذا بالمشاعل والمصابيح قد ظهرت في الطريق من جهة القدس . فعلم الناس حينئذ ان البطريرك قادم بموكبه الى بيت لحم استعداداً لصلاة العيد . فسرّ الحاضرون بذلك لرغبتهم في ان يدفعوا الى البطريرك الفتاة الوثنية يداً بيد . ولذلك انتظروا جميعاً وصول الموكب . اما ايليا فقد لبث واقفاً بجانب الشيخ والفتاة يفكر في طريقة لحلّ هذه المشكلة وقلبه يتفطر شفقة على تلك الفتاة كلما وقع نظرها الفاتر الكسير على نظره . ولكن الحق يُقال ان عاطفة الشفقة هذه كانت ممزوجة بعاطفة اخرى ايضاً . .

الفصل الرابع

البطريرك صفرونيوس

الذي فتح العرب بيت المقدس في زمنه

و بعد عشر دقائق وصل البطريرك

وكان جالساً في مركبة خصوصية له تتقدمه المشاعل والمصابيح وشرذمة من الجند وراء المركبة وامامها . ووراء الجند حاشية من الرهبان يركبون جياداً كريمة . وكان الجميع سكوتاً كانّ على رؤوسهم الطير الاّ جماعة الرهبان في المؤخرة فانهم كانوا يتحدثون همساً اذ من طبعهم انهم لا يستطيعون السكوت

ولما ظهرت مركبة البطريرك للجموع تتقدّمها الانوار اخذ الحاضرون يستقبلونه متغنين بهذا النشيد الذي هو نشيد عيد الميلاد « المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرّة » وكانوا في اشد حالات الهياج من التحمس الدبني . وكان بعضهم سكارى لان يوم العيد يوم فرح وشراب عند العامة . فقال ايليا حين سماعه ذلك النشيد

الجميل « نعم . السلام في الارض لقسم من سكان الارض . اما هذا الشيخ والفتاة فاين السلام منهما الآن »

ولما وصل البطريرك كان النشيد والهتاف متصلين فمدّ يده و بارك الحاضرين في الجانبين اي انه رسم بيده علامة الصليب في الهواء بجهة الحاضرين . ثم وقفت المركبة واستفهم البطريرك عن سبب ذلك الاجتماع والضوضاء فابلغه احد الرهبان السبب. فطلب ان يرى الفتاة فقدّموها اليه وو راءها الشيخ وايليا. فاجال فيها البطريرك نظره بدون اهتمام ثم امر بان تُعاد الى بيت لحم حيث هم ذاهبون وهناك يرى رأيه

فلما سمع ايليا ذلك رأى ان الخطر قد ازداد شدة . فان البطريرك اذا دخل في موكبه مع تلك الفتاة الى بيت لحم في تلك الليلة فان المتحمسين يقيمون الدنيا و يقعدونها بتحمسهم وتجمهرهم . واذا عرفوا الحقيقة بعد ذلك فالله يعلم العاقبة. فخطر له ان يجرّب تجربة لعله ينجح فيها . فانفرد عن الناس وكشف راسه وانحنى للارض امام البطريرك ثم تناول يده فلثمها وقال بيونانية سليمة من كل شائبة : هل تسمحون غبطتكم لابنكم المطيع بان يحدثكم على انفراد

وكانت على وجه البطريرك لوائح الضجر واشتغال البال . ومع ذلك اشار بيده اشارة فانزاح الحاضرون عنه وبقي منفردًا مع ايليا

فقال له ايليا : مولاي ان الهياج شديد في بيت لحم كما بلغكم ولا شك . والشعب كاد يفتك بي انا ابنكم بمجرد الشبهة. فكيف يكون حاله اذا دخلتم بهذه الجماهير مع الفتاة الغريبة وهو لم ينسَ بعد ما لقيه المسيحيون من امبراطرة رومة انصار الآلهة

فاجاب البطريرك وهو يفرك انفه بمنديل اسود لتدفئته : ايها الشاب ان ارسال الفتاة الى بيت لحم حيث نحن موجودون اصون لها من ارسالها الى المدينة وحدها

فعلم ايليا ان حيلته لم تجدِ نفعًا فلم يبقَ له الا مصارعة الحقيقة وجهًا لوجه . فقال للبطريرك بصوت يرتجف : وان ظهر هناك للشعب يامولاي ان الابنة ليست بوثنيّة

فاجاب البطريرك متضجرًا فلتكن مسيحية فان هذا يسرّ كل واحد منا

فقال ايليا : وان لم تكن مسيحية

فهنا بهت البطريرك وحدّق في ايليا . ثم راجع نفسه فتظاهر بانه لم يفهم كلام ايليا . فقال له اركب يا ولدي اركب وسنتباحث في هذه الامور هناك

فحينئذٍ تنفس ايليا الصعداء ورجع باسمًا نحو الشيخ والفتاة لانه قراء في عيني البطريرك

ما يريد معرفته

وفي ذلك الحين تحرك الموكب تتقدمه وتتلوه الجموع والجنود والمصابيح والرهبان . وايليا والشيخ والفتاة على مطاياهم في المقدّمة والناس ينشدون حولهم نشيد العماد المشهور مشيرين الى الفتاة وطالبين تعميدها

« باعتمادك يارب في نهر الاردن . ظهرت السجدة للثالوث . وصوت الآب تقدم لك بالشهادة مناديًا اياك ابنًا محبوبًا . والروح كهيئة حمامة يؤكد تجسيد الكلمة . فيا من انقذت العالم من الخطيئة يارب المجد لك »

وما زالوا بهذا النشيد والهتاف والضجك حتى وصلوا بيت لحم فدوت البلدة من جهاتها الاربع وانضمّ المجتمعون فيها الى القادمين ودخلوا بالبطريرك وايليا والشيخ والفتاة على نغم هذا النشيد المشهور

« اوصنا في الاعالي . مبارك الآتي باسم الرب . اوصنا في الاعالي »

وكان للبطريرك قصر رحب قائم وراء الكنيسة يقيم فيه مع حاشيته كلما قدم الى بيت لحم . فبعد ان استراح فيه هنيهةً امر بان يستدعوا اليه الشاب ايليا . اما الشيخ والفتاة فانهما أُدخلا الى احدى غرف القصر وأُقفل عليهما الباب

فلما مثل ايليا بين يدي البطريرك امره البطريرك بالجلوس بازائه فجلس ايليا محتشمًا

وكان البطريرك صفرونيوس مهيب المنظر جميل الهيئة وهو في نحو السبعين من العمر . وكان شعره الابيض يكلل هامته العالية ووجهه الناصع البياض الشديد الحمرة تلمع فيه عينان زرقاوان حادّتان لم تكسر السنون قوتهما . وكان له فوق هاتين العينين القويتين حاجبان كثيفان واسعان كانهما حرشان مشتبكان فاذا قطبهما خلت ان العينين صارتا بركانين يقذفان نار الغضب والحدّة . وكان بدنًا ممتلىء الجسم وعليه ثوبه الكهنوتي الحريري الاسود يعاكس لون وجهه الابيض فيزيده جمالاً وجلالاً

فلما جلس ايليا سأله البطريرك ان يقصّ عليه القصة من اوّلها وان لا يكتمه شيئًا . فقصّ عليه ايليا حادثته وكيف خاصه النبي ارميا . فابتسم البطريرك لذكر النبي ارميا لانه كان مشهورًا . ثم استطرد ايليا من ذلك الى حادثة الشيخ والفتاة لحين وصول البطريرك . فاصغى اليه البطريرك ساكتًا . وبعد ان تامل قليلاً ساله وما هو غرضك يا بني من المداخلة في هذا الامر . فاجاب ايليا مضطربًا لي غرضان واحد للدفاع عن النفوس البشرية التي حرّم الله اذيتها . وواحد للدفاع عن ديانتنا

ولكن من يعرف اسرار ايليا فانه لا يشكّ في انه كتم غرضاً ثالثاً وهو الميل الذي بداء يشعر به نحو تلك الفتاة الحسناء

فحدّق البطريرك في وجه الشاب مدهوشاً وقال فسر كلامك يابني

فقال ايليا وقد بداء يتحمس : يظهر ان غبطتكم يسرّكم ان تسمعوا من فمي ذلك والا لاكتفيتم بما تعرفونه من هذا القبيل · وحسبي ما فهمته منكم على الطريق · فانه من المشهور ياMولاي ان الخصم لا يُستمال بالعنف والشدة والبغض · فاذا وقع بين ايدينا كان حكمه علينا تابعاً لمعاملتناله · فاذا احسنا معاملته واغضينا عن اساءاته قال اننا قوم كرام متمدنون وربما عاد وانقلب فصار ميالاً الينا · وان عاملناه بالعكس قال بالعكس وازداد بغضاً لنا · فيجب علينا في راءيي ان نحسن معاملة غيرنا لنثبت له فضل مبدئنا · والاّ كان محقاً في كرهه لنا ولمبدئنا

فاطرق البطريرك يفكر · ثم ساءل الشاب هل اسمك الخواجا ايليا يابني · فقال الشاب مدهوشاً من نقل الحديث ومعرفة البطريرك اسمه : نعم يا مولاي · فقال له وهل انت الذي يراك رهباني هائماً على وجهك في جبل الزيتون ووادي سدرون وحول المدينة المقدسة ·

فقال الشاب وقد زادت دهشته · تلك طريقي يا مولاي الى المزرعة التي انا مستخدم فيها ·

فقال البطريرك وقد هزّ راءسه انك تعني مزرعة الشيخ سليمان الذي حرّم على الكهنة الدخول اليها وجعلك «كاهناً عامياً» لها ولذلك يسميها «اورشليم الجديدة» بدل اورشليم مدينتنا· فاطرق الشاب هنا خجلاً واستحياء من شيخوخة البطريرك ورقّته · فقال البطريرك مظهراً الاستياء · لا باءس لا باءس · ولكنني انصحك يا بني ان تخفف على نفسك فلقد نظرتك امس من نافذة قصري في المدينة تنظر الى القصر وسكانه بهيئة الازدراء والاحتقار · وكنتُ في تلك الساعة اقراء تقريراً فيك مقدماً من احد عارفيك · فما لنا يا بنيّ وللاهتمام بما لا يعنينا · انما علينا ان نعيش بحبّ وسلام مع جميع الناس · فان الصغار اخوة لنا كالكبار وكلنا عائلة واحدة بالربّ · وانت لا تزال شاباً ولذلك يغلي دمك في عروقك · وحسبي دليلاً على ذلك اللهجة التي سمعتها منك الآن · فان غيري لو كان في مكاني لما قَبلها منك · فهل تعدني انك تعدل عما مضى وتترك ما لا يعنيك

فلما سمع ايليا هذه العظة الصغيرة التي لم يكن يتوقعها اسقط في يده · واحتار في الجواب · فادرك البطريرك اضطرابه فمدّ يده وامرّها على راس الشاب تحبباً وقال · حسن حسن ستترك كل ما مضى ولا شك · فلنعد الى امر الشيخ والفتاة · هل تعرف منزلها · فاجاب

الشاب . كلا يا مولاي . فقال ومن أين قدما . قال لا أعلم . فقال وما سبب مجيئهما الى هنا مع معرفتهما ان الدخول الى المدينة المقدسة محرَّم قطعياً على اليهود . فقال لا اعلم يا مولاي . فقطب البطريرك حينئذٍ حاجبيه وقال : انك لا تعلم شيئاً من امرهما ومع ذلك تتوسَّط لهما بالعفو بحجة الرفق والرحمة . فالرفق والرحمة يا بني فضيلتان واجبتان ولكن يجب ان نبحث هل وراء هذين الشخصين دسيسة لنا ام لا

فضحك ايليا في نفسه من هذا الفكر ونظر الى البطريرك مبهوتاً . فقال له البطريرك لعلك لم تفهم كلامي بعد . انني اريد قبل كل شيء ان اعلم هل الشيخ والفتاة هما جاسوسان للعرب او الفرس ام لا

فلما لفظ البطريرك هذه الكلمة استنار عقل ايليا بغتةً فرأى ان صاحبيه قد وقعا في ورطة جديدة اشدّ من الاولى . فاصغى قليلاً ثم اجاب . لم افطن الى هذا قبل الآن والاَّ فانني ما كنت اتوسط في اطلاق سراحهما قبل تحقيق امرهما . الاَّ انني استأذن مولاي البطريرك في ابداء ملاحظة صغيرة . وهي ان الفرس مشتغلون عنا الآن بمصائبهم مع العرب الذين يفتحون بلادهم * وفضلاً عن ذلك فانهم علموا من حروبنا معهم منذ بضع سنوات وهدمنا مملكتهم انه لا قبل لهم بنا * وحسبهم عدوًّا واحدًا الآن . ولذلك لست اظنهم يتحرشون بنا بالتجسس علينا . واما العرب فان اليهود غضابى عليهم لان اول عمل عمله اميرهم عمر بن الخطاب بعد وفاة اميرهم ابي بكر هو اجلاؤه اليهود والمسيحيين عن نجران وسائر بلاد العرب * لكي لا يبقى فيها الاَّ دين واحد . وغبطتكم تعلمون ان بعض النجرانيين المسيحيين قد لجأوا الى مدينتنا هذه . فكيف يمكن بعد هذا ان يأتمن العرب يهوديًا على اسرارهم مع معرفتهم استياء اليهود منهم

فهنا تنفَّس صفرونيوس الصعداء وقال هذا برهان ضعيف . فان اليهود كانوا اكبر اعوان الفرس والعرب علينا في جميع حروبنا معهم * وقد بلغت بهم الجرأة ان ثاروا بانطاكية وقتلوا بطريركها كما تذكر * وثاروا ايضاً بصور ليغتالوا المسيحيين ليلاً * فرد الله كيدهم في نحورهم . ولا يزالون يتآمرون سرًّا في فلسطين مع يهود سوريا للثورة علينا * واعظم من ذلك كله انهم اشتروا من الفرس عشرات الوف من اسرانا وذبحوهم انتقاماً منا * فبغض كهذا البغض يا بنيّ لا يحول ولا يزول . ولذلك اعتقد ان اليهود يحالفون علينا كلَّ الامم التي تقوم لانتزاع البلاد من قبضتنا لانهم لا يزالون يحلمون باعادة مملكتهم . وما ادرانا ان العرب لم يعدوهم بمساعدتهم على ذلك اذا هم ساعدوهم علينا

فهمَ ايليا بان يجيب البطريرك بان اليهود ما تطرفوا هـذا التطرف القبيح الاَّ لظلم المسيحيين لهم واضطهادهم اياهم ولكنه رأى الاختصار اولى في هذا المقام فاجاب : ان مولانا البطريرك ادرى منا بهذه الشؤون . وله رأيه الموفق . انما ما زلت أرى ان هذا الرجل لا يمكن ان يكون جاسوساً لانه لو كان كذلك لما جاء بابنته معه ليلقيها بهذه النار اذا كُشف امره .

فابتسم البطريرك وقال ان الجواسيس لا تكمل جاسوسيتهم الا بالنساء . خصوصاً النساء الحسان

فاجتهد ايليا حينئذٍ في ان يقنع البطريرك باطلاق سراح الفتاة على الاقل و يبقي الشيخ لديه ليفحص امره فرفض البطريرك ذلك رفضاً قطعياً لان الشعب كان يطلب تعميد الفتاة في حفلة عموميَّة . وقد قال البطريرك للشاب في هذا الشأن كلمة جميلة وهي « ايليا ايليا انك ملقٍ بنفسك في مضيق لا مخرج منه . فدع الفتاة وشأنها فان بينك و بينها هاوية عظيمة . ثم الا تعلم انني الآن مسئول لدى الله ولدى ضميري عن هذه الفتاة وان كانت يهودية . فكيف تريد ان اطردها وحدهـا الى معترك العالم واسجن عندي حارسها وسندها

لكن يظهر ان البطريرك كان يرغب في استمالة ايليا اليه لمآرب له فرضي ان يُطلق سراح الشيخ و يبقي الفتاة في دير الراهبات في جبل الزيتون حتى يسكت الشعب عنها وتنتفي الشبهة عن ابيها . وقد قال لايليا ان هذا كل ما يمكنه صنعه . و بعد ذلك بعث يسأل في « البيت الاحمر » عن السيدة تيوفانا المشهورة في القدس برقة عواطفها وخدمة الاديرة وقد تقدم ذكرها . واذ وجدوها وكل اليها البطريرك ان تأخذ في صباح الغد تلك الفتاة الى دير العذراء في جبل الزيتون وتوصي بها الراهبات خيرًا

فلما بلغ الفتاة انها ستنفصل عن ابيها وتقيم بين راهبات مسيحيات في دير مسيحي اخذت تبكي وتنوح ولكن اباها اقنعها بان امرها لا يتجاوز الاسبوعين وانه لا سبيل الى غير ذلك نظرًا لهياج الشعب بشأنها وطلبه تعميدها . فسكتت الفتاة ونامت مع ابيها في احدى غرف القصر في تلك الليلة لتذهب في صباح اليوم الثاني معه الى دير الراهبات في جبل الزيتون . وقد صرف ابو الفتاة نصف الليل وهو يوصيها بما اراد ان يوصيها به لتتمكن من اجتياز المصاعب التي كانت امامها

ولما خرج ايليا من لدن البطريرك وجد في الباب راهباً ووراءه رجل يروم الدخول على البطريرك . فدهش ايليا حين مشاهدة الراهب ووقف حائرًا لظنه انه يعرفه . اما

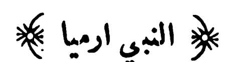
الراهب فابتسم ابتسام الازدراء لانه عرف ايليا وصار يقلب فيه نظره بجسارة وتهكم. فقال ايليا في نفسه وهو خارج : لا ريب في ان هذا هو اخو الراهب متى لان فيه ملامح منه وهو سكرتير البطريرك على ما اعلم . فلو كان الشيخ سليمان مكاني لاراد عاقبة مقاومته لاخيه

وكان الرجل الذي وراءه الراهب رسولاً قادماً من اجنادين حيث يقيم قائد الروم* وهو يحمل كتاباً منه الى البطريرك . فلما رآه البطريرك عبس لانه تشاءم من ارسال الرسول في اسبوع العيد . ولكنه تناول الكتاب باهتمام لا مزيد عليه وصار يقرأه بعينين متقدتين غيظاً واملاً . وما اتى عليه حتى صار يرتجف من الغضب فالقاه بنزق الى المقعد واشار الى الرسول ان يخرج . فجثا الرسول ثلاثاً ودنا فلثم ذيل البطريرك ثم خرج باحترام ظهره الى الباب ووجهه الى البطريرك وهو يمشي القهقرى . فلما خرج صاح البطريرك بالراهب بغضب : مرهم ان يعجلوا في صلاة العيد لنعود الى المدينة والا خفنا ان يباغتنا العرب هنا وان كانوا لا يزالون بعيدين عنا . ثم اطرق البطريرك يفكر . وبعد حين صاح : ان الله سينتقم منهم لتركهم مدينتنا المقدسة بلا مدد جديد لتعزيز حاميتنا . فانحنى الراهب باحترام موافقةً على كلام رئيسه

وفي اثناء ذلك كان الشعب في الاسواق لا يزال يضج ويلعب ويطلب تعميد النتاة . فابلغوه انهم قرروا ارسالها الى الدير وبعد ذلك يرون رأيهم فيها



الفصل الخامس



النبي ارميا

ومشروعه العظيم

في السبب الذي لاجله أحب ايليا حباً فجائياً

وانقضى ذلك العيد في بيت لحم بفرحٍ وسرور بين طبقات الشعب الا ان البطريرك صفرونيوس وقائد الحامية في القدس وواليها كانوا في شغل شاغل وهمٍ شديد . وفي يوم العيد بينما كان الناس منتشرين على طريق بيت لحم عائدين الى القدس كان ايليا على طريق جبل الزيتون فوق القدس صاعداً الى الجبل بخطىً ثقيلة ورأسه الى الارض كانه يعدّ خطاه او يفتش عن شيءٍ امامه . والحقيقة انه كان يتأمل ويتفكر

وانما كان ايليا يفتكر بحوادث امس وسوء حظ تلك الفتاة اليهودية · وكان ايليا كلما افتكر بها شعر بذوبان في قلبه وشفقة لا حدَّ لها · وقد يستغرب القارئ ان يحب هذا الشاب تلك الفتاة من اول نظرة ويخاطر بنفسه وبراحته في سبيلها · ونحن نشاركه في هذا الاستغراب لو لم يكن هنالك سرٌّ صغير بثَّ في دمه سمَّ الحب بقوة الصاعقة وسرعتها · واليك هذا السرّ الصغير الحقيقي الذي لم يطلع عليه احد قبل الآن

منذ عشر سنوات كان ايليا في يافا لحاجة له · ولما قصد العودة منها الى القدس ركب في قافلة وسار معها · ولكنه قبل المسير راءى في المحطة قافلة اخرى تستعدُّ للمسير وراء قافلته وفيها رجل يهودي ومعه فتاة في نحو العشرين من العمر · وكان ايليا يومئذ في السادسة عشرة من العمر · وكان هوائياً اي شديد التصوّرات والانفعالات · وقد قراء بامعان التوراة وتاريخ يوسيفوس في حروب اليهود واخبارهم فصار يرى في اليهود معاصريه بقايا امة عظيمة · ومما كان يفتنه منها على الخصوص قوة نفوس نسائها وجمالهنَّ الذي حلَّ في التاريخ مشاكل كثيرة · · فخيل له ان للمراءة الاسرائيلية نفساً خصوصيّة جاذبيتها اشد من كل جاذبية · فما وقع نظره على تلك الفتاة التي هي من ذلك الدم القديم حتى شعر بانجذاب شديد اليها · وكان جمال الفتاة ولطف عينيها الهادئتين الصافيتين مما ساعد على اسر ذلك الفتى الصغير · وكان على جبينها عصابة بيضاء مزركشة تزيد وجهها بياضاً وجمالاً · فسار الفتى ايليا في قافلته تاركاً قلبه الصغير لدى تلك الفتاة الكبيرة · وكان كلما نزلت القافلة على الطريق يشخص في انوار القافلة القادمة بعدها ويودّ لو تصل الى قافلته لتسيرا معاً · وكان يخيل له حين رؤية اشباح تلك القافلة في الظلام من بعيد انه يرى تلك العصابة البيضاء ذات الزركشة اللامعة وتحتها العين اللامعة · وبالحقيقة انه كان يراها بعين بصيرته · ولما سمع ان احد اللصوص هاجمٌ على القوافل افتكر ايليا الصغير بذات العصابة البيضاء قبل افتكاره بنفسه · وعلى ذلك كان حب ذلك الفتى الصغير حباً حقيقياً لان هذا هو مقياس الحب الحقيقي · وقد بقي ايليا على هذه الحال وبهذه الاماني حتى غابت القافلة ولم يعد يرى لها اثراً فعلم انها حادت عن طريق القدس الى بلدة غيرها · فاطرق الصغير حينئذ يتاءمل في ذهاب حبه سدى · فكان ذلك اول همّ دخل قلبه الخليّ · فيا حب الملائكة انك لا تكون ابداً اطهر من هذا الحب ولا اثبت منه · لان ايليا الصغير بقي يتذكر حتى في احلامه تلك الرؤيا التي مرت امام عينيه كشهاب اضاء فكان نوره اول نور دخل الى قلبه

ولكن بعد عشر سنوات لما وقع نظر ايليا في بيت لحم على الفتاة استير في ظلمة الليل وهي

مضطربة خائفة وعلم انها من دم تلك الفتاة التي احبها في احلامه في صغره ثارت نفسه دفعة واحدة واحبها من اول نظرة ٠ وخيل له انه يحب في هذه الفتاة حبيبين ٠ الحبيب الحاضر الذي يستحق كل حب والحبيب الغائب الذي ذهب في اوقيانوس العالم ذهاب حجر في البحر فلم يعد يظهر له اثر ٠ وكأن اله الحب قصد ايليا بسوء فارسل اليه استير شبيهة بفتاته الاولى في كثير من ملامحها وسنها وقوامها ٠ ولم تكن تنقصها واأسفاه غير العصابة البيضاء المزركشة ٠٠

فصعد ايليا الجبل وهو يفتكر بالفتاتين معاً ٠ ولكن استير — وهي الحاضرة — بدأت تحتل محل الخيالية الغائبة ٠ وكان يتساءل كثيراً عن سبب وجودها مع ابيها في بيت لحم في تلك الليلة ويعد نفسه بلقاء ابيها في ذلك اليوم للوقوف على سر هذه المسألة

وما زال ايليا صاعداً حتى انتهى الى اعلى الجبل فقصد ارزة كانت قائمة هناك كملجاء لطيور السماء في ذلك المكان الجاف (١) ولما وصل اليها عطف الى جهتها الشرقية حيث بني كوخ صغير مستند الى جذعها ٠ وكان في الكوخ رجل جالس ورأسه بين يديه متأملاً متفكراً وامامه كتاب مفتوح ٠ فلما تحقق ايليا وجود الرجل صاح : السلام على النبي ارميا ٠ فنهض الرجل وقال اهلاً بكبيريه ايليا ٠ هل تذهب مرة ثانية الى بيت لحم ٠ فضحك ايليا لهذا السؤال وقال جئت اشكرك يا صديقي لانك انقذتني امس ٠ مالك جالس هنا وظهرك الى المدينة المقدسة

فتنفس ارميا الصعداء وخرج من كوخه الى مقابلة اورشليم ٠ وبعد ان القى اليها نظرة قال : اذا كان الله قد غضب عليها افلا اغضب عليها انا ايضاً ٠ انني صرت اكره النظر اليها ولذلك نقلت كوخي من امامها الى جهة الشرق ٠ نعم لقد صرتُ مجوسياً استقبل الشمس بدل مدينة داود

فضحك ايليا وقال له : ماذا هل جدّ شيء ٠ فقال ارميا متعاظماً : ماذا تريد اكثر من ضياع بلادنا وخراب مملكتنا كما خربت مملكة اليهود قبلنا ٠ فها العرب زاحفون الينا ليأخذوا املاكنا ٠ وها المسيح الدجال يتركنا و يذهب كانه يسرّ بسقوط مدينتنا وديانتنا ٠ فقال ايليا مدهوشاً ومن تعني بالمسيح الدجال ٠ فصاح ارميا والجنون ظاهر في عينيه : الامبراطور ٠ فصرخ ايليا : اسكت ٠ اخفض صوتك يا ارميا والاّ الحقوك بسميّك القديم ٠ فهنا بلغ الغضب من ارميا مبلغه فصاح ونار الجنون تستطير من عينيه : دجال والف دجال ٠ فان سقوط ديننا ومملكتنا سيكون على يده ٠ وهل تريد دليلاً على انه

«١» كان على جبل الزيتون في زمن مملكة اسرائيل ارزة وقد حفظ الاسرائيليون تذكارها بعد تشتتهم

المسيح الدجال اعظم من مقاومته بطريركنا صفرونيوس حتى في المسائل الدينية التي لا يفهم هو منها شيئاً . ان بطريرك اورشليم يجب ان يكون ارفع البطاركة كلمة واصدقهم رأياً لانه قريب من المهد والقبر والجلجلة — تلك الاماكن التي توحي الى النفس الحقيقة والحكمة . ولذلك يجب ان لا يُتبع رأي غير رأيه . واما صاحبنا الامبراطور فانه استمال اليه بطاركة القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية وكذلك اسقف رومه وقرروا مسألة الطبيعتين والمشيئة الواحدة * وانا اقول الآن لك ولهم وللارض والسماء انهم مخطئون جانون على الكنيسة . والحق مع البطريرك صفرونيوس الذي يعلّمنا ان المسيح بطبيعتين ومشيئتين *

فهنا تنفس ايليا الصعداء وقال رجعنا يا ارميا الى المجادلات الدينية . بالله دعنا منها فقد عافتها نفسي

فابتسم النبي ارميا ابتسام الاحتقار وقال — هل تظن اذا تركناها انها تتركنا هي . هيهات هيهات . فانها قابضة علينا وعلى روح مملكتنا بقبض من حديد . فاما ان نحلّها او تحلّنا . فضحك ايليا لهذه التورية في كلام المعتوه وقال له : انك اليوم بليغ يا ارميا فما سبب بلاغتك . يظهر انك لا تزال صائماً لانك ذكرت لي يوماً انك لا تكون حسن البلاغة الاّ اذا كنت صائماً . فقال ارميا نعم ما زلتُ صائماً ولم اتناول طعام العيد بعد . ولكنني اهزاء بطعام العيد وبكل طعام . الا يكفينا خبز الروح الذي هو غذاء النفس . نعم هو يكفي كل رجل صالح واما الاشرار والخنازير البشرية الذين آلهتهم بطونهم فلا يكفيهم خبز الروح . ولكن لا تنقل الحديث الاول فانني اريد اتمامه لابلغك امراً مهماً . هل تريد ان تسعى معي سعياً عظيماً

فحدّق ايليا في المعتوه وقال ما هذا السعي . اخبرني عنه وانبئني اولاً هل حديثك طويل فان لي حديثاً مهماً معك

فضرب ارميا يده في الهواء وقال لا حديث اهم من الحديث الذي اروم الدخول معك فيه فتعال نجلس في الشمس امام الكوخ وهناك اطلعك على مشروعي

فقال ايليا وهو يضحك في نفسه من مشروعات ايليا بل دعنا نجلس هنا امام المدينة المقدّسة فان المنظر في غاية الجمال

وفي الحقيقة ان منظر القدس تحتها كان مما يروق النظر في تلك الساعة . فان الشمس اطلّت على المدينة في صبيحة عيد الميلاد من وراء غيومها السوداء تنثر على ارض القدس نورها الذهبي . وكانت المدينة تحت الضباب الرقيق المخيم عليها بين اسوارها السمراء

الشاهقة المحيطة بها تشبه حمامة بيضاء في قفص مكمد اللون عليها غلالة من القطن المندوف . وكان الناس في سفح الجبل على الطريق يسيرون ذهاباً الى المدينة واياباً منها وهم كلما التقوا صافحوا بعضهم بعضاً تقبيلاً وتبادلوا التهنئة بالعيد . وكان منظر الافق وراء المدينة والى جوانبها متسعاً للجالسين على الجبل فكان ايليا يسرح طرفه فيه مبتهجاً . واما ارميا المسكين فان نفسه كانت لا تشعر بذلك الجمال الطبيعي ولا تلتفت اليه

ولما جلس الاثنان تجاه المدينة كان ارميا يفكّر باهتمام . فقال له ايليا باسماً هات الآن ما عندك واختصر بقدر الامكان

فقال ارميا بجدٍّ ورزانة : ان العلة متى استعصت صار شفاؤها متعذرًا الاّ بعملية جراحية كبيرة او بعناية الهيّة . اما العناية الالهية فيظهر انها غضبى منا لانها لا تساعدنا في شيء فيجب ان نستعمل العملية الجراحية . فانا قد بدا لي امر عظيم . فانك تعلم ان الامبراطور قد ايّد الطبيعتين والمشيئة الواحدة * وهو يتداخل في شؤون الكنيسة * مع ان ذلك ليس من وظيفته . فقال هنا ايليا : انك تتكلم الآن يا ارميا كلام عقلاء . فقال ارميا لا تقطع حديثي واسمع التتمة . وانا متحقق ان البطريرك صفرونيوس مستاء من مداخلات الامبراطور هذه . والكلام بيني وبينك ان هذه المسألة ليست مسألة دينيّة فقط فانها مسألة جنسية ايضاً * فاننا نحن السوريين قد سئمنا النير اليوناني * وقد مضت علينا عشرة قرون واليونان متحكمون فينا منذ فتح الاسكندر بلادنا * فلماذا لا نكون امة مستقلة بديانة مستقلّة وحكومة مستقلّة . ان نفسي تحدثني الآن بهذا الامر . وها العرب قد كادوا يملكون فلسطين وغدًا يصلون الى مدينتنا . ففي نفسي متى وصل ملكهم الى اسوارنا ان اذهب اليه واعرض عليه ان نتفق معه ونكون من حزبه على شرط ان يحمي بطريركنا ويجعله ملكاً مستقلاً في سوريا كالامبراطور . وحينئذٍ يمكن البطريرك ان يقاوم الامبراطور ويؤيد مذهبه في الطبيعتين والمشيئتين . ولا ريب عندي في انه سينتصر عليه انتصارًا عظيماً ويتبعه كل اصحاب العقول في الامة . واول انتصاراته تكون في مصر لان الاقباط فيها مثلنا يئنون تحت نير اليونان * وقد اغتنموا فرصة القول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة للانفصال عن الكرسي الاسكندري والقسطنطيني * والمقوقس كبيرهم وواليهم يجامل العرب الآن نكاية بالامبراطورية * (١) فما قولك في هذا المشروع العظيم

(١) لما كاتب صاحب الشريعة الاسلامية قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس والحرث بن ابي شمر الغساني يدعوهم الى الاسلام اجابه المقوقس صاحب مصر جواباً لطيفاً واهدى اليه اربع جوار منهن «مارية» التي ولدت للنبي ولدا سماه ابرهيم «ابن الاثير»

فعجب ايليا من هذا الرأْي الذي ارتآه رجل معتوه كارميا . فسأَله . وهل اظهرتَ رأْيك هذا لاحد قبل الآن . فقال ارميا نعم لواحدٍ فقط . فقال ايليا مستغرباً . ومن هو . فقال ارميا : الله . فضحك ايليا بعد اهتمامه وقال انك تحسن صنعاً بابقائه بينك وبينه والاَّ اخذوك يا ارميا الى القسطنطينية والقوك للاسود لتلغ بدمائك . فقال ارميا مزمجراً وهل مثلي يرهب الموت فانهم يقتلون جسدي واما نفسي فلا يقدرون عليها . وحسبي فخراً ان اموت في سبيل رفع شأْن المملكة وانقاذها من الهلاك . فضحك ايليا وقال اؤكد لك يا صاحبي انه اذا اجتمع اهل الارض طرًّا لرفع شأْن المملكة من الطريق التي تذكرها فانهم يخيبون سعياً ويضلُّون سبيلاً . وساطلعك في فرصة اخرى على الطريقة الحقيقية لرفع شأْن المملكة . فاكتم مشروعك هذا لئلا يضرك افشاؤُه واصغِ اليَّ الآن لاحدثك في الامر الذي جئت اليك من اجله . فقال ارميا وهو غير راضٍ عن جواب ايليا . وما ذاك . فقال ايليا هل بلغك خبر الفتاة الوثنية التي وجدوها امس على طريق بيت لحم فقال ارميا ضاحكاً . نعم نعم قد شاهدتها اليوم هنا في الجبل حين مجيئهم بها الى دير العذراء لادخالها فيه هدايةً لها . وكان معها سيدة وشيخ وراهبان . ولكن ياالله ما اجملها . حقاً لا اعلم لماذا تكون الوثنيات جميلات هكذا . فقال له ايليا فاسمع الآن لاذكر لك ما اطلبه منك

ثم دنا ايليا من ارميا وانحنى نحوه وصار يحادثه همساً حديثاً سرياً . فلم يكن يُسمع من حديثه سوى كلمات منقطعة مثل : ابواها وثنيان ... ايصال رسائلها اليها ... جائزة سنية لك ... هل يمكن دخول الرجال الى الدير ... هل ترضى بان تصير مسيحية ام ترفض ... اية راهبة هي اشد الراهبات تقوىً واطلاهنَّ حديثاً ... ـ وكان ارميا يجاوب باهتمام شديد وايليا مرتاح الى اجوبته وعلى وجهه لوائح الرضى

الفصل السادس

﴿ امام دير العذراء ﴾

في ان الحبَّ ليس بنبتة تُغرس طوعاً وتُقلع طوعاً

ولما فرغ ايليا من مسارَّة ارميا نهض وودَّعه وانصرف فبقي ارميا وحده مفكّراً تحت الارزة . وسار ايليا في طريقه يقصد دير العذراء القائم على مقربة من الارزة في جهة الشمال على منبسط من الارض فوق الجبل . وكان هذا الدير مبنياً هناك لينقطع

الراهبات فيه الى الله وهو اكرم اديار اورشليم لقيامه على جبل الزيتون المشهور في تاريخ المسيحية في عصر المسيح . وكان محظورًا على الرجال ايًا كانوا الدخول اليه قطعيًا لاختصاصه بالنساء(١)

فلما وصل ايليا الى الدير اخذ يقلّب طرفه في جدرانه البيضاء الشاهقة ويسترق النظر من ثقب الباب الكبير . ثم قصد الحديقة الممتدّة وراء الدير والمسورة بسور عالٍ فصعد الى اكمة تقابلها من بعيد والقى نظره على نوافذ الدير الخارجية التي تطل على الحديقة فلم ير احدًا . فتنهد ونزل عن الاكمة وصار يدور حول الدير وكأن لسان حاله ينشد

امرُّ على الابواب من غير حاجةٍ لعلي اراكم او ارى من يراكم

وبعد برهةٍ سمع صرير قفل الباب فالتفت نحوه فابصر سيدة خارجة منه ووراءها مكارٍ معه حمار . فتأمل ايليا فيها جيدًا ولكن اول ما وقع نظره عليها عرفها فخطا نحوها مسرعًا بهيئة جدية . وكانت السيدة قد عرفته ايضًا فوقفت له مبتسمة . فلما وصل ايليا اليها قال سلام على السيدة الشريفة وكل عام وهي بخير وعافية . فقالت السيدة وكل عام وجنابك بخير ايها الرجل الكريم . ارجو ان لا تكون الغوغاء قد اساءت اليك ليلة امس في بيت لحم . فضحك ايليا وقال انني اول ما نظرتك ايتها السيدة الكريمة اسرعت لاهديك شكري على مساعدتك لي امس بواسطة ارميا فانني لولا هذه المساعدة لاصابني ما لا احب . فقالت السيدة وقد نظرت اليه بعينين براقتين لها حديث سرّي اشكر مريم العذراء التي انقذتك من ايديهم

فلا ريب في ان القارىء عرف السيده تيوفانا التي كانت في البيت الاحمر ليلة امس وعهد اليها البطريرك ان توصل الفتاة اليهودية الى هذا الدير . وكانت تيوفانا في نحو الثلاثين من العمر وهو عمر النساء الكامل الذي تصبح فيه السيدة سيدة تامة لامتلاكها عقلها وعواطفها ومعرفتها طرق السيادة على قلوب الرجال وعقولهم . وكان كل شيء في وجهها يدلُّ على انها يونانية عريقة في اليونانية . فانها كانت حنطية اللون مذهّبته من فعل شمس الشرق الكاوية . بعينين زرقاوين نافذتي السهام فيهما الابتسام دائم . وشفتين رقيقتين وراءهما لؤلوء الاسنان لا يختفي ابدًا لاشتراك الشفتين مع العينين في ذلك الابتسام المستمر . كأنّ النفس التي توحي اليهما ذلك الارتياح الباطني نفس طفلٍ لا تعرف الهم والغم بل هي في ربيع ابدي . وتحت ذلك عنق لو نظره العربي لشبه اعناق الغزلان به بدل ان يشبهه باعناق الغزلان

والحق يُقال ان ايليا لم ينتبه كثيرًا الى هذا الجمال الفتان ولا الى تلك الابتسامات

(١) في جبل الزيتون اليوم في القدس دير للنساء على هذا المثال يسمونه " دير الاميرة "

الجذابة لان الفتاة اليهودية — الموجودة والخيالية — كانت قد ملكت زمام قلبه . والقلب النقي الذي يعرف الحب الحقيقي لا يسع اثنتين . فرام سؤال تيوفانا عنها لعلمه انها هي التي اتت بها الى هذا الدير. فسألها هل ارسلوا الفتاة الوثنية الى هذا الدير ايتها السيدة . فقالت تيوفانا وقد غضت من طرفها بدلال نعم ايها الاخ المحبوب بالرب وهل رأيتها قبل ان جئنا بها

وكان سؤال تيوفانا هذا سؤالاً جديراً بان يصدر عن امرأة في شأن امرأة اخرى يسأل احد الرجال عنها. ولا ريب في انه كان فيه شيء من الحسد والاستفحاص. لان المرأة لا تقدر ان تسمع رجلاً يسأل عن امرأة اخرى باهتمام الا وتحب ان تعرف سبب ذلك السؤال وذلك الاهتمام . فاجابها ايليا انه هو الذي توسط لها لدى البطريرك ليحسنوا معاملتها ولا يسيئوا اليها . فضحكت تيوفانا وقالت فاذاً انت تعرفها . ثم قالت متهكمة : فياليتك تستعمل معرفتك لها لاقناعها بترك العناد والشراسة . فحملق ايليا وقال وماذا صنعت: فضحكت تيوفانا في نفسها وقالت : لما وصلنا الى هذا المكان مع الشيخ والراهبتين صارت الفتاة تبكي ورفضت الدخول . فخرجت اليها الرئيسة ولاطفتها وادخلتها بعد ان اجبرتها على ترك الشيخ . فعاد الشيخ والراهبان اذ لا يسمح للرجال بالدخول الى الدير . وكان الشيخ يبكي ايضاً حين فراقه لها مع انهم قالوا انه غريب عنها . فلما دخلنا ذهبت بها الرئيسة وحولها الراهبات بالشموع والزينات الى كنيسة الدير . وكانت الفتاة تظن انهن ذاهبات بها الى احدى الغرف . فلما دخلت باب الكنيسة كان اول ما وقع عليه نظرها رسم سيدنا المسيح مصلوباً على صليب صغير معلق في صدر المكان تجاه الباب . فصاحت صياحاً هائلاً وسقطت على الارض مغشياً عليها . فاسرعنا ونضحنا وجهها بالماء ونحن مسرورات باغمائها لظننا ان الشيطان الذي فيها قد صرع ومات اول ما وقع نظره على الصليب . ولكنها لما انتبهت زاد بكاؤها وزفيرها . وصارت احياناً تلطم نفسها وتهم ان تنطرح من النافذة كانها تريد ان تنتحر . وقد رفضت الاكل والشرب رفضاً قطعياً . فباسم الصليب الكريم ايها الاخ بالرب . انني ما رأيت في حياتي وثنية شرسة متعصبة كهذه الفتاة . وقد قالت لي الرئيسة انها تشك في اهتدائها ونزول السلام المسيحي والوداعة المسيحية عليها بعد ما ظهر من عنادها وشراستها

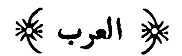
وقد ظنت تيوفانا انها بهذا الذم والتنديد تجعل الشاب يزدري الفتاة وتبعد قلبه عنها وما درت انها بهذا الوصف الذي آلم قلب ايليا قد زادته تعلقاً بالفتاة وشفقة عليها . فاطرق يفكر ثم قال للسيدة جواباً على سؤالها الاول . نعم انني ابذل جهدي لمساعدة الرئيسة على

تسكين هياج هذه الفتاة التعيسة اذا شاءت واذنت لي بالدخول لانني كنت من مساعدي البطريرك على ذلك . فضحكت تيوفانا ضحكة معناها « لستُ ساذجة الى هذا الحدّ لاسعى لك في ذلك » ثم قالت . ولكن يا للأسف ان دخول الرجال الى الدير ممنوع قطعياً

ولكن ما انت تيوفانا على هذه الكلمات حتى سُمع صوت بعيد ينادي نداءً شديداً . فالتفت ايليا وتيوفانا فاذا برجل يعدو كالبرق من جهة الارزة وهو يخبط الهواء بيديه ويصيح بجنون — ايليا . ايليا . العرب العرب . . . لقد وصلوا الى المدينة

فصاحت تيوفانا : هذا ارميا ماذا جرى له . اما ايليا فهرع نحوه وسأله ما بالك . فصاح ارميا وشعره منتشر على كتفيه ونار الجنون تتقد في عينيه : لقد وصل العرب . لقد وصل العرب . فذعرت تيوفانا عند اسم العرب وصاحت بخوف متراجعة نحو باب الدير .

وفي هذه الاثناء كانت الضجة والجلبة حول اسوار اورشليم . وكانت جنود العرب تهتف هتافاً طبق السماء « الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله » *وكثيرون من اهل المدينة حول الاسوار * يشاهدون القبائل البدوية الهاجمة عليهم وبعضهم يضحكون وبعضهم يتأملون — وما دروا ان كثيراً من الضحك عاقبته البكاء



الفصل السابع

العرب

في بيت المقدس

وفي تلك الساعة كان البطريرك ووالي المدينة وقائد الحامية فيها منفردين في احدى قاعات المقام البطريركي بجانب كنيسة القيامة في القدس . وكانت لوائح الغضب بادية في وجه البطريرك وهو مطرق يفكر ويده تعبث بلحيته البيضاء الطويلة المنتشرة على صدره . وكان الوالي وقائد الحامية يتحادثان همساً احتراماً له

وكان الوالي يقول للقائد هل اذا هاجمونا وعدتهم مائة الف يقدرون على اخذ مدينتنا . فاجاب القائد ان القدس لا تُفتح ابداً الا صلحاً خصوصاً في هذا الفصل فصل الثلج والبرد والمطر . فقال الوالي قد قيل لي ان العرب حفاة فلنطاولهم ما استطعنا فان البرد يهرأ اقدامهم فتسقط اصابعهم . فهزّ القائد راسه وقال اما هذا فلا سبيل اليه لان اصابع

رجالنا مع احتذائهم تسقط من البرد واصابعهم هم لا يصيبها اذى لالفة اجسامهم المشقة وشظف العيش * فقال الوالي لا شك ان ذلك كان من اسباب قوتهم

وبينما هما يتناجيان واذا براهب قد دخل مسرعاً وقال للبطريرك ان الرسول في الباب فامر البطريرك بادخاله على عجل . فادخل عليه بدوي بملابس العرب وهيئتهم . فسأله البطريرك باليونانية هل عرفت ما نريد معرفته يا يوحنا . فاجاب البدوي باليونانية ايضاً نعم يامولاي . فقال البطريرك اجلس وقص علينا كل اخبارك

ولا ريب ان القارئ قد ادرك ان هذا البدوي العربي الذي يتكلم باللغة اليونانية واسمه يوحنا انما كان من الغسانيين وهم عرب الشام النصارى * الذين كانوا يعاونون الروم على المسلمين والفرس في حروبهم معهم * وقد حاربوا في اليرموك في جيش الروم حرباً شديدة *

فجلس البدوي يوحنا على مقعد بعيد . وكان قد تزيا بزي البدو ليسهل له الاختلاط بالعرب اخوانه بالنسب والجنس تنسماً لاخبارهم . ثم اخذ يقول (١)

لما توفي نبي المسلمين وخلفه ابو بكر انفذ الخليفة وصية النبي في استعمال اسامة بن زيد على جيش وارساله لفتح الشام * وكان العرب قد اخذت ترتد عن الدين الاسلامي لموت النبي * فلما رات مسير الجيش للشام هابوا الخلافة وقالوا * « لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش . فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه » (٢) فكان جيش الشام كان عوناً شديداً للعرب في الداخل . وبعد اخضاع المرتدين من العرب ابلغ ابو بكر عدد هذا الجيش الى ١٢٤ الف مقاتل * وقد قسمه الى جيشين . جيش لمقاتلة الفرس وجيش لمقاتلتنا * ومن فرط دهائه اوصى الجيشين بان يلبثا دائماً احدهما على مقربة من الآخر ليتمكنا من الاتحاد في ساعة الخطر * وقد فتح جيشهم في الفرس بلاد بابل كلها ودعوها العراق العربي * وكان قائدهم فيها خالد ابن الوليد الذي يلقبونه « سيف الله » * وهو الذي وثب بعد ذلك بامر ابي بكر من العراق الى الشام ففتح غزة وكتب الى الامبراطور يطلب منه ان يسلم اليه دمشق فاجابه الامبراطور بهذا الجواب « ملكك القفر فعد اليه » * ولكن لما توفي ابو بكر بعد ان استخلف عمر بن الخطاب عزل عمر خالداً وولى الشام اباعبيدة الملقب بامين الامة * ويظهر

(١) نعيد هنا القول ان هذه العلامة * تدل على ان ذلك القول وارد في التاريخ . والعلامة (— تدل على عكسه اي انه تصنيف لا اثر له في التاريخ . والقول الموضوع بين قوسين هكذا « » او ( ) او بين ضمتين " " ومعه نجمة * هو نص تاريخي بحرفه

(٢) ابن الاثير

ان ابا عبيدة يقصد دولتنا اكثر من دولة الفرس * لانه بعد اسقاطنا دولة الفرس يعلم انه اذا اسقط مملكتنا لاصبح الله استولى على الكرة الارضية كلها . وهذا ما سمعته من احد رجاله . ولذلك يريد الاستيلاء على مدينة القدس عاصمة المسيحية بعد استيلائه على دمشق عاصمة سوريا

وقد تحققتُ ان العرب سلموا من الاضطرابات والفتن الداخلية التي كانت تتهددهم . وذلك بامرين : الاول شدة اميرهم عمر وحزمه وعدله . والثاني انصرافهم الى فتح الشام وفارس . وهذا ما كان من اكبر اسباب اتحادهم وقوتهم . لانهم لو اقاموا في بلادهم ولم يشتغلوا بمقاتلتنا لانصرفوا الى مقاتلة بعضهم بعضاً كما كانوا من قبل . وهذا من دهاء ابي بكر وعمر ابن الخطاب وسياسته *

فهزّ البطريرك هنا رأسه وكان الوالي والقائد مصغيين كثيراً فاردف الرسول بقوله : اما ما علمته عن زحفهم الينا فهذا (١)

بعد ان فتح ابو عبيدة دمشق واقام فيها شهراً يتمتع فيها مع جنده بمناظرها الجميلة ويستريح بعد عناء القتال جمع اليه امراء المسلمين وقال لهم « اشيروا عليّ بما اصنع واين اتوجه» فاتفق رأي المسلمين اما الى قيسارية (قيصرية) واما الى بيت المقدس (٢) فقال معاذ بن جبل « اكتب الى امير المؤمنين فحيث امرك فسر واستعن بالله» فقال « اصبتَ الرأي يا معاذ » فكتب كتاباً الى الامير وارسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي . فلما قرأ اميرهم الكتاب جمع اليه اعوانه ومشيريه فاستشارهم في ذلك . فقال له علي بن ابي طالب « يا امير المؤمنين مر صاحبك ان يسير الى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا اهلها فهو خير الراي واكبره . واذا فتحتْ بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعدها ان شاء الله تعالى . كذا اخبرني رسول الله » * فقال له الامير « صدقتَ يا ابا الحسن» * فاننا اذا ملكنا بيت المقدس خارت عزائم الجند والشعب وفتحها يعدل فتح القسطنطينية من هذا الوجه (— وكان عثمان بن عفان حاضراً فقال(— رأي

---

(١) نعتمد هنا على الواقدي في ما كتبهُ عن فتح بيت المقدس وان كان تاريخه يكاد يكون في اكثر اقسامه قصة عنترية . والتناقض في الروايات والتفاصيل ظاهر بينه وبين باقي المؤرخين وفيما بين هؤلاء ايضاً . وانما فضلناه عليهم لانه اكثر تفصيلاً . والعبارات الموضوعة في هذا الفصل بين قوسين اوضمتين دون ذكر مصدرها هي له

(٢) لعل الاصح اما حمص وحماة وانطاكية واما فلسطين وبيت المقدس لان قيسارية تابعة لفلسطين

الامير صائب وموفق ان شاء الله . الا انني اخشى امرًا . فقال الامير (— وما هو ايها الناصح النصوح . فقال ان الروم لم تدبّ فيهم الحماسة وينهضوا على مملكة الفرس نهضة واحدة الا لاخذ الفرس صليبهم من بيت المقدس واحراقهم كنيسة القيامة * فاخشى ان نثير حميتهم التي خمدت اذا اخذنا بيت المقدس فنكون كاننا اضرمنا النار بيدنا (— فقال علي (— والله انني لا ارى مناسبة بيننا وبين الفرس . فان الفرس يدخلون المدن هادمين مخربين منتقمين واما نحن فندخل مسالمين مصلحين . فقال الامير (— اجل ان الفرس هجموا على الشام لسحق الرؤساء والشعوب معًا اما نحن فندخل الشام للانصاف بين الشعب والرؤساء فدخولنا نعمة للشعب لا نقمة . ثم تناول الامير حينئذٍ رقًا وقلماً وكتب الى ابي عبيدة يقول * « باسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام ابي عبيدة . امابعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه . وقد ورد عليّ كتابك وفيه تستشيرني في اي ناحية نتوجه اليها . وقد اشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسير الى بيت المقدس فان الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك»

فلما عاد الرسول بهذا الكتاب الى ابي عبيدة وجده في الجابية * فقرأه ابو عبيدة على المسلمين فهللوا وكبروا وفرحوا بسيرهم الى بيت المقدس * ثم « دعا ابو عبيدة بيزيد بن ابي سفيان (١) وعقد له راية على خمسة آلاف وامره ان يزحف الى بيت المقدس وفلسطين . وقال له . يا ابن ابي سفيان ما علمتك الا ناصحًا . فاذا اشرفت على بلد ايلياء (اي بيت المقدس) فارفعوا اصواتكم بالتهليل والتكبير . واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الانبياء والصالحين ان يسهل فتحها على ايدي المسلمين . فاخذ يزيد الراية وسار . ثم دعا ابو عبيدة شرحبيل بن حسنة الذي كان كاتب وحي نبيهم وعقد له راية وضمّ اليه خمسة آلاف فارس من اهل اليمن وقال له سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدّم قبلك . ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن ابي وقاص وضمّ اليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على اثر شرحبيل بن حسنه وقال له : انزل على حصنها وانت بمعزل عن اصحابك . ثم عقد راية رابعة فسلمها للمسيب بن نجية الفزاري وامره ان يلحق باصحابه وضمّ اليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل . وعقد راية خامسة وسلمها الى قيس بن هبيره المرادي وضمّ اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءه .

(١) حذفنا هنا اسم خالد ابن الوليد لان الواقدي وغيره يقولون انه بقي مع ابي عبيدة ولم يرحل في مقدمة الجيش

ثم عقد راية سادسة وسلمها الى عروة بن المهلهل بن زيد الخيل وضمّ اليه خمسة آلاف فارس وسيّره وراءهم — فكان جملة من سرّحه ابو عبيدة الى هذه المدينة خمسة وثلاثين الفاً » وقصده بذلك ارهابنا بنزول امير علينا في كل يوم · وهذه مقدّمة جيشهم · وقد سمعت واحداً منهم يقول بعد وصولهم « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا اكثر زينة ولا احسن عدة من بيت المقدس وما نزلنا بقوم الاّ وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع واخذتهم الهيبة الاّ اهل بيت المقدس فلا يكلمنا منهم احد ولا ينطقون غير ان حارسهم شديد وعدتهم كاملة » (١)

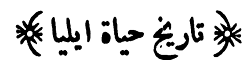
فهنا ضحك الوالي ونظر الى القائد فابتسم القائد افتخاراً بشهادة العدو بثبات جأش الجند والامة · فقال الوالي ليوحنا وماذا سمعت عن باقي مدن فلسطين · فقال الرسول ان جند العرب تفرقوا فيها وهاجموها من كل صوب · فيسان وطبرية واللد والرمله ويافا وقيسارية (قيصرية) وغزه ونابلس وعمواس وبيت جبرين واجنادين — بعضها وقع وبعضها سيقع في قبضتهم · فقال القائد · وهل سمعت شيئاً عن الشام · فقال الرسول ان ابا عبيده قصد حمص من دمشق بعد ارساله الجند الى فلسطين · فلما علم جيشنا بذلك ظن انه قادر على استرداد دمشق فزحف اليها فعاد ابو عبيدة وخالد بجندهما ولاقياه في مرج الروم قرب دمشق فكانت الغلبة لجيش العرب ايضاً * ويُقال ان قائد العرب ابا عبيدة سيقصدنا في وقت قريب

وما أتى الرسول على هذا الكلام حتى دخل راهب واخبر البطريرك ان في الباب سيدة وشيخاً يستأذنان بالدخول · وكانت السيدة هي ام تيوفانا قدمت وهي تبكي خوفاً من العرب على ابنتها التي ذهبت لتوصل الفتاة الوثنية الى دير العذراء · واما الشيخ فهو ابو استير وقد جاء خائفاً على ابنته ايضاً ليلتمس من البطريرك الاذن له بالذهاب الى الدير لافتقاد ابنته · فتضجر البطريرك من مقابلتها وامر الراهب ان يبلغها ان العذراء تحمي ديرها وتسهر عليه · ثم اردف بقوله : ان العرب ليسوا كالفرس بل هم يعبدون الله مثلنا ولذلك يحترمون المنقطعين اليه تعالى (٢) فلا تخافوا منهم على الدير

«١» رواه الواقدي عن المسيب بن نجبة الفزاري

(٢) لما ودع الخليفة ابو بكر جيش اسامة بن زيد حين زحفه الى الشام اوصاهم فقال (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له) ابن الاثير

الفصل الثامن



قبل الحوادث التي تقدمت

ولما رجعت تيوفانا القهقرى الى الدير عند ذكر العرب جرّت معها ايليا بيدها وهي تقول : هلمّ بنا الى الدير يا كيريه ايليا فاننا نخشى ان يقصد احد منهم هذا المكان . ولكن رئيسة الدير لما سمعت من تيوفانا خبر وصول العرب هزّت كتفيها غير مبالية وقالت بتسليم ملائكي لدينا جيش اقوى من جيش الروم والعرب وهو حماية الله . ثم رفضت قبول ايليا وارميا رفضاً قطعياً وادخلت الى الدير تيوفانا وحدها

فبعد اقفال باب الدير قال ايليا لارميا هل تذهب معي الى المزرعة يا كيريه ارميا ام تبقى هنا للسعي كما ذكرتُ لك

فقال ارميا كنت في هذا الصباح في المزرعة فلستُ اعود اليها . وقد سمعت فيها ان الجميع كانوا ينتظرونك لتتناول معهم طعام العيد في الصباح . ولكن بعيشك قل لي ماذا يصنع كيريه سليمان اذا وصل العرب الى مزرعته . فقال ايليا ساسأله عن ذلك الآن . اما انت فدبرّ شغلك كما اخبرتك

ثم انّ ايليا ودّع ارميا واخذ في الانحدار عن الجبل لا من جهة المدينة بل من طريق وراء الجبل تؤدي الى مزرعة كانت قائمة في الجهة الشرقية

وبينما ايليا سائر نحو المزرعة يحسن بنا الآن ان نذكر شيئاً من تاريخ حياته فقد آن ذلك لا سيما وان ما يلي متعلق بما تقدم

***

كان ايليا ابن فلاح من الناصرة يكسب رزقه من حراثة الارض . فربي ايليا بين النباتات والازهار والحقول . وكانت امه قد نذرته للعذراء ورغبةً منها في ان تخصه العذراء بعنايتها كانت في كل مساء يوم احد تاخذه الى البيت الذي قيل انه كان منزل العذراء في الناصرة والذي كان قد أقيم عليه كنيسة احتراماً له وهناك تجعله يفرّق بين الفقراء المجتمعين حول الكنيسة ارغفة خبز تصنعها له امه خاصةً لهذا اليوم . وكان كلما ناول الصغير ايليا احد الفقراء رغيفاً وهو يبتسم ضاحكاً بفمه الوردي كانت امه تقول للفقير « ادعُ لايليا » فيقول الفقير متحمساً بالدعاء لذلك الولد اللطيف « ان شاء الله سيصير بطريرك القدس » فكان ايليا يقرع كفاً بكفٍ من فرحه والدموع تترقرق في عيني الام من حنانها وتأثرها . وفي ذات يوم قدم الناصرة عالم عظيم من القسطنطينية ليزور الاماكن المقدّسة . فلما شاهد ايليا يفرّق ارغفته الاسبوعية وسمع دعاء الفقراء له اخذ العالم راس الصبي بين يديه وقال « نعم يا بني ستكون بطريرك اورشليم الجديدة »

وكان الناس في فلسطين يتزاحمون على هذا العالم من كل صوب لانه كان منجماً عظيماً . وكان تلميذ اسطفانوس الاسكندري الذي كان يُلقب « معلم المسكونة » * والذي اقامه الامبراطور في قصره في القسطنطينية مع اثني عشر عالماً من العلماء لتعليم الفلسفة والطب والموسيقى والهندسة وباقي فروع العلوم * (١) فلما سمعت ام ايليا نبوءة العالم وتنجيمه زاد اعتقادها بعظمة مستقبل صغيرها . فصرفته عن الامور المعاشية الى الوظيفة الدينية التي تجتمع فيها اعظم الاشياء واشدها . اي الرئاسة والخدمة

اما العالم القسطنطيني فانه لم يتنبأ تلك النبوءة للصغير ايليا عبثاً . بل كان له منها غرض اسمى من الغرض الذي فهمته امه . فانه كما تقدم الكلام كان قادماً من القسطنطينية وكان لا يزال يدوي في اذنيه ما رآه وسمعه فيها من المجادلات الدينية الفارغة والانقسامات السياسية وضوضاء المدنية البالغة حدود التهتك والافراط . فلما رأى ذلك الصغيرَ

---

(١) رواه المسيو برتلو الكيماوي المشهور وزاد عليه ان الامبراطور هرقل كان من اكبر المشتغلين بالتنجيم والكيمياء التي يُراد بها تحويل المعادن الى ذهب وقال ان لاسطفانوس هذا سبعة دروس كتبها للامبراطور ولا تزال محفوظة الى اليوم . والعرب يضعون اسم هرقل بين اسماء المشتغلين بالكيمياء

الناصري على ابواب الكنيسة يوزّع الخبز على الفقراء مع انه يكاد يكون فقيرًا مثلهم شعر حينئذٍ بعظمة التدين الحقيقي · فقال في نفسه ان هذا الطفل وامه اقرب الى الله من كل اصحاب تلك المجادلات والمشاحنات التي يدّعون بها التقرب من الله · واعجِبَ بصدق العواطف الدينية في الشرق وبساطتها بازاء القسطنطينية التي صارت فيها العواطف الدينية آلات للسياسة والرئاسة والربح · فقال حينئذٍ لايليا ما قاله مشيرًا الى ان صنع الخير المجرّد عن كل مصلحة خصوصية ونقاء العواطف وصدق الضمير وسذاجة القلب هذه هي المبادىء التي ستكون في المستقبل اساس اورشليم الجديدة · والا فلا يكون هنالك اورشليم ...

اما ام ايليا فانها لما بدأت تدفع ابنها في الطريق الاكليريكية صارت تجلب له الكتب لمطالعتها فكانت لا تلقى رجلاً من رجال الدين حتى تطلب منه كتابًا · وكان ايليا يقرأ كل ذلك بلذة وصبر عجيب · وكانت امه امية لا تحسن القراءة · ففي ذات يوم اقيتْ في كنيسة الناصرة راهبًا غريبًا فطلبت منه كتابًا لابنها واخبرته انها ستدخله دير القدس : فقال لها الراهب ساعطيه كتابًا يعلمه ويجعله اكبر من اكبر بطريرك · ففرحت الام وقويت ثقتها بابنها · وكان عنوان الكتاب الذي اخذته من هذا الراهب الغريب « ثلاثة في المسيح » فدفعته الى ابنها دون ان تعلم بموضوعه · وكان ذلك الراهب نسطوريًا وموضوع هذا الكتاب تعاليم نسطوريوس واوتيشيوس وآريوس الذين مذاهبهم في المسيح اقلقت الكنيسة وضعضعت المعتقدات فاضطر الامبراطرة ان يجمعوا المجامع للحكم فيها تسكينًا للاضطراب الذي حدث في المملكة

فلما وقع هذا الكتاب في يد ايليا همّ ان يصيح بموضوعه امام امه ولكنه كتم الأمر الى ما بعد الاطلاع عليه · وكان ايليا يومئذ في التاسعة عشرة من العمر · وكان قد اصبح فتىً قوي البنية رقيق العود طويل القامة ابيض اللون اسود العينين جميل الهيئة قليل الحركات كثير السكنات · وكان يلذ له الصعود الى الجبال التي فوق الناصرة للتأمل فيها · حتى انه لو كان رنان في عصره ونظره يتأمل من تلك الجبال في المناظر الشائقة التي تحت قدميه لظن انّ الناصري عاد الى الارض مرة اخرى فولد من عذراء وشبّ حتى صار فتىً وجلس على تلك الجبال التي كان يلذ له الجلوس عليها للتفكير بانقاذ العالم مرة اخرى

فقرأ ايليا هذا الكتاب واكثر كتبه الاخرى هناك في ذلك المكان البديع · وما فرغ من كتابه هذا حتى تغيّر رأيه في الثلاثة الذين تقدّم ذكرهم · فانه كان قبل قراءة الكتاب يبغض اثنين منهما بغض الشيطان لما قرأه وسمعه عنهما حتى انه كان يرى الناس اذا

ذكروا امامه احدهما فانهم كانوا يصلّبون استعاذة منه بالله . واما الآن بعد قراءة تاريخ حياتهم فقد ذهب بغضه لهم لانه لم يرَهم سوداً كما وُصفوا له . بل انه اعجب بجرأتهم على الجهر بما اعتقدوه حقاً وذكر لهم فضل العمل والصدق في الفكر والقول . ولكنه لم يقتنع بمذهبهم لان امه ارضعته مع اللبن حب كنيسته وامه الحنون التي سيندمج في سلك ابنائها بعد حين . ولذلك اطبق الكتاب بعد الفراغ منه وتنهد قائلاً « لا تدينوا لكي لا تُدانوا » الا انه بقي في ذهن الفتى برق من هذه المطالعة السرّية وهو حب البحث وحرية القول والفكر

وفي العام التالي اخذته امه الى القدس ليندمج في السلك الاكليريكي . فذهب اليها ايليا بسرور وشوق كما يذهب الى الفردوس الارضي لو علم بمكانه . ودخلها كملاكٍ خَلقاً وخُلقاً وقلبه يرقص طرباً لانه سيكون في المستقبل من اولئك الرجال الضعفاء الذين تُحنى امامهم رؤوس القياصرة والملوك والكبراء ولا سلاح لهم غير ثوبهم الاسود

ففي القدس لقيت ام ايليا في كنيسة القيامة الراهب النسطوري الذي اعطاها الكتاب الذي تقدّم ذكره . فقدّمت اليه ابنها المحبوب واطلعته على نيّتها . وكان ذلك الراهب يُدعى « ميخائيل » وهو شيخ في الخمسين من العمر اصله من بلاد الكلدان ولكنه يقيم في بيت المقدس . فلما وقع نظره على الفتى وآنس في وجهه الروح الملائكي الذي تقرأ النفوس الكبيرة آياته في عيون النفوس الكبيرة التي لا تزال صغيرة قرع ظهره بيده تحبباً وقال « فلتكن روح سيدنا المسيح معك يا بني . انني ارى نوراً الهياً في وجهك . ولو لم ينقضِ عصر الانبياء لقلت انك ستكون النبي الذي تنتظره المسيحيّة »

فبكت ام ايليا من هذا القول المؤثر ولم يبقَ لديها شكٌ في ان ابنها فوق البشر تقريباً . ولا نكتم القارىء انها فتشت في السرّ كثيراً في التوراة والانجيل لتعلم هل هنالك نبوءات عن ظهور نبي جديد من الناصرة ام لا . ولولا مجيء ابن الانسان منذ نحو ٦٢٨ عاماً فربما كان حنانها الوالدي اطلق على صغيرها النبوءات الواردة في التوراة بشأن مجيئه

وكان الراهب ميخائل قد اهتم بايليا اهتماماً شديداً . فلزمه ايليا وصار يزور الآثار المقدسة معه . وفي عيد الامبراطور في ذلك العام اقيم قداس حافل امام القبر فذهب ايليا والراهب لحضور هذه الصلاة وكانت هذه اول مرة يحضر بها ايليا صلاة هيئة دينية كبيرة . وكان اسقف بيت لحم هو المتولي رئاسة القداس وحوله الكهنة والشمامسة والرهبان صفوفاً صفوفاً وكلهم متجهون الى القبر المقدس وحولهم الجموع . فلما حان وقت تلاوة الانجيل مدّ الاسقف يديه ليتناول الكتاب المقدس . فتقدم شماس ليفك

ازراركه فاضطرب وابطأ · فغضب المطران ولطمه على وجهه بيده اليمنى الممدودة · ويظهر ان الشماس الذي ذهب ليأتي بالانجيل ابطأ ايضاً واضطر الاسقف ان ينتظر قليلاً فلما جاءه بالانجيل لطم بيده اليسرى ذلك الشماس لئلا تغار من اليمنى وهو يقول له باليونانية كاسد يزمجر « دياولي » (١)

فلما رأى ايليا ذلك المشهد الغريب ارتعدت فرائصه وصبغ الدم وجهه حتى كاد يخنقه · ثم نظر الى الاسقف ليرى هل يجترئ بعد صنعه هذا على مس الانجيل بيده الضاربة فوجد انه تناول بها الكتاب بكل قوة — ذلك الكتاب الذي يحرّم عليه الصلاة بعد ذلك ان لم يستغفر اخاه الشماس الذي اساء اليه — وصار يتلوه بصوت جهوري

اما الراهب ميخائيل فانه لما نظر تأثر ايليا ابتسم ابتسامة هو وحده يعرف معناها

ولما انتهى القدّاس وخرج الناس نظر ايليا الى صفوف الرهبان الخارجين فوجدهم وقد تفرقوا شتاتاً في فناء الكنيسة كانهم اسرى واُطلق سراحهم · وكانوا يضاحكون بعضهم بعضاً وهم خارجون ويثبون وثباً كانهم مبتهجون بانطلاقهم من قيد النظام الذي كان يجعلهم امام رؤسائهم كاصنام جامدة (٢) فزاد استغراب ايليا لانه كان يظن ان ذلك الهدوء والرزانة والمعيشة الجدية والاحتشام حلفاء لهم في غيبة رؤسائهم وفي محضرهم

فخرج ايليا من اول حفلة حضرها ونفسه الدينية قد جُرحت جرحاً اليماً · وفي خروجه استوقفه على الباب صراخ كاهن يبكي ويصيح عند مرور الاسقف · وبعد الاستخبار ظهر له ان هذا الكاهن كان من القائلين بالطبيعتين والمشيئة الواحدة وقد اغضب البطريرك صفرونيوس بشدة مقاومته فعاقبه البطريرك بان « ربطه » اي قضى عليه بالامتناع عن اقامة القداديس والصلاة فوق المذبح · فتأمل ايليا في الكاهن وهو خارج ورثى لحاله لان ذلك الضغط لا يقطع رزقة فقط بل يلقي عليه وعلى اسمه شبهة عدم الاستقامة في الايمان ويقيد حريته

وكان كثيرون من اكابر القدس قد حضروا هذه الحفلة · فاخذ ايليا والراهب ميخائيل يتأملان في سيدات اورشليم الجميلات الخارجات من القداس وشبانها الذين كانوا في الظرف واللطف والكياسة اشبه بالسيدات ·· وكانت الاطالس والاثواب الحريرية

(١) ليست هذه القصة تصنيفاً من المؤلف بل رآها بعينيه في قداس امام القبر المقدس كان القائم به بطريرك مشهور بشدة الوطأة قبل بطريرك القدس الحاضر · ودياولي معناها شيطان · وكان البطريرك يومئذ يقدس لاحد الملوك في يوم عيد

(٢) هكذا كان ايضاً بعد صلاة البطريرك الذي تقدم ذكره في الحاشية السابقة

والتيجان اللؤلؤية التي تكلل شعور السيدات في شبكة خصوصية * والروائح العطرية التي تفوح من تلك الملابس الجميلة والغضاضة البادية في الاجسام البضة النقية التي تحتها ـ كل ذلك كان يدل على امة سعيدة في الظاهر غنية متمتعة بالملاذ والاطايب . الا ان الفقراء الذين كانوا صفوفاً صفوفاً تجاه الكنيسة وحول بابها وجدرانها وهم بحالة يرثى لها من الشقاء والضعف والفقر كانت حالتهم تدلّ ايليا الفتى الساذج على ان في تلك المدينة العامرة بغناها وابهتها انسانيتين واحدة سعيدة وواحدة تعيسة . والمضحك انه ظن لسذاجته ان الاولى مسيحية والثانية غير مسيحية . لانها لو كانت مسيحية لشاركت اخوتها المسيحيين السعداء في خيرات الارض ونعمها وكانت مساوية لهم في المملكة

فبقي ايليا مفكرًا بعد كل هذه المناظر المختلفة يمشي بجانب الراهب ميخائيل الذي كان يفكّر مثله ايضاً . وكان يقول في نفسه وهو ماشٍ مفتكرًا بضرب الاسقف الشماس . ماذا اصنع بعد ما رأيته ؟ هل ادخل تحت يد هذه السلطة التي لا تخجل من الاساءة اليّ واهانتي حتى امام الناس مع انني في دخولي تحت يدها اتنازل لها عن اثمن شيء عندي واعطيها اكثر مما تعطيني . هل ارضى لنفسي ان تكون في المستقبل في منزلة ذلك الكاهن المسكين الذي اهانوا ايمانه وقيدوا حريته من اجل شيء صغير . لا لا . انني احب الرهبانية . احب معيشتها الهادئة الاشتراكيـة . احب الاناشيد جماعات جماعات تحت سقوف الكنائس الكبرى والاديرة العميقة حيث تتجاوب الاصداء فيها كأنّ الجو مأهول بملائكة تردد اصوات النشيد والصلاة مع المنشدين والمصلّين — ولكنني احب قبل كل شيء حريتي وشرف نفسي . فانني ربيتُ في الحقول بين الازهار والطيور حرًا مطلقاً مثلها . فاذا قيدتُ نفسي الآن هذا التقييد الذي يجعلني رمة هامدة حرمت نفسي اعظم نعم الله واكبر اللذات الروحية واعني بها الحرية . فماذا اصنع ياترى . ماذا اصنع . أ اترك هذه ام اترك ذاك . واذا تركت الرهبانية فماذا اصنع في العالم . ومن اين اعيش . واين اذهب في معترك هذه الحياة

ولما علم الراهب ميخائيل باضطراب نفس ذلك الفتى في هذا الشان اشفق عليه اشفاق من سبقه الى هذه الافكار في صباه . واذ ساله الفتى الارشاد والنصح تردّد الراهب وبقي ساكتاً . فبكى الفتى وقال انني وحيد فريد في الدنيا وقد جعلك الله في طريقي لتكون لي مرشدًا فلماذا تضنّ عليّ بثمرة اختبارك . اما انت انسان ومسيحي مثلي . انسيتَ قول الانجيل : من طلب منك فاعطه ومن سالك فلا ترده . انني لا اطلب منك ذهباً ولا فضة

ولا اكلفك عناء وانما اطلب رايك . فقل لي ماذا اصنع في هذه الحياة التي تركني الله فيها وحدي

فاغرورقت حينئذ عينا الشيخ ميخائيل بالدمع فقرع كتف الفتى بيده تحبباً اليه واجاب . هل تحب ان نشهد معاً بزوغ الشمس غداً يابني . فاجاب ايليا نعم احب ذلك . فقال الراهب واني غداً بعد الفجر الى جبل الزيتون وهنالك نشهد بزوغ الشمس ونتحادث على انفراد في الموضوع الذي طلبت رأيي فيه

الخطبة على الجبل

قصة الراهب الشيخ ميخائيل ـ طلوع الشمس على ايليا (١)

وفي فجر اليوم التالي بكَّر ايليا الى جبل الزيتون لانه لم ينم في الليل الا قليلاً . فوجد الراهب الشيخ ينتظره تحت ارزة هناك . وكانت الشمس لا تزال بعيدة وجيش النجوم في السماء الصافية آخذ في الفرار امام عروس النور . وكان البرد قارصاً وريح الصباح تهب شديدة على الارزة فتئن أغصانها لذلك انيناً شديداً

فاشار الراهب الشيخ الى الفتى بجدٍ ورزانة ان يجلس بجانبه واذ جلس اخذ الشيخ يقول والطبيعة كلها في اواخر ذلك الليل مصغية مع الفتى الى كلامه اللطيف

***

— يا بني : لا تزال الشمس بعيدة فلنتحادث قليلاً قبل ان تشرق . فاننا لا نحتاج الى نورها لبث الحرارة في نفوسنا فان الروح الالهية التي اودعها الله في داخلنا كافية لذلك . ولقد سرتْ امس حرارة نفسك الى نفسي فرأيتُ ان احادثك هذا الحديث بعد ما شهدته امس من اضطرابك وبكائك

يا بنيَّ . نعم انك لم تطلب مني فضةً ولا ذهباً . ولم تكلفني عناءً . ولكن فاعلم انك طلبتَ مني ما هو عندي اهمّ من الفضة والذهب . لقد طلبتَ مني امرين عظيمين . الاول ان امدَّ يدي الى ضميرك في باطن نفسك واديره الى حيث اشاء . والثاني ان احكم لك على هيئتنا ومعيشتنا الحاضرة الحكم الذي اراه

هذا ما يجب ان يدور عليه محور جوابي اذا اجبتك على سؤالك . ولذلك رأيتني

(١) وجدوا في وصيّة الراهب الشيخ ميخائيل انه كشرقي محب للشرقيين يهدي هذه الخطبة الى كل من كان منهم ذا فكر سليم ونية حسنة وعقل مطلق من قيود الجبن والتقليد يطلب الحقيقة المطلقة والفضيلة المجرّدة

ترددت اولاً عن تحمل هذه التبعة العظمى . ولكن دموعك واضطرابك غلبتني فجئت معك الى هنا على هذا الجبل المقدس الذي دوت في فضائه تعاليم الهية لاذكر لك فيه ثمرة اختباراتي في هذه الحياة كما طلبتَ مني

يا بني انك تسألني بعد ما شاهدته في المدينة وفي القداس امام القبر المقدس هل تنخرط في سلك الخدمة الدينية كما كنتَ تنوي ام تعدل عن ذلك الى خدمة اخرى . وما هي الخدمة التي تليق بك . فاجيبك انك اخطأت في تركك تلك الامور الجزئية تؤثر على عقلك . والارجح ان سبب خطائك توقعك من لبس الثوب الاسود الوصول الى الراحة والهناء والسعادة في هذه الارض . ولذلك اجفلتَ لما رأيت الاسقف يلطم شماسه امام الناس والكاهن يبكي وينوح لانهم قطعوا رزقه وضغطوا على حريته . ولكن فاعلم يا بني انني لا احثك على ترك الثوب الاسود للفرار من الاذى والاهانة والضغط والاضطهاد . لان هذا الثوب ما خُلق الا ليتحمل هذه كلها . فاذا كنت تشعر في نفسك بالقوة على تحملها والترفع عن الاهتمام لها فاقدم عليه . والاَّ اذا كنت تطلب به الراحة والهناء فاتركه لانك تكون ضعيفاً يجب ان يخدمك الناس لا ان تخدم الناس

نعم يا بني . لا تدع فساد اعمال الرؤساء يمنعنا من صنع الخير والقيام بواجباتنا في هذه الحياة . وهل الارض للرؤساء لنتركها لهم حالما يظهر لنا انهم عادون عليها وعلينا . كلا . ان كل اساءاتهم وظلمهم وسوء تدبيرهم وعماهم واضطهادهم وعدوانهم لا ينبغي ان تمنعنا من اتمام ما علينا للبشر الذين يعيشون معنا . فنحن نكون خدَمة لله والناس حتى بالرغم عنهم . واذا اصابنا في حياتنا ابان الخدمة ما اصاب ذلك الشماس من رئيسه امام القبر فاننا نقبل اللطمة ونتعزى باننا اقرب الى المسيحية وكتابها من ذلك الرئيس اللاطم . وحينئذ يرى الله والناس اننا نحن الصغار المساكين انما نحن الرؤساء الحقيقيون بالفعل اذ في نفوسنا قوة الرئاسة التي هي قوة المبادىء والعمل بها على حين انه لا يكون من الرئاسة لذلك الاسقف الرئيس وامثاله غير ملابسها المزخرفة ..

أَجل يا بني . انني لا أَرى في تلك الصغائر ما يمنعك من الخدمة لانني اهمل اساءات الناس واعتبرها كانها غير موجودة . ولكنك هنا تسألني ولا شك : اذاً انت تشير عليَّ بالاقدام على الخدمة ونبذ الهواجس من نفسي ؟

يا ولدي العزيز . هنا وصلتُ الى موقف صعب انا فيه بين نارين . فمن جهة يعزُّ عليَّ ان اجهر بما في ضميري لانه مؤلم ومن جهة اخرى يعزُّ عليَّ ان اكذب واخادعك . ولكن

الحقيقة هي عندي يا بني اثمن من كل شيء . ولذلك انا اصرّح لك بها

نعم انني لا اخشى عليك من اساءات الرؤساء وظلمهم فان نفسك القوية لا تبالي بهم لانك لا تخدمهم وانما تخدم الله والناس تحت رئاستهم . وانما اخاف عليك شيئاً آخر

انظرتَ يا بني تينك الانسانيتين اللتين التقتا بعد الفراغ من القداس امام باب الكنيسة . هناك رأيتَ ولا شكّ انسانية سعيدة وانسانية تعيسة . هناك بشر يلبسون الحرير والديباج و يتحلون بالجواهر و يسكنون القصور و يشربون الخمور و يحشون بطونهم حتى حيواناتهم بكل ما في الارض من اطايب وملاذ . وهناك انسانية اخرى تعيسة شقية تطلب خبزاً لتاكل فلا تجد فتنام على الطوى بلا اكل . وتطلب ملجاء تأوى اليه فلا تجد فترقد على تراب الاسواق والشوارع تحت قبة السماء . وتسال ثوباً يقيها البرد و يستر اجسامها المزيلة الصفراء من المرض والحاجة فلا تجد ايضاً فتعيش عارية الاجسام كالحيوانات . يا بني . هنا اعيد عليك قولي السابق : انني لا اخاف عليك من اساءات الرؤساء وظلمهم اذا صرتَ خادماً للارواح : وانما اخاف عليك من الله والناس ان تمدّ يدك يوماً الى تلك الانسانية السعيدة و تباركها فتبارك بذلك الظلم الاجتماعي الذي يسبب هذا الفساد

أجل يا بني . اننا عدنا الى الحالة التي حاربها المسيح منذ ستمائة سنة وبذل دمه لهدمها . انه جاء ليعلمنا الرفق والمحبة والمساواة . ويجعل الجميع اخوة . مبطلاً قسمة الناس الى قسمين اسياد وعبيد . كبار وصغار . اغنياء وفقراء . اقوياء وضعفاء : وهوذا نحن اليوم كما كان اليهود لما صلبوه . — انه جاء لمحاربة الفريسيين الذين يعرّضون اكمامهم ويشمخون بانوفهم ويحبون المتكئات الاولى في المجامع وان يناديهم الناس سيدي سيدي و يتخذون وظيفتهم الكهنوتية آلة لكسب المال من الاغنياء والاقوياء مهملين الفقراء والضعفاء اذ لا يُرجى منهم نفع ولا ربح : وهوذا الفريسيون عائشون في هذا العصر ايضاً ولم ينقرضوا بانقراض اولئك . — انه جاء لمحاربة الدين الذي يُدعم بالمصلحة والمادة وعبادة المحسوسات . وصرع رجاله المرائين الذين يصلّون بشفاههم صلاة لا تصدّقها قلوبهم . ومقاومة جعل الكنيسة ادارة واسعة فيها رئاسة ضاغطة وكهنة خصوصيون يرتزقون من وظيفتهم لان كل انسان يجب ان يكون كاهن نفسه . ومعارضة الذين يقيّدون الله بالهياكل فلا يعتبرون الصلاة في غيرها صلاة حقيقية : وها نحن يا بني نكاد نعود الى هذه كلها . ولو عاد الآن سيدنا المسيح الذي لبسنا من حبنا له هذا الثوب الاسود المتعب لاضطرّ ان يصلب نفسه على يدهم مرة اخرى للدفاع عن المبادىء التي دافع عنها في المرة الاولى

يا بني · عفواً اذا وجدتَ في كلامي شيئاً من الحدة · اذ كيف تريد ان اكون هادئاً رزيناً حين تذكّري هــذه الامور كلها · انني كاهن ويحقّ لي ان استشيط غضباً لالقاء جوهرتنا في وحل العالم · وقد غضب يوماً سيدنا مع كثرة صبره وحلمه فحمل السوط وطرد الباعة والصيارفة من الهيكل · فلي اسوة به اذا غضبتُ وارسلتُ سوط الكلام الى ظهور باعتنا وصيارفتنا ...

انك ربما تستغرب كلامي هذا يا ايها الفتى الساذج النقي لانك لم تعرف شيئاً من فساد العالم ولم ترَ قبل الآن بلداً غير الناصرة وطن سيدنا · ولكن فاعلم الآن — ولا استغراب — ان كل الناس يعرفون هذه الحقائق التي ذكرتها لك ولا يجهلونها · وكم من مرةٍ سمعتُ بعضهم يقول على نغم رنين النقود في الكنيسة وباقي المظاهر اليهودية القديمة ان المسيح لو جاء الآن لما دخل علينا الا وهو حامل سوطاً · اجل يا بني · اننا كلنا لا نجهل هذه الحقائق ولكن ما الحيلة · فاننا سائرون بالرغم عنا الى طور الهرم · وهذه سنّة كونية لا تردّها الا سنّة مثلها · وفعلها عامٌّ على كل المذاهب والاديان في كل زمان ومكان لاعلينا وحدنا

اسمع يا بنيّ لاخبرك خبراً مهمّاً · انك سمعتَ ولا شكّ شيئاً عن العرب · فهذه القبائل البدوية قام فيها رجلٌ همام يدعوها الى ترك الاصنام وعبادة الله تعالى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وايتاء الزكاة وهو النبي العربي الذي شاع خبره · وقد تمكن هذا النبي من التغلّب على القبائل المشركة بقوة السيف المؤيدة بقوة الاعتقـاد والثقة من افضلية المبداء فجمعها كلها تحت لوائه استعداداً لغزو العالم وفتحه بها · وقد كنتُ منذ مدة في تلك البلاد لاننا نحن النساطرة لنا حظوة عند النبي العربي ورجاله وقد عرف بضعةٌ منا وحادثهم ✲ فلما شاهدتُ النبيّ وسمعتُ ما سمعته عنه من الحلم والشجاعة والعدل والرفق والمساواة والعناية بالضعفاء قبل الاقوياء عرفتُ السرّ في تأييد العناية الالهية له في نهوضه · وسررت سرور الطفل لانني عاصرتُ زمناً عظيماً وعصراً ذهبياً · اجل يا بني انّ عصر الانبياء عصرٌ ذهبي · لان الشرائع التي يضعونها تكون عذراء طاهرة لم توضع عليها يد غير اليد الكريمة التي وضعتها · ولكن لا بدّ بعد واضعيها ان ياتي المفسرون والمؤولون والرواة والناقلون · وليس ذلك فقط بل ان الطبيعة نفسها تبدأ بفعلها الابدي · فان الليل والنهار يتعاقبان · والقرون والاجيال تمر · فالامم والمذاهب التي تكون اطفالاً في البداءة تشبّ وتنمو وتتغيّر احوالها فلا تعود تكفيها شرائعها الفطرية الاولى — وهذا ما حدث لنا وسيحدث لغيرنا بعدنا

ولما كنتُ في بلاد النبي العربي يا بنيّ وقفتُ في ذات يوم خارج « المدينة » وكانت خيام جمهور من الحجاج مضروبة في الخلاء والنبيُّ يفتقد الحجاج ويلاطفهم ويزوّدهم رضاه وهم امامه خشّع خضع احتراماً واكراماً . فسرّحت نظري في حالتهم البدوية الجميلة واعجبتُ بالفطرة الانسانية التي يكون فيها البشر بلا همٍّ ولا حزن غير الاهتمام بمعتقدهم . فتذكّرت حينئذٍ منظراً آخر . تذكّرت سيدنا المسيح وتلامذته حول بحيرة طبريا في حقول الجليل الجميلة يتمشون بين الازهار وسنابل الحنطة وهم منقطعون عن هموم الدنيا . فاطبقت حينئذٍ عيني من لذة الذكرى لتتمتع كل حواسي بها . وصرت اقول في نفسي لدى هذين المنظرين : هذه هي فطرة الانسانية . هذه هي المعيشة الهادئة التي تنطبق على الحياة الروحيّة . ثم تساءلتُ : ايٌّ افضل : ان تبقى الانسانية هكذا طفلة صغيرة تعيش في وسط الطبيعة والنباتات والازهار والاطيار وهي محافظة على اصول شرائعها الساذجة الاولى — ام تصير امة عظمى فتبني المدن وتجمع الخيرات والثروات وتحيي الفنون والعلوم وتشيد الدول والممالك وان تركت تلك الشرائع الساذجة الجميلة . وا اسفاه اننا جرّبنا ورأينا . رأينا ان الانسانية متى خرجت عن طور الفطرة والطفولية صارت رجلاً خشناً يهتمّ بمعدته اكثر من نفسه . رأينا ان مبادىء الدين اذا غلبت بعد الانقلاب وصارت سائدة بعد ان كانت مسودة تسلّحت بالقوّة وعاملت من لم يكن منها كما كانوا يعاملونها لما كانت ضعيفة . ولذلك يا ايتها الفطرة الضعيفة الصغيرة انما يتحرك قلبي حنيناً اليك . وافضّلك على كل المدنيات الكبيرة والممالك الواسعة . لان هذه انما هي عبارة عن « كرش » واسع فيه اقذار الهضم مقدّمة على كل شيء

يا بنيّ . عذراً لتحمسي هذا . فانني صرفتُ شيخوختي في التفكير في هذا الموضوع . وقد وصلتُ الى آخر العمر وانا اعتقد اعتقاداً هدم آمالي كلها . وهذا الاعتقاد هو اننا في الهيئة الاجتماعية الحاضرة لا يمكن الاصلاح بواسطة الدين الا اذا كانت الانسانية تعود الى طفوليتها وفطرتها الاولى . فان الدنيا قد زحفت وتغيرت . وصار يلزم نبيٌّ جديد للانسانية الجديدة

يا صديقي الصغير . لا تستغرب هذا الكلام الذي اقوله لك وانا كاهن فانني تعوّدت ان اقول الحق ولو كان على نفسي واعز شيء عندي . ان الدين لم يقدر على اصلاح الفساد الاجتماعي الذي وصفته لك في مقدّمة الكلام . ولا يزال يباركه منذ مئات سنين بركةً لا احبّ لك ان تشترك فيها . نعم انه يشجب الرذائل والشهوات . ويحتقر المال ويسميه الهاً مبالغةً في اذلاله وتنفير الناس منه لئلا يشركوا بالله . ويوجب المساواة بين جميع

طبقات البشر · ويدعو الى الفضيلة والصدق والرفق والمحبة والتواضع والاخاء · ولكن يا صديقي اي تاثير لهذه الالفاظ في النفوس اذا لم تعمل بها · انها تبقى الفاظاً فارغة من المعنى كالبندق الفارغ · ويكون اصحابها الذين يقولون بها ولا يعملون بما يقولونه مؤمنين في الظاهر وثنيين في الباطن · وكثيرون منهم يزعمون انهم معذورون لاقتصارهم على القول دون الفعل · فانهم يقولون مثلاً : كيف نستطيع القيام بما يفرضه الدين علينا قبل ان تُعدّ لنا لوازم حياتنا · كيف نكون امناء مع الفقر والحاجة· وصادقين مع الضغط والظلم · ومحبين صافحين مع الحقد والبغض · وهادئين مطمئنين مع زوابع الحياة التي تعبث بنا من كل جانب · افلا يجب على الاقلّ ضمانة معيشتنا اليومية لنا لنتمكّن من التزام الحدود وقتل صلّ الطمع والحيوانية في داخلنا · فلتضمن لنا الهيئة الاجتماعية رزقنا اليومي وترى بعد ذلك هل يخفّ الشقاء والفساد في الارض ام لا

واأسفاه يا بني · ان في هذا الكلام شيئاً كثيرًا من الحقيقة كما فيه ايضاً شيء كثير من الباطل · فانه يجب علينا ان نطلب الفضيلة لذاتها بالرغم عن فقرنا وحاجتنا وضعفنا · والاّ فان الفضيلة لا تكون فضيلة ولا يكون لنا فضل فيها (١) · ولكن الباطل الذي في هذا الاعتراض لا ينبغي ان يستر ما فيه من الحق : فانه على الهيئة الاجتماعية ان تهتم بكل واحد من الناس لتضمن رزق من لا رزق له وبذلك تكون عملت على تخفيف الشقاء والفساد · وهنا الخطاء العظيم الذي وقعت فيه الكنيسة · فانها ماذا تعلمنا اليوم (٢) ؟ تعلمنا ان الفقراء والجياع والعطاش والمرضى والمتعبين والضعفاء والمحتاجين يجب ان يكتفوا في هذه الحياة بالشكر على بلواهم لانهم اهل ملكوت الله · فكل المساعدة التي تمدّهم الكنيسة بها قاصرة على تقوية نفوسهم لتتحمّل مصائبها · وليس هذا حقهم وحده · بل هم كبشر من مخلوقات الله لهم هنالك حق آخر

أَجل يا اخي الصغير ان لهؤلاء البشر حق المساعدة والاسعاف على الهيئة الاجتماعية لانهم اخواننا في الانسانية · وهذا دَين لهم علينا · ولا نقل ان الكنيسة والهيئة توصياننا

---

١) اجمل تعريف للفضيلة تعريف برناردين دي سان بيير وهو: أن الفضيلة هي مغالبة الانسان نفسه لاجبارها على صنع الخير للغير لوجه الله لا من اجل مكافأة من الناس

٢) قال الراهب الشيخ « اليوم » لان الكنيسة في صدر المسيحية اي في زمن الرسل لما كانت طائفة ضعيفة صغيرة كان كل اهتمامها مصروفاً الى العناية بالضعفاء والمحتاجين وكان كل واحد يبيع املاكه ويدفع ثمنها الى صندوق الطائفة ومنه يُنفق على الجميع

بالاحسان اليهم فان هذه الكلمة المهينة « الاحسان » يجب ان تُمحى من قاموس البشر ويحلّ محلها في هذا الباب كلمة « دَين » لان جميع البشر يجب ان يكونوا متضامنين متكافلين . اذًا فالاقوياء والاصحاء والاغنياء والكبراء مديونون للضعفاء والفقراء والمرضى والعاجزين دَينًا اجتماعيًا لان هؤلاء هم عملتهم واعوانهم في جميع مشروعاتهم ولولاهم لما استطاع اولئك ان يعملوا شيئًا . فنحن نطلب قوةً عادلة تستوفي هذا الدين من الاقوياء للضعفاء . وفوق ذلك تضمن لهؤلاء رزقهم الذي تقدّم ذكره لتهدأ زوابع الحياة وعواصفها المهلكة .

ولكن تُرى ما هي هذه القوة المطلوب منها ضمانة رزق الضعفاء في الارض وهم سواد الامم تقريبًا . ومن اين الاعمال والاموال لاتمام ذلك في ملايين البشر العديدة . ايها الشاب انك لا تزال فتىً صغيرًا . ولكنك غدًا ستشب وتكون رجلاً كبيرًا . وكذلك العلم الذي خلقه الله حياة ونورًا للانسانية : ان العلم لا يزال في الارض طفلاً صغيرًا يا بني . ولكن سيأتي يوم يسود فيه هذا الصغير الدنيا كلها . ان امبراطورنا يشتغل اليوم بالعلم لانه يظن انه يمكنه به قلب المعدن الدنيء معدنًا كريمًا * اما نحن معاشر الناس الذين ننظر الى المستقبل ونتطلع الى ما وراء الفضة والذهب فاننا ننتظر من العلم ان يقلب الانسانية التعيسة انسانية سعيدة . وكأنّ غطاء المستقبل يُكشف الآن عن عينيّ واری الانسانية الآتية الجديدة . اری الانسان يسير في البرّ والبحر والهواء بسرعة الطير ويحمل المصنوعات والمزروعات لامم بعيدة . اری البشر يتخاطبون من قارة الى قارة كأنهم في غرفة واحدة . اری الشعب يرتقي باختراع الآلة الميكانيكية لان المصنوعات لا غنى لها عنه وعنها فيصير شريكًا لصاحب العمل فيها وبذلك ترتقي طبقته وتُملأ الهاوية التي بينه وبين سيده صاحب العمل(١) اری العملة الضعفاء الفقراء يصيرون قادة الممالك بالانتخاب العمومي وتقديس الانسانية اي اعتبار كل فرد من البشر مساويًا لاي فرد كان في الحقوق والواجبات العموميّة لدى الهيئة الاجتماعيّة . اری الحكومات تخجل امام الله والناس من ترك الكبار على الصغار والاقوياء على الضعفاء بحجة ان البشر احرار يصنعون في معاملاتهم ما يريدون صنعه ولذلك توجب على نفسها المداخلة بين الفريقين لضمانة حقوقهما (٢) اری ملاجیء الشيوخ

« ١ » راي برتلو « ٢ » هذا هو المبدأ الذي يتنازع عليه الاحزاب في العالم . فالاحزاب القديمة تقول انه ليس للحكومة حق المداخلة بين العملة واصحاب الاعمال والاحزاب الجديدة تقول بل ذلك من واجباتها . والقول الاول قول انصار حرية العمل في العالم بناء على ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل . اي ان الحكومات يجب ان تطلق حرية العمل للبشر وبذلك ينهض الاقوياء الذين في نهوضهم فائدة ويسقط الضعفاء الذين لا يقدرون ان يفيدوا شيئًا . وقد كانت انكلترا مصدر هذا المبدأ العلمي الذي ايّده دروين وسبنسر وولس .

والمرضى والعاجزين والمستشفيات المختلفة عامة في كل بلدة لايواء الضعفاء وسد حاجاتهم واكابر الامم يتفاخرون بزيارتها وصنع الخير فيها · ارى كل شبر في الارض يُحرث ويُزرع وينبتُ خيرات لسكان الارض ولذلك تُكسر السيوف والرماح والتروس وتُصب محاريث ومعاول · ارى الضغائن والاحقاد بين عناصر البشر المختلفة تهمد وتخمد بهذا التداخل العظيم بعضهم في بعض وبتحققهم انهم انما كانوا يتحاربون على لا شيء · ارى الطب يطيل عمر الانسان الى ما بعد المائتين (١) ويتغلب على الامراض والشيخوخة فاذا جاء الموت كان نوماً لطيفاً هادئاً · ارى الرزق الذي يقتتل عليه الناس اقتتال الحيوانات الضارية قد رخص وخفّ فصار الرجل الواحد يحمل منه في علبة في جيبه ما يكفيه اياماً (٢) ويأخذه من الهيئة الاجتماعية مجاناً · ارى اجناس البشر في الشرق والغرب فرساً ويونانيين ورومانيين وسوريين وعرباً ومصريين ويهوداً وسلافيين ولومبارديين وفندالين ومغوليين واتراكاً وهونيين وقوطاً وفرنكاً وهنوداً وصينيين(٣) وبرابرة مختلفة تتكرر فيهم الانسانية على مر القرون والاجيال وتُنقى من الحيوانية والجهالة والشهوات المفسدة فيمدون ايديهم بعضهم الى بعض متصالحين متصاحبين بعد طول الشقاق والنزاع ويعيشون في الارض بسلام وامن وسعة وفضيلة تامة كانهم اخوة في عائلة واحدة · — يا بني · هذا ما اراه في احلامي واوهامي منذ الآن ·

ولكن يظهر ان الافكار في انكلترا تغيّرت في هذا العصر وقام الاحرار يناوئون هذا المبدأ منهم شارلس بولنس ورونتري وه · صموئيل وتريفيلين وهيربت وموراي وهيموند وكلهم من مشاهير احرار الانكليز وقد حصل هذا التحوّل في انكلترا على اثر كتابات رسكين وكرليل وجورج اليوت الذين اثروا على فكر الامة فصرفوه عن مبداء الاستفراد individualisme الذي اشتهرت به انكلترا الى مبداء الاتحاد والتعاون وتأليف الجمعيات ومن هنا قويت في انكلترا المبادئ والجمعيات الاشتراكية · وخلاصة حجتهم ان ناموس (تنازع البقاء وبقاء الافضل) هو ناموس بيولوجي طبيعي لا يصلح ان يكون قاعدة هيئة اجتماعية مختلفة المصالح والمشارب · فانه قد ثبت في المدنية الحاضرة انهُ ليس كل من ينهضون اقوياء وليس كل من يسقطون ضعفاء · فكم من الاقوياء المستقيمين المدرّبين تذهب بهم عواصف البورصات والافلاس ونظام التجارة الجديد دون ذنب جنوه · واحياء الفساد في لندن وباقي العواصم لا تتقلص مع الوقت وتموت تبعاً لنظام بقاء الافضل بل انها تزداد اتساعاً · وعلى ذلك فالضعيف في مدنية كالمدنية الحاضرة يُفسد القوي بدل ان ينقرض لمجاورته · وبناء على هذا يوجبون مداخلة الحكومة لمنع الفساد · ولذلك كاد البرلمان الانكليزي في العام الماضي يبطل التزام احد مقالع الحجارة اي يناقض مبداء حرية العمل لان الملتزم عاند عملته بما اطال اعتصابهم وافسد احوالهم · وقد انشأت جريدة الطان يومئذٍ لذلك مقالة افتتاحية للدلالة على اهمية هذه المداخلة ·

(١) راجع رأي مشنيكوف في الجامعة السنة الرابعة الصفحة ٣٣٩ «٢» هو الغذاء الكيماوي الذي يقول برتلو انه سيكون في المستقبل حبوباً في علب · · · «٣» اسماء اشهر العناصر البشرية التي كانت موجودة يومئذٍ

ولذلك قلت لك ان اصلاح الارض مسالة علمية لا مسالة دينية واورشليم القديمة يجب ان تفسح مجالاً لاورشليم الجديدة . فيا ايتها الاحلام الذهبيَّة والاوهام الخيالية اتكونين يوماً حقيقة مجسَّمة . يا ايتها الانسانية التميسة اتبلغين يوماً طور الكمال هذا ام تبقين الى الابد في اضطراب وبغض وفساد وحروب وشقاء كما انت الآن . ويا اورشليم الجديدة اتصنعين يوماً ما عجزت عنه اورشليم القديمة !

الله يعلم ذلك يا بني ولا يعلمه أحد غيره . ولذلك لا اذكر لك ما ذكرته كحقيقة مطلقة بل كرأي لي لك ان تبحث فيه وترى فيه رأيك . فيا ولدي العزيز . كانا في هذه الارض عرضة للخطاء وهدف للضلال . وربما اثبت المستقبل بعد مليون سنة مثلاً او نصف مليون ان هذا القصر العلمي الذي رسمته معك الآن انما هو قصر في الهواء . وان الحقيقة الحقيقيَّة هي ما نودي به في حقول الجليل على شواطئ بحيرة طبرية منذ ستمائة سنة من ان المعيشة في الطبيعة بلا هم ولا غم هي المعيشة الانسانية الحقيقية وان البعد عن صل المال وافاعي الجاه والعالم لهو الخير المطلق . وهذا ما يصبو اليه قلبي كما ذكرتُ لك آنفاً وان كان عقلي متعلقاً بذاك . اجل يا صديقي ان هذه الصورة الجليليَّة لهي الصورة السماوية التي تقبض على نفسي بمقابض من حديد بالرغم عنها . وكل ما حاولتُ ان اقول ان ذلك فيَّ من تأثير العادة والتربية ينادي منادي الطبيعة في داخلي هذا النداء الطويل :— كلا كلا . هذه هي الطريق المستقيمة . هذا هو سبيل السعادة الممكنة . اخرجوا اخرجوا الى الطبيعة يا ابناءها وعيشوا فيها بعيدين عن مفاسد الثروات والمدنيات . كونوا كطيور السماء وزنابق الحقل لا تهتمُّ بشيء لانها تجد في الطبيعة كل شيء . اهدموا القصور حيث تعشش الرذائل المختلفة . اخربوا المدن حيث تسود الشرور . مزقوا الكتب وانبذوا العلوم والفنون فانه يكفينا منها كلها علم النفس الذي يشعر به كل واحد منا . ولا تطمعوا في السعادة والراحة والكمال والاصلاح من طريق الدنيا فانها كالماء المالح كلما شرب منه الانسان ازداد عطشاً — وعلى هذا يخيَّل لي عند سماعي هذا الصوت الهائل انَّ العالم الآن خارج عن محوره شاذ عن طريقه فترتعد فرائصي لذلك واهمُّ بان افرَّ منه الى البرية لاعيش هادئاً سعيداً مطمئناً . واعرف من ذلك الصوت السري الخارج من دمي السبب الذي من أجله كان واضعو الشرائع الدينيَّة يحرّمون على الانسان التمتع بالدنيا

فيا صديقي العزيز . هذان طرفان لا اتفاق بينهما الا في النهاية . احدهما يمثل اورشليم الجديدة والآخر يمثّل اورشليم القديمة . ونفسي تتردّد بينهما متألمة منذ تحرّر عقلي وحصلتُ

على قوة الفكر · فلما سألتني عن رأيي في دخولك الى اورشليم القديمة اثرتَ الاضطراب في نفسي لانك ذكَّرتني مصارعاتي الباطنيَّة بيني وبين عقلي · فاضطررتني الى الجهر لك بكل ما في ضميري بالرغم عني

ولقد اطلتُ عليك الكلام يا بني ولكن شجعني على ذلك اصغاؤك اليَّ بكليتك · اما الآن فقد فرغتُ تقريباً · فلك الخيار بعد كل ما ذكرته لك ان تكون من جنود اورشليم القديمة او جنود اورشليم الجديدة · انما بقي عليَّ بعد كل ما ذكرته لك وما رايته في الصلاة امس امام القبر وعلى باب الكنيسة ان اكمل هذه الملاحظات بما يوجب ضميري عليَّ ذكره لفتى مثلك تحدثه نفسه بالانتظام في سلك الخدمة الدينية

قصة الشيخ الراهب

يا بني انك ولا ريب تحب ان تعرف شيئًا من تاريخ حياتي · فانك ترى انني شيخ بيضت السنون شعره ومن كان بسني هذا وهو يعتقد بما بسطته لك آنفاً فانه يدلُّ بذلك على انه لقي في زمانه اضطهاداً شديداً من البشر · وهذا شأن المصائب يا بني فانها اعلى المدارس واسماها لانها هي التي تشحذ همم النفوس وتقطعها عن صغائر هذه الدنيا وتصرفها الى المعيشة الجدية التي يكون فيها للانسان غرض شريف عمومي يسعى اليه · ففي السنّ الذي انت فيه الآن تقريباً كنتُ مثلك يا بني وحيداً فريداً في هذه الحياة · بل انك انت الآن اسعد مني لما كنتُ في سنك اذ لك امّ تضمك وتدفئك تحت جنحي حنانها · واما انا فقد كنتُ بلا امّ ولا نسيب ولا صديق · فكأنني خرجتُ من الارض او نُحتُّ من صخورها · ولكن مع انفرادي هذا في الحياة يا بني لم اجبن ولم اشكُ لانني اعرف مراحم العناية الالهية التي لا تترك من يجعل نفسه اهلاً لمساعدتها وحمايتها · ولم اسبَّ البشر الذين تركوني من كل صوب لان سذاجتي كانت ترى حينئذٍ انني لم اعمل بعد عملاً يستحق اهتمامهم والتفاتهم · فاذا اُهملتُ فالذنب لي وحدي لا لهم · ولذلك عزمتُ على ان اعمل ما يستوجب اهتمامهم بي ويرفعني من وهدتي · ولكنني قلتُ في نفسي ماذا اعمل · هنا كنتُ في حيرةٍ كحيرتك الآن · هل اجعل غرضي الوحيد نفسي فقط فاتاجر وازرع واصنع ام اجعل غرضي في الحياة محبة الناس ونفعهم فاضحي حياتي كلها من اجلهم · واسفاه يا بني انني كنتُ اجهل يومئذ ما اعلمه الآن من ان للخير ابواباً عديدة · كنتُ اجهل ان الذي يُخرج من الارض قبضةً من الحنطة مثلاً او يصنع للناس آلة يحتاجون اليها انما ينفع الناس كما ينفعهم الذي ينقطع الى ارشادهم وتعليمهم · وهذا ما جعلني اختار

الخدمة الروحية · فدخلت احد الاديرة في بلادي بلاد الكلدان . ونفسي تتلهّب شوقاً للعمل ونفع الناس · وكنتُ قد رايت ما في الهيئة الاجتماعية من الفساد والظلم لاستئثار فئة من الناس بكل خيرات الارض وقوى البشر فعزمتُ ان اكون سيفاً ذا حدين · فكنت اذهب حافياً مكشوف الراس بحالةٍ يُرثى لها الى منازل الاغنياء وقصور الكبراء وهناك مثل يوحنا المعمدان كنتُ اقرعهم بسوط التاديب وآخذ منهم مالاً لاخوتهم الفقراء · وكان الذي يمتنع منهم عن اعطائي انادي باسمه على السطوح انه ليس بمسيحي ولذلك كانوا يعطونني خوفاً ورهبةً لا سخاء · وكنتُ بعد جمع ما اجمعه كل يوم انطلق الى الاحراش والطرق واكواخ المساكين وهناك اوزّعه على مستحقيه وقلبي في غبطة وسعادة من صنعي هذا · يا بني ان من لم يعطِ شيئاً في زمانه لا يعلم لذة العطاء · نعم انني كنتُ لما آخذ الشيء اتلذذ باخذه لانني لا آخذه لنفسي ولكنني كنت اجد ان لذة العطاء اضعاف لذة الاخذ · ذلك ان العطاء فعل من افعال العناية الالهية لانها مصدر كل عطاء فالذي يُعطي يكون نائباً عنها ورسولاً من قِبلها · وهذا سبب لذته العظمى · ولذلك لا نجد في الكون كله شيئاً اجفّ واثقل من قلوب الذين لم يتعوّدوا العطاء · ولنشفق على هؤلاء المساكين يا بني لان العناية الالهية لم تجدهم اهلاً لان يكونوا من رسلها · وكنت عاهدتُ نفسي على ان لا اترك الشمس تغيب على قطعة نقود في جيبي · فلما كنتُ اعود من سياحاتي اليومية في الاحراش والطرق والاكواخ وجيبي فارغ كنتُ اشعر بلذة الذي قضى واجبه وفرّغ جيبه ليملأ قلبه · ولكن لما كان يبقى في جيبي ولو فلس واحد كنت اشعر انه نارٌ يحرقني لانني كنت اعتبر انني سرقتُ ما ليس لي · يا بني هنا احد مصادر الفساد ومنابع الشرور · فان اليوم الذي نرى فيه نحن خدَمة الله تعالى ان كل فلس يدخل في يدنا انما هو ملك الفقير لا ملكنا ونعطيه اياه بامانة وشرف بدل جمعه في صناديقنا فذلك اليوم يوم ملكوت الله المنتظَر في عالمنا هذا · لاننا يومئذ نكون من حزب الضعفاء والفقراء لا همّ لنا الا اسعاد شعبنا بدل التزلف للكبراء والاغنياء مشاركةً لهم في الاموال التي يستقطرونها من دماء الامة

فلما مضت عليّ بضع سنوات في هذه الحالة تضجر الاغنياء مني وسخط رفاقي ورؤسائي عليّ · وكان ضجر اولئك لانني كنتُ انغّص عيشهم واذكّرهم بالموت الذي نسوه في اندفاعهم في هذه الدنيا وانبّه نفوس الصغار عليهم · وكان سخط هؤلاء لكراهتهم صنع الخير على غير ايديهم · فلم يلبث ان انتشر بين الناس ان الراهب ميخائيل يجمع المال من الناس بحجة الفقراء ويخبئه في الاحراش · ففي شيخوخته سيجتمع لديه ثروة عظيمة · يا بني انني لما

سمعت هذه التهمة لاول مرة سقطت على الارض جاثياً باكياً وسالت الله ان يقويني على احتمالها ولا يعاقب اصحابها · وبعد التفكر ملياً وجدت ان الناس معذورون بتصديق هذه التهمة لقياسهم عملي على اعمال باقي الناس · فلم اعد اقدر ان اصنع شيئاً مما كنت اصنعه قبلاً · فعدلت عن جمع المال من الاغنياء للفقراء · ولم استاء من عدولي هذا لتركي فقط مساعدة المساكين الذين تعوّدوا مساعدتي بل ايضاً لتخاص الاغنياء من سوط الحق الذي كنت اقرعهم به واجبرهم على وفاء ديونهم لبني جنسهم (١) يا بني ان البغض قديم بيننا وبين اهل المال · واساسه ليس في الانجيل فقط بل في قلب الانسان· لماذا نبغض الحاكم المستبد والظالم والمعتدي واللص والفاجر والشره والحسود · انما نبغضه لان غرضه الاول اشباع « انانيته » اي تسخير كل ما في الوجود « للانا » التي فيه · « فالانا » هذه هي عنده كل شيء في كل شيء · ومن طبع البشر ان لا يتحملوا « انا » كبيرة الا اذا كانت في مصلحتهم العمومية (٢)

فبعد تركي يا بني مساعدة اخواني الضعفاء والفقراء بجمع المال لم انفتح امامي باب آخر · وخيل لي حينئذٍ ان العناية الالهية هي التي اغلقت في وجهي ذلك الباب لتفتح لي هذا · فانني رايت ان المساعدة التي كنت اقوم بها ليست مساعدة حقيقية · لان المساعدة الحقيقية تقوم بانتشال المحتاج من وهدته وايجاد عمل دائم له · واي فائدة في جمع المال لمن ينفقه في يومه ويبقى بعده محتاجاً ضعيفاً كما كان قبله · فخطر لي ان ابني بناء ارسخ من هذا واعظم · ولكن اياك يا بني بعد قولي هذا ان تقع في الخطاء العظيم الذي يقع فيه غيرك من اعتبار العطاء مضعفاً لقوي المعطي له ومعوّده الكسل والبطالة · لا لا · انبذ هذا القول نبذاً · فانه انما هو ستار خشن يقصد به تغطية انانية الانسان وقسوته وبخله · ومن حق الانسانية الضعيفة ان تطلب من الانسانية القوية عذراً للبخل والقسوة غير هذا العذر · لان هذه

(١) اليهودية تقضي على الاغنياء بتعشير اموالهم اي دفع عشر دخلهم للفقراء · والمسيحية توجب دفعها كلها لصندوق الطائفة لانشاء اخوية اشتراكية جميع اعضائها متساوون في كل شيء · والاسلام يقضي بالزكاة وهو اصل من اصوله · قال ابو بكر لجيش خالد بن الوليد حين زحفه لمحاربة المرتدين من العرب «ان اجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان اقروا فاقبلوا منهم وان ابوا فقاتلوهم» «ابن الاثير»

(٢) ان البابا لاون الثالث عشر المتوفي في هذا العام كان مثل الراهب ميخائيل يحمل على الاغنياء الذين لا يفيدون الهيئة الاجتماعية بغناهم · فقسم الاغنياء الى « غني طيب » و « غني ردىء » وهي قسمة واجبة اذ في كل طبقات البشر في كل زمان ومكان اناس كرام يستحقون نعمهم ويعرفون واجباتهم واناس لا يستحقونها ولا يعرفونها

اذا رامت ترك العطاء لانه ليس بمساعدة حقيقية لزمها اذاً المساعدة الحقيقية . لان الذى لا يريد اعطاء الغريق خشبة ليبقى عائماً عليها في البحر بدل ان يغرق يلزمه ان يرسل اليه زورقاً ينتشله وينقذه . والا فاذا تركه يغرق دون هذا ولا ذاك لم يكن انساناً

وعلى ذلك حملت معولاً يا بني بدل الفضة والذهب وسرت الى الاحراش والطرق والاكواخ . وكان كل من رآني بهذه الحالة يضحك ويظنني راهباً معتوهاً . ولما شاهدني من بعيد اصحابي الذين الفوني هرعوا اليَّ كالعادة . فخرج الاطفال من اكواخهم لاستقبالي وهم يتسابقون اليَّ وزحف المرضى والشيوخ والعجزة لملاقاتي وتحرك الفقراء الجالسون في الطرق تحت السياجات ماشين نحوي . فصرت حينئذ ابكي لانني ما كنت احمل لهم هذه المرة ما اعتدت حمله . ولما وصلوا اليَّ وقفت والدموع في عينيَّ وقلت لهم : يا اخوتي وابنائي . ان خبث البشر قضى بحرمانكم من مساعدتكم الماضية . ولكن الله ارسلني اليكم بمساعدة جديدة . ان خبز البطالة خبز مالح مرّ يا اولادي . فهلموا الى العمل رجالاً ونساء واولاداً . ان العاجزين والشيوخ يعملون في الاكواخ عمل النساء والنساء تنزل مع الرجال الاقوياء للعمل في الحقول . والله يبارك ثمرة اتعابنا جميعاً لانه اله الجد والنشاط والعمل

ومنذ هذا الحين انصببنا على الفلاحة والزراعة . فقلعنا الصخور وهدّمنا الآكام وعزقنا الحجارة وازلنا الاحراش وحرثنا الارض على مسافات بعيدة . فلم يلبث ان قام في وسط مزارعنا قرىً صغيرة عديدة يعيش اهلها في وسط الطبيعة وهم يتغذون من نباتات الارض التي يزرعونها والبان المواشي التي يربونها . وكانت امور هذه القرى يدبرها عدة من الشيوخ معي اذ بعثت كل قرية شيخاً من قبلها ينوب عنها وينظر في حاجاتها وتوزيع الارزاق والبذور عليها . وكان اكثر شغلي وشغلهم مصروفاً الى زيارة الاكواخ حيث كانت تقيم فيها تلك الانسانية الصغيرة في احضان الطبيعة الجميلة تحت حماية الله . يا بني . وكنت ادخل هذه الاكواخ النظيفة المرتبة التي كانت تحرقها الشمس طول النهار فتطهرها من مواد العفن — براسٍ شامخٍ وسرور في القلب لا على الشفتين فقط . ذلك لانني داخل لاعطي لا لآخذ . ولم يكن عطائي يومئذٍ فضة ولا ذهباً بل ما هو اثمن واجمل من الفضة والذهب . انني يا بني كنت اعطي اخلاص قلبي وصدق ضميري وصحة اشتراكي . فاذا دخلت وكان في الكوخ ولد يبكي او ام منزعجة لهموم منزلها او شيخ عاجز مريض يئن من مرضه وعجزه فانني كنت ابكي لبكائهم واتوجع لاتوجعهم واقول لهم : يا اولادي فلنشكر الله لان مصائبنا اصغر من مصائب غيرنا . انظروا الى العالم فيزداد بكاؤكم ولكن لا على انفسكم بل على اهله .

في هذه الساعة التي اخاطبكم بها كم من ام واب واخت واخ يبكون وييئسون في العالم اما من ضيق رزقهم او فقد اعزائهم او اضطهاد الاشرار لهم او لامراض هائلة يقعون فيها اسوء تدبيرهم او لوراثتهم اياها من اهلهم او لوقوع الاقدار عليهم · يا اولادي فلنصل الى الله من اجل هولاء التعساء ولنحمده لان تعاستنا لا تذكر بازاء تعاستهم لانها لم تنشأ الا عن الضجر وضيق الخلق · ثم اننا كنا يا بني نرفع ايدينا وعيوننا الى السماء ونصلي « ابانا » فقط · فلا نفرغ منها الا والامل قد عاد الى نفس الشيخ والام ضحكت ونسيت انزعاجها وتعبها والولد صار يضحك ويغرّد كانه هزار في بستان ·

ولما كنت اخرج من هذا الكوخ بعد تحويل الضعف والضجر فيه الى قوة وسرور كانت نفسي في حالة لا اقدر على وصفها لك · انما يكفي ان اقول لك انني كنت حينئذ سعيداً سعيداً اذا كان في هذه الارض سعادة · فكنت اذهب مشروح الصدر الى كوخ آخر وهناك اسمع قهقهة الضحك والسرور من الباب · وبعد دخولي كنت اجد الام والجدّة والجدّ مثلاً حول موقد النار وامامهم طفل لهم يلاعبونه و يداعبونه وهموم العالم في معزل عنهم · فكنت ادخل ضاحكاً باشاً فآخذ الطفل بين ذراعي واجلس مخاطباً الطفل واهله بقولي : اسأل الله ياولدي ان يبقي لك ولاهلك هذه البشاشة وهذا السرور · فانها غنى النفس الحقيقي وثروتها العظمى وقوة هذه الحياة · أجل يا اولادي ان البشاشة قوة الهيّة اذا كانت ناشئة عن الرضى باحكام الله والتسليم الى ارادة الله · ولكن فلنذكر الذين يحزنون و يهتمون و يتعبون ولنفتكر بهم ولنصلِّ الى الله من اجلهم · ان الانسان الكريم في هذه الحياة يخجل ان يكون سعيداً بازاء تعاسة باقي الناس (١) فلنكن من الكرام يا اولادي · لنشكر الله لاعطائه ايانا قوة البشاشة والصبر والمسرّة · ولنسأله ان يقينا من طوارىء المستقبل ويقوّينا على احتمالها حين وقوعها علينا · اذ لا بدّ منها يوماً من الايام -- فبعد هذه الكلمات يا بني كنت اری اولائك السعداء قد هدأت نفوسهم بعد خفّتها وترقرقت عيونهم بدموع ذكراهم تعاستهم الماضية والآتية · ولم اكن لآسف على هذا لانني انما كنت اقصده · لان غرضي كان في كوخ التعيس تذكيره بشقاء الناس لتخفّ عليه تعاسته واريه انها سنّة على الجميع · وفي كوخ السعيد ان اذكّره بالتعاسة والمصائب لئلا يقسو قلبه وتبطره النعمة فيشرس ويخشن وينسى الله والناس · وهكذا كنت بيسير من العناية والتدريب

---

١ قال الحكيم الفرنسوي لابروبير Il y'a de la honte à être heureux وهو بالمعنى الذي ذُكر هناك

والاخلاص اجعل اولئك التعساء والسعداء بشرًا هادئين راضين باشين مسلّمين امورهم الى باريهم لا تبطرهم نعمة ولا تسحقهم نقمة ولا غرض لهم غير مساعدة بعضهم بعضاً على عبور نهر هذه الحياة

يا بني . هنا وصلتُ الى ما لا يزال تذكاره مزعجاً لنفسي . ولكن لا بدّ من اتمام حديثي . فبعد مدةٍ انتشر خبر مزارعنا في البلاد كلها . فكان الفلاحون والناس يفدون علينا من كل جانب للانضمام الينا . فكأنّ قراننا الهادئة اللطيفة ومعيشتنا الطبيعية الانجيلية الاشتراكية كانت مغناطيساً يجذب النفوس اليناني وسط هذا العالم المضطرب . ولكن وا اسفاه يا بني ان شيطان الحسد والطمع والبغض كان يترصدنا . وهذا من اقبح مفاسد الحياة . فانه لا يكفي الانسان ان يُخلص في عمله و يفرغ جهده ويشق نفسه ليتقنه و يقوم بواجباته بل عليه ايضاً ان يفكّر في ان يصرف عنه حسد الناس حين نجاحه والا اودى هذا الحسد به و بعمله . وهذا ما حدث لنا . فانه لم يلبث ان انتشر عنا في المدن والقرى اخبار هائلة . فقوم قالوا اننا كنا نؤلف جمعيات سرية غرضها محالفة الفرس لطرد اليونان من سوريا . وقوم قالوا اننا اردنا ان نبرز « جمهورية افلاطون » من حيّز القوة الى حيز الفعل فننشيء هيئة اجتماعية لا تتألف من العائلة ولا يعرف الاولاد انسابهم فيها(١) وبعضهم قالوا اننا نادينا برفع سلطة الكنيسة وقررنا اتباع آريوس . يا بني انك لا تتصور ما كان من التاثير لهذه التهم الهائلة على اناس سذج فضلاء مثل فلاحينا خصوصاً التهمة الثانية والثالثة . فقد بقي النساء يبكين اسبوعين من تاثير التهمة الثانية . وقد صلينا مرارًا الى الله ان ينير عقول بني عصرنا و ينبذ من صدورهم ذلك الخبث الذي راموا محاربتنا به . اواه يا بني . ان بني عصرنا كانوا ابرياء من ذلك الخبث وان كانوا شركاء فيه اذ لا ذنب لهم غير تصديق تلك الاشاعات . وانما كان مصدر الخبث حسد رفاقي ورؤسائي الذين كانوا يغضبون من مشروعي لانه جعل رعيتهم تطالبهم بمثله وكثيرون منها هاجروا الينا . وهكذا اجبرني خبث البشر مرة ثانية على ان اترك ما تعبتُ ببنائه . فصدر اليّ امر رئيسي ان الزم الدير وان اقتصر على الوعظ في الكنائس . فعدت الى الدير بنفس مسحوقة وظهر مقصوم وقلب متفطر . و يا ايتها السماء يا ظلمات الليل يا كواكب الفلك — انت وحدك كنت تشهدين على ما قاسيته في ذلك الزمن في لياليّ المظلمة الطويلة . ولكن الله كان معي يا بني . وهو يكون دائماً مع جميع الذين يضطهدهم البشر ظلماً وعدواناً . ولذلك شعرت بعد مدة بعودة الثقة والامل والقوة الى نفسي . وفي ذات

(١) جمهورية افلاطون هي كتابهُ الفلسفي الاجتماعي المشهور

ليلة وانا على سطح الدير انظر البدر يطلع تماماً من وراء الجبال البعيدة واشاهد بعضاً من رؤسائي ورفاقي يتمازحون ويتضاحكون في حديقة الدير وهم يتغنون باناشيد روحيّة — استغرقت في بحار التأمل والتفكير. واخذت اخاطب نفسي قائلاً لماذا ايتها النفس لا تصنعين صنع هؤلاء. لماذا لا تكتفين بغذائهم ومشاغلهم واحوالهم. ماهذه النار الدائمة التي تحرقك فلا تدعك تستريحين ابداً. افرحي وكلي واشربي وانعمي بالرئاسة والكرامة والجاه مثل غيرك. انني آسف عليك وعلى جهدك. آسف لانك تتعذبين والاشرار يتنعمون. آسف لانك تسهرين وتقلقين وتزحين والاردياء ينامون ملء الجفون. تخفني عنك. واريحي نفسك. — يا بني. ولكنني سمعت تلك النفس التي كنت اتهكم عليها حينئذ بهذا القول كانها تناديني في هدوء ذلك الليل وتقول: يا رفيقي الحيوان في باطن هذا الانسان. مالك رفعتَ راسك وانتبهت بعد طول رقادك. انني كنتُ اظنك قد متّ وقضي عليك. الا فاعلم الآن انني لا اصغي اليك ابداً. نعم انت تتحكم في غيرى فتجعل همهم الاول في هذه الارض الاكل والشرب واللذة اما انا فقد اسرتك وكبحتُ جماحك من زمن بعيد. وكن على ثقة من انني ساخنقك ولو خنقتُ نفسي. فانا في هذه الارض كذلك اليهودي الذي تمنع عن حمل صليب المسيح فبات يتيه في الارض ويمشي فيها الى الابد. نعم نعم الى الابد الى الابد انا اعمل. الى الابد الى الابد ساخدم بني جنسي. الى الابد ساضحي نفسي من اجل غيري. وهذه هي لذتي. تقول انني لا انفع شيئاً وان جهدي ذاهب ادراج الرياح بدليل تخريب البشر عملي مرتين. ولكن يا رفيقي الحيوان الجاهل انني لا ادع النملة تكون افضل مني. فانك اذا خربتَ بيتها مرتين او عشر مرات فانها تعود الى بنائه بصبر اشد وجلد اقوى. فدعني اذاً وشأني. انني ابذر بذور الحقيقة والفضيلة والعمل ومحبة الله والناس في ارضنا الشرقية الخصيبة فاذا لم تنبت هذه البذور في حياتي فلا بدّ ان يأتي بعدي من يعتني بها او يفتقدها. وكن على ثقة من انه ليس تحت قبة السماء قوة قادرة على منعي من بذرها. لا تقل الاضطهاد والفقر والطعن والشتم والتهمة فانني ابارك هذه الامور واضحك منها لانها تزيدني قوة وتضاعف صبري وشوقي الى العمل. فهي كالحطب تُلقى على النار المتقدة في باطني فتزيدها اضطراماً. ولست اخاف الا من شيء وهو اجبارهم اياي على الخروج عن الحدود التي اريد التزامها

يا بني ومنذ تلك الليلة شعرت بقوة جديدة. وكان اليوم التالي يوم احد وكثيرون من اهل القرى قدموا الى كنيسة الدير للصلاة فيها. فصعدت الى كرسي الوعظ ووعظت عظة موضوعها «احبوا اعداءكم باركوا مبغضيكم» ولكن لم ينقض ذلك اليوم حتى صار

الدير كله مع ما حوله من القرى في اضطراب شديد بسبب هذه العظة . وتتالت الرسل من الدير واليه بشأنها

ولماذا كل هذه الضوضاء يابني . هل علمتَ سببها ؟ سببها تهمة وفرية اخرى وهي ان الراهب ميخائيل يجحد في الكنيسة لاهوت المسيح

فيا بني لا تصدّق هذا القول القبيح . فانني لستُ ساذجاً الى هذا الحدّ لابحث في امر يجب عليَّ التسليم به او انسى راحة نفوس المؤمنين او اعطي من نفسي حجّـةً علي للخصوم . بل كن على ثقةٍ من انني لم ابحث بالعقل في هذه المادة ولا ابحث فيها ابداً . فهي موضوعة عندي خارج دائرة البحث والعقل قطعياً . وهبني بحثتُ فيها عقلياً فهل يقدر العقل ان يدرك كنهها . فما الفائدة اذاً في البحث فيها . ثم هل تظن كل من يبحث في لاهوت المسيح جاحداً له . كلا يا بني . فان هنالك من يقول باللاهوت ولكنه يقول بانفصاله عن الناسوت ولكل منهما مشيئة خاصة . ومنهم من يقول بروح الله وكلمته وغير ذلك . فهل يُكفَّرُ اصحاب هذه الآراء مع اعتقادهم باللاهوت تصريحاً او تلميحاً . اما انا يا بني فانني اكتفي من مسالة اللاهوت بالتعاليم السامية التي تتعلق بها وتدلُّ عليها . وهذا سبب بلواي في هذه المرة . فانني بعد الخطبة التي ذكرتها لك جاءني بعض السامعين وقالوا : قلتَ ايها الاخ في خطبتك انه يجب علينا ان نحب جميع الناس لانهم اخوتنا ولذلك يجب ان لا نضطهد اليهود في سوريا وفلسطين . وقلتَ ان تكفيرنا بعضنا بعضاً من اجل معتقداتنا مخالف لروح الانجيل الذي يقول « لا تدينوا لكي لا تدانوا » فماذا تقول في رجل يجحد لاهوت المسيح ولكنه يعمل بوصاياه ورجل يعتقد به ولكنه لا يعمل بوصاياه بل يعتبرها مبادىء جميلة لا تخرج عن دائرة الكتب . هل تبارك الاول ام الثاني . ففكّرت هنيهة ثم اجبتهم ابارك الاول والثاني يا اولادي . لانني بمباركتي الاول ابارك الفعل دون القول وبمباركتي الثانيَ ابارك القول دون الفعل(١)

فهذا القول وحده كان كافياً يا بني لاتهامي بجحود سيدي . فيا لظلم البشر . يا لرغبتهم في اتخاذ المعتقدات الدينية تروساً يتسترون وراءها لمحاربة من يريدون محاربته . يقولون لاهوت المسيح ويخالفون اشرف ما في اللاهوت وهو فضيلة المحبة . يقولون لاهوت المسيح ويراؤون ويفترون . لاهوت المسيح ويبغضون ويشرهون . لاهوت المسيح ويظلمون ويعتدون .

---

١ جمع فاتح غير مسلم يوماً بعض علماء الاسلام واستفتاهم في ايهما افضل وطاعته اوجب « السلطان الكافر العادل » ام « السلطان المؤمن الظالم » فافتى العلماء بافضلية وطاعة الكافر العادل

لاهوت المسيح ويسبون ويشتمون . فيا ايتها السماء الاور وشليمية الصافية التي ظللت « الكلمة » ازماناً هل يوجد اللاهوت ليتستّر وراءه كل صغار الارض الذين لا يقدرون على الارتفاع اليك بنفوسهم الالهية او الذين يرومون التسلط على الضمائر والعقول بحجة نفعها والغرض نفعهم الخصوصي . وا اسفاه يابني هذه علتنا الكبرى وآفتنا الهائلة . نحن نتمسك بالالفاظ ونترك المعنى . نطلب القشور ولا نسأل عن اللباب . نقول لاهوت المسيح ولكن لا نعمل بوصايا المسيح التي هي اول شروط لاهوته . وهكذا لا يكون عندنا من المسيحية — وا اسفاه — الا ظواهرها . ويكون عملنا هذا مشجعاً لكل ذي فكر جامد يكتفي من الدين بالاعتقاد بهذه المادة بشفتيه وقلبه بعيد عنه وعنها بعداً شديداً

كلا ثم كلا . اننا لا نبحث يا بني ولا نجادل قطعياً في اصل من اصول الدين ولا في فرع من فروعه . فان الباحث بعقله في الاديان لاثبات هذا الاصل او ذاك الفرع كالباحث على صفحات الماء . ولذلك نحن نحترم كل اصل وكل فرع احتراماً مطلقاً ونسلّم به . ونجثو بخشوع مع باقي اجزاء الانسانية على تراب الاتضاع والخضوع امام المواد والاشياء التي جعلها البشر مذكّرة باللانهاية . اننا لا نطفىء شمعة من الشموع الموقدة امام الايقونات والتماثيل ولا نرفع اكليلاً من الاكاليل الموضوعة عليها . اننا نجيز القداس بالخمير والفطير معاً . والعماد رشاً او تغطيساً . والصوم وعدم الصوم . والاستحالة حقيقيةً او رمزية . ووحدة الرئاسة وتعددها . والعصمة وعدم العصمة . والصلاة وقوفاً او سجوداً او قعوداً . والاعتراف وعدم الاعتراف . وتفسير كل واحد الكتاب المقدس بعقله او رجوعه فيه الى الرئاسة الدينية لاعتقاده ان لها وحدها حق تفسيره (١) نعم نحن ياصديقي وصغيري نجيز كل ذلك ولا ننكره ولكن على شرط واحد وهو انّ فعل هذه الامور يقرن دائماً باخلاص القلب اخلاصاً حقيقياً وطلب الخير والعبادة النقية طلباً مجرّداً . ذلك انني اعتقد يا بني انه متى اريد طلب الخير والعبادة الحقيقية النقية فكل الطرق المؤدية اليهما حسنة متى كان القلب مخلصاً نقياً . ولست ممن يضيّقون عقولهم وقلوبهم الى حدّ ان يعتقدوا ان الله يقبل العبادة مثلاً بهذا الشكل ولا يقبلها بذاك . فان الذين يضعون هذه الأقوال يقصدون بها تأييد مصالح لا تأييد مبادىء اي مصالحهم السياسية والقوميّة او مصالح رئاستهم لرغبتهم في الاستئثار بالسلطة والسيادة . وهذا هو السبب في تكفير الطوائف بعضها بعضاً وقيامها بعضها على

---

١ هذه الامور كلها من مواضع الخلاف بين الطوائف المسيحية

بعض وتشعب المسيحية (١) فالاخلاص الاخلاص يا بني الطهارة الطهارة الخير الخير : هذه هي آلات العبادة الحقيقية . وبدونها لا تجدي العبادة شيئاً ولا يغني الاعتقاد باللاهوت فتيلاً

يا بني . لقد وصلت بك الى منتهى عملي . فان تلك التهمة اجهزت وا اسفاه على قواي لان اعدائي اغتنموا هذه الفرصة وطردوني من سلك الرهبانية . فرحت يا بني في الدنيا هائماً على وجهي ابكي وانوح لاساءة الناس الظن بي واهانتهم لي وقطعهم رزقي . ومما كان يفتت كبدي فرار احبائي وابنائي القدماء مني . فكأنني اصبحت وحشاً ضارياً لا يقربني احد . وكان الفقراء والضعفاء الذين كنت اساعدهم من قبل اذا شهدوني قادماً حادوا عن طريقي واختبئوا مني . يا ولدي وصغيري ان من لم يقع في زمانه في حالة كحالتي لا يعرف مبلغ الشقاء الذي عانيته . وان فرائصي كلها لترتعد الآن لمجرد ذكره . ماذا؟ هوذا رجل باع نفسه من بني جنسه فتنازل عن راحته ووقته وقواه ووقفها كلها عليهم . وصار يخدمهم بعينيه وكل نفسه مشاركاً لهم في السراء والضراء مدبراً لاقويائهم مساعداً لضعفائهم مرشداً لاولادهم معزياً لمرضاهم — ومع كل ذلك يكون هذا جزاءه من الله والناس . يا بني لا اكتمك ان عقلي وايماني قد اضطربا في ذلك الزمن الهائل . فصرت اخشى من النظر الى السماء لئلا تبدر مني عاطفة او كلمة تورثني الندم في باقي حياتي . اما البشر فاذا وقع نظري على احدهم اتفاقاً فانني كنت اراه وحشاً اسود ضارياً . ولولا بقية من روح سيدي في نفسي لهجمت عليه وعضضت عنقه لامتص دماءه انتقاماً من الانسانية . اواه يا بني صفحاً عن هذه الافكار الوحشية التي كانت تتردد يومئذ في ذهني . فانني اؤكد لك انها لم تصحبني اكثر من اسبوع واحد . فان الله لم يتخلَّ عني لانه كما قلتُ لك يكون دائماً مع المظلومين المضطهدين في هذه الحياة . ولذلك ارسل الي رجلاً انساني كل مصائبي

ففي ذلك العام يا بني هاجم امبراطورنا مملكة الفرس لاستخلاص الصليب المقدس منها وسحق قوتها لكي لا تعود الى مهاجمتنا مرة اخرى . فوصل الجيش الامبراطوري الى بلادنا الكلدانية ومرَّ بها . ففي ذات يوم وانا ابكي من ظلم الناس تحت شجرة في الحرش حيث كنت انام مع حيوانات البرّ وآكل من البلوط لسد جوعي واذا بفارس طلع عليَّ ومعه شرذمة من الجند . فخيل لي انه قادم بامر من الحكومة للتفتيش عليَّ . فلما رأيته ثار دمي كله غضباً على البشر الذين يطاردونني حتى في وسط الاحراش فهجمت عليه كالذئب الكاسر وانا بحالة الجنون اصيح وازمجر بلا وعي . فامر الفارس رجاله بالاحتيال للقبض عليَّ من

(١) لم تكن المسيحية يومئذٍ قد تشعبت التشعب الحاضر انما كان قد بداء فيها

غير اذيتي لانه ظنني مجنوناً آوي الى الاحراش . فتكاثروا علي وقيدوني وانا اكاد اقتلهم واقتل نفسي . ولكن بعد برهة اخذ الفارس يلاطفني ويجاملني وسألني عن خبري فقصصت عليه قصتي من اولها الى آخرها وانا ابكي . فما سمع شيئاً منها حتى هجم علي فقطع وثاقي وصافحني واقبل علي يسألني التتمة . ومنذ هذه الساعة بدأتُ اصعد من الهاوية التي القاني البشر فيها . فان هذا الفارس كان قائد مائة وهو من هذه المدينة . وقد تطوَّع في الجيش لمقاتلة الفرس انتقاماً منهم لانهم حين استيلائهم على القدس وطنه قتلوا ابنه . فاخذني هذا الفارس وقدمني للامبراطور وقصَّ عليه قصتي . فهزَّ الامبراطور رأسه وقال : هذا شأن السوريين فانهم متى حُكموا في انفسهم كانوا اقرب الى الجور منهم الى العدل لكثرة تحاسدهم وتنافسهم ولعدم وجود جامعة قوية عادلة تساعد الجيّد فيهم وتخذل الرديء

فصحبت يا بني جيشنا في فتوحاته في بلاد الفرس جيراننا . ولم اكن راضياً عن هذه الحرب وان كنا فيها مدافعين لا مهاجمين لانني اكره الحرب ايًّا كان سببها حتى مع المجوس . ذلك لان الدم الذي يسيل فيها يا بنيَّ هو دم بشري مقدس سواء كان صاحبه مسيحيًّا او وثنيًّا ابيض او اسود يونانيًّا او سوريًّا او فارسيًّا . فاننا كلنا اخوة في الارض ومن الفظاعة ان يقتل الاخ اخاه . الاَّ انني لا اكتمك انني كنتُ رغماً عني مسرورًا لفرار كسرى برويز من وجه امبراطورنا من مدينة الى مدينة حتى من عاصمته فرار العصفور من وجه النسر * ذلك لانني كنتُ اعلمه معتديًا لانه هو الذي كان البادىء بمهاجمتنا . ومهما كان الانسان ميالاً للسلم والصفح والحلم فانه يطرب عند ما يرى المعتدي مغلوبًا مخذولاً على شرط أن لا يتجاوز الغالب حدود الدفاع ويجعل نفسه عاديًا ظالمًا

ولما انتهت الحرب اتى بي ذلك الفارس الكريم الى هذه المدينة . ووضع بين يديَّ مالاً طائلاً وابتاع مزرعة وراء هذا الجبل وقال لي اصنع فيها ما صنعته في مزارعك القديمة . فاعدتُ في هذه المزرعة يا بني ما كنتُ اصنعه هناك تحت حماية هذا الشهم . فجمعنا فيها نحو مائة عائلة كبارًا وصغارًا وصرنا نعيش على زراعة الارض بامن وسلام . ولم يكن ينغّص عيشي شيء سوى تذكري الشقاء الذي حلَّ بين احبائي في بلادي بعد سقوطي ورحيلي عنها . ولذلك كنت ارحل في كل سنتين مرة اليها وجيوبي مملوءة لمساعدة ابناء وطني . وانا الآن اقيم تارة في المزرعة هنا وطورًا في بلادي مسرورًا بان الله اوجد لي في آخر عمري عشًا آوي اليه واقدر على صنع الخير فيه بمساعدة انسان فاضل يستحق ان يسمى انسانًا . ولقد سكنتْ نفسي وهدأت بعد ذلك الاضطراب فندمتُ على انني ابغضتُ البشر يومًا

وعاديت اعدائي · يا بني ان القلوب الطيبة يجب ان لا تعرف العداء وان تتركه للقلوب الرديئة · وعلى القلوب الطيبة ان تصلي دائماً الى الله من اجل القلوب الرديئة ليرحمها وينبذ الرداءة منها

والحق اقول لك يا بني انني بعد ان شبت وادَّبتني المصائب وعاشرت البشر زمناً طويلاً علمني الاختبار ان الخير الذي كنت اطلبه متشعب الطرق صعب من عدة وجوه . ولذلك ندمت على اطلاقي لنفسي العنان في مقاومة رؤسائي ورفاقي دون تروٍ ولا امعان . نعم يجب علينا محاربة كل شيء في الارض لصنع الخير وقتل الشرّ ولكن يجب ان لا نتعامى عن المصاعب والعثرات التي في طريق من نحاربهم · واول هذه المصاعب شراهة نفوسهم التي تطلب كل شيء لها تحت ستار الغيرية · نعم انَّ هذا ليس بعذر مقبول ولكن ما الحيلة بالنفس الصغيرة المقيدة باهوائها ولا تستطيع الانطلاق منها ؟ لا حيلة في اطلاقها يا بني غير الصلاة الى الله من اجلها ليغسلها وينقيها ويطلقها · وثاني هذه المصاعب رسوخ بعض المبادىء والاراء والاوهام في نفوس العوام ولذلك يضطر الرؤساء رغماً عنهم الى مداراتها · واذا لم يداروها لم يعدموا من قومهم ومرؤوسيهم من يقوم وينادي بكفرهم لخروجهم في زعمهم عن الشريعة الدينية · لان كل متعصب لرايه لا يعدم ان يجد في من تحته او فوقه من هو اكثر تعصباً منه · لا سيا وان المصالح والاهواء تتخذ في اكثر الاحيان هذه الامور ذرائع تدعم نفسها بها · اذاً فانغضّ الطرف قليلاً يا بني عن تلك المداراة لان اصحابها قد يكونون معذورين فيها · واذا لمناهم فليكن لومنا لهم ببشاشة واعتدال وحلم لان تدبير النفوس وظيفة صعبة لا يعرفها الاّ من عاناها · ولو كان بعضهم يسمعني الآن معك لاستصفحت منهم عن الحدة التي ظهرت رغماً عني في بدء كلامي لانني كنت متحمساً لذكرى مصائبي الماضية

يا بني لا تدع عقلك يضلّ كما ضلّ كثيرون من ابناء هذا العصر * لسئامتهم الخلافات الدينية · فان فوق هذه الخلافات كلها حقيقة يجب ان تكون اساس كل هيئة اجتماعية · وهي ان الحقائق الدينيّة راسخة في الارض الى الابد لانها عبارة عن نزوع الانسان الى المنزل الاول ومصدره الاعلى · واي شيء غير الدين يضع اسمى آيات الفلسفة والعلم والادب في افواه وقلوب السذج والمساكين · انت وانا مثلاً لا نسأل عن اديان البشر لان في باطننا الديانة المطلقة النقية التي هي ديانة القلب ومحبة الله والناس والتسليم اليه تعالى في كل شيء · ولكن هل يفهم العوام هذه الامور · هذا امر بعيد · ولكن مع ذلك علينا ان نحذر من جعل هذا الامر يؤدداء قاتلاً · فان الظواهر الدينية التي

يزيّن الدين الحقيقي بها ليصير مفهوماً من العوام لا يجب ان تكون مختفياً له . والجاني على الدين والانسانية في الارض انما هو ذلك الذي يوجد التضامن والتكافل بين تلك الظواهر وما تحتها من البواطن الصحيحة . وحينئذ لا يجب ان يلوم احداً غير نفسه . . لان العقل اذا احترم الحقيقة فهيهات ان يحترم لباسها . خصوصاً اذا كان هذا اللباس مما يمنع وصول نور الحقيقة الى الناس ويكون عثرة في سبيل خير الانسانية واتفاقها وتقدمها .

لقد فرغت الآن يا بنيّ وآن ان أريحك واستريح من هذا الكلام الطويل . ولكنني اذا اعدت في ذهني كل ما قلته لك ارى ان كلامي لا يزال ناقصاً امراً مهماً لا يحسن ان يختتم بدونه . وبعبارة اخرى اقول انه ناقص التاج الذي يجب ان يتوج به . اجل يا بني ان اول وآخر دعامة من دعائم الفلسفة والدين والفضيلة والادب والحكمة هي هذا التاج البديع وهو « الرفق والمحبة والصفح » للجميع . فديانة الرفق والمحبة : هذه هي الديانة التي سيجتمع عليها البشر في مستقبل الزمان . الرفق والمحبة لجميع مخلوقات الله حتى الحيوانات . الرفق والمحبة لجميع البشر حتى الوثنيين والارديا والاشرار واللصوص في السجون . لانه اذا كان يجب علينا احتقار ضلالهم وشرورهم فيجب علينا ايضاً محبة الانسانية فيهم والشفقة عليهم . يا بني اذكر ان سيدنا غسل ليلة تسليمه للصلب قدمي يهوذا الذي اسلمه مع معرفته انه عدوه ومسلمه وجاحده . اذكر انه قال للذين جاءوا اليه بالخاطئة « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » . وبعد هذه الذكرى اخبرني اذا كنتَ تجد في العالم احداً يسمح لك قلبك باخراجه من ناموس الرفق والمحبة

فيا ولدي العزيز ضع هذا الناموس نصب عينيك . احيَ فيه ومن اجله . اجعله القاعدة الكبرى لاعمالك وافكارك . اعتبر كل تعاليم تخالفه تعاليم باطلة اياً كان مصدرها . واعلم انه ليس في الهيئة الاجتماعية كلها شيء ارقى واعظم منه . واذا سلكت طريقه في حياتك كلها امكنك ان تموت في آخر العمر موتاً هنيئاً هادئاً لانك تكون قد قمت بواجباتك للانسانية في هذه الحياة وعشتَ انساناً كريماً محباً ومحبوباً

يا صديقي واخي الصغير . هذا ما اردت اطلاعك عليه من تاريخ حياتي لعلك تجد فيه فائدة لنفسك . فاختر الآن ما يحلو لك . واعلم ان ابواب مزرعتنا مفتوحة لشاب عامل نشيط مثلك اذا كنتَ تشرفنا بالانضمام الينا

طلوع الشمس

وهنا سكت الراهب الشيخ بعد كلامه الطويل . وكان قد طلع الصباح وفرّ جيش

الظلام · ومن غرائب الاتفاق ان الشمس اطلعت قرنها في هذه اللحظة حين سكوت الراهب · فوثب الراهب وقال هلمَّ هلمَّ نشهد طلوع الشمس · تبارك الخالق تبارك الخالق · فنهض الفتى ايليا لنهوض الشيخ وهو مبهوت مذهول · ولكن ايليا كان بعد نهوضه لا ينظر الى الشمس بل الى الفضاء وهو مبهوت جامد النظر كمن لا ينظر الى شيء · وفي الواقع انه كان ينظر الى داخله لا الى خارجه · ذلك لانه كان ينظر الى الشمس الادبية الجديدة التي اطلعها الراهب الشيخ بخطبته هذه في داخل نفسه · وكان يخيَّل له بعد كل ما سمعه انه في حلم لا في يقظة · فان عالمًا جديدًا انفتح امام عينيه واتسعت دائرة فكره اتساعًا لا حدَّ له · وفي هذه البرهة بلغ التأثر من الراهب مبلغه لدى منظر قرص الشمس البارز للخليقة يحييها بنوره وحرارته المنعشة · فجثا على الارض جارًا الفتى معه ايضًا · وبعد ان سجد وقبل الثرى رفع يديه الى السماء صائحًا من اعماق قلبه : اللهمَّ شكرًا للنور بعد الظلام · اللهم شكرًا للحرارة بعد البرد · اللهم شكرًا لعنايتك الكاملة الكريمة التي ترسل نعمها وخيراتها الى الصالحين والاشرار معًا لتعلّم الانسان الاقتداء بها · اما الفتى ايليا فقد رفع يديه الى السماء كما رفعها الشيخ واشترك في هذه الصلاة ولكنه لم يكن حينئذ يصلي شكرًا للشمس الطبيعيّة التي كان قرصها الجميل امامه بل كان يصلي شكرًا للشمس التي طلعت في باطنه · وهكذا كان ذلك المنظر في غاية البهاء والجلال · فانه كان على قمة جبل الزيتون في صبيحة ذلك اليوم شيخ هادىء مطمئن في آخر العمر يشكر الله لانه يدفئ شيخوخته الباردة بوافر نعمه · وفتى في اول عمره قلقًا مضطربًا يشكر الله لانه انار نفسه واراه طريقه في اول حياته

فيا ايها الفكر الحر المطلق الذي يقوده العلم وتسنده الفضيلة انك كالطبيعة العظيمة تخلق نورًا وتُطلع شموسًا

المزرعة

وفي مساء ذلك اليوم نُظر الراهب ميخائيل سائرًا بالفتى ايليا الى المزرعة التي ذكرها · وكانت قائمة وراء جبل الزيتون على مسافة عدة اميال فرحَّب صاحب المزرعة الشيخ سليمان بالفتى لما توسمه في وجهه من الذكاء والنباهة · واستقبله كما يستقبل ابنًا له واخبره انه سيكون وارث الراهب ميخائيل في « اوروشليم الجديدة » اي في مزرعته · وبما ان الرجل كان يعلم ان الزراعة لاترقىّ الا بالاختبارات الزراعيّة والدروس الطبيعية جاءه بكتب بلينيوس العالم الطبيعي الروماني ليستخرج منها كل ما يختصّ بالشؤون النباتيّة

والزراعيـة (١) فاكبّ ايليا على درس هذه الكتب ثم استطرد منها الى مؤلفات ارسطو في الطبيعة وفي النفس · فكان هو يفتكر ويدرس ويطالع لاهل المزرعة واهل المزرعة يعملون بايديهم بجدٍ ونشاط : فكملت بذلك الحركة التي يخرج منها الارتقاء والمدنية وهي « الفكر والعمل » (٢)

وكأنّ المصائب التي وقع فيها الراهب ميخائيل في كهولته قصرّت اجله مع قوة بنيته · فبعد بضعة اعوام رزح وعجز عن العمل والمشي · فلما رأى صاحب المزرعة ذلك هزّ رأسه وقال : قد دنا اجل اخينا ميخائيل · ثم اردف ذلك بقوله : ان هذا الرجل قديس فانه لم يمت حتى جاءنا بشخص نافع مثله يقوم مقامه · — ثم قصد الرجل ايليا وقال له قارعاً ظهره بيده : تأهب يا بني لخلافة اخينا ميخائيل فانك ستكون كاهننا ديناً وعملاً اي مرشد معاولنا ونفوسنا معاً

وفي الواقع توفي الراهب ميخائيل بعد خمسة ايام فحزنت عليه المزرعة كلها وكان ايليـا تلميذه اشدهم حزناً وبكاء · وقد اجتمع رأيهم على دفنه في وسط المزرعة بين الحقول والاشجار فاقاموا له هناك قبراً بسيطاً · وكان ايليا في كل صباح يأتي بشيء من الزهر الطيب الرائحة وينثره عليه باحترام وخشوع ويقبّل بلاط القبر بدموع · وقد نقش ايليا على قبر استاذه الراهب الشيخ هذه الكلمات « السلام على رسول الرفق والخير وحبيب الله والناس »

وقد فاتنا ان نقول ان ام ايليا توفيت في ذات العام الذي دخل فيه ابنها الى المزرعة فدفنت في مقبرتها · ولكن حزن ايليا على ا الراهب مرشده لم يكن باخف من حزنه على امه الحنون

وبعد وفاة الراهب ميخائيل رفض الشيخ سليمان قطعياً ادخال أحد من رجال الدين

(١) توفي بلينيوس في سنة ٧٩ للميلاد بمقذوفات البركان يزوف في ايطاليا بينما كان يدرس البركان وثورانه · وقد دفن البركان مدينتي بومباي وهركيلانيوم بمقذوفاته في ذلك العام

(٢) هنا موضع نزاع بين الفلاسفة والباحثين · فالا Reàlistes منهم يقولون (العمـل العمل) فانه افضل من كل شيء في هذه الحياة · ومنهم اميل زولا الذي كان داعية العمل في بلاده وله فيه روايته المشهورة « العمل » فلما صدر هذا الكتاب تناول الفيلسوف تولستوي موضوعه وقال : العمل ؟ نعم لا ريب في انه مرقي البشر ونافع الناس · ولكن ايّ عمل ؟ فان صانعي الديناميت والمدافع والمسكرات واصحـاب بيوت المقامرة والفساد كلهم يعملون بجد ونشاط · فهل يُستحسن عملهم ؟ كلا · فمن ذلك ينتج ان الفكر مقدّم على العمل · اذ على الانسان ان يفتكر ليحسن اختيار عمله واتقانه · فالفكر اذاً قائد العمل واصحاب الافكار Idéalistes انفع من اصحاب الاعمال Réalistes — وهذا نزاع قديم بين هذين المذهبين

الى المزرعة لانه لم يجد راهباً فاضلاً كالاخ ميخائيل ليسلمه المزرعة ونفوس اهلها . الا ان اكثر اهل المزرعة استاءوا من ذلك وخصوصاً النساء فكان الشيخ سليمان يقول لهم : لكي يكون الكاهن فاضلاً ويستطيع القيام بواجباته يجب امران الاول ضمانة رزقه وحسن معيشته والثاني حسن اخلاقه وكمال استعداده النفسي ليتخذ وظيفته سبيلاً لنفع غيره لا نفع نفسه . ولا يفسد السلك الاكليريكي في بلاد الا بفساد هذين الشرطين . فنحن نقدر على ضمانة الاول ولكن من يضمن لنا الثاني . فلديكم يا اولادي التوراة والانجيل ولكم عقول خلقها الله لتعقل فاقرءوا كتبكم في اجتماعاتكم وطهروا قلوبكم واحسنوا صنعكم فالله يقبل منكم هذه العبادة لان كل انسان يمكنه ان يكون كاهن نفسه طبقاً لدعوة الانجيل . — ولكن اهل المزرعة كانوا يسكتونه بهذا الجواب : وما الحيلة بالعماد والاكليل والوفاة

وفي ذات يوم الحّوا عليه في ذلك بالتماس ورجاء فقال الشيخ سليمان في نفسه لماذا لا نسيم لهم ايليا كاهناً . فانه جامع للشرطين المتقدمين

وكان ايليا لا يزال مشتغلاً بخدمة المزرعة بعقله ويده الا ان همته كانت قد ضعفت كثيراً . ففي ذات يوم قصده الشيخ سليمان في حرش من الصنوبر في المزرعة واخبره بالحاح اهل المزرعة في شأن الكاهن وانه يود لو يقبل هذه الوظيفة . فدهش ايليا اولاً . ثم اجاب بما خلاصته : كانت لي في صباي هذه الاحلام الجميلة . اما الآن فقد تغيَّر فكري . نعم انني لا « اطفىء شمعة من الشموع الموقدة ولا ارفع اكليلاً من الاكاليل » كما علمني استاذي الراهب ميخائيل الا ان نفسي صارت تطلب شيئاً فوق هذا . وهي اذا جثت مع جمهور الجاثين على تراب الخضوع للمواثيق البشرية والعادات الارضية فان روحها ترفرف فوق الجموع الجاثية — في أعالي لا تصل هذه الجموع اليها

فترك الشيخ سليمان ايليا بعد هذا الجواب ولم يعد يخاطبه بهذا الشأن ولا بحث فيه مع انه كان في نزاع دائم مع بعض الكهنة الذين كانوا يرومون الدخول الى المزرعة رغماً عنه وفي جملتهم اخو سكرتير البطريرك الراهب متى

ولكن ما هذه الاعالي التي ذكرها ايليا في جوابه وكانت سبباً في رفضه ان يكون كاهناً للمزرعة ؟ هي السم الجديد الذي دخل الى نفسه بعد خطبة استاذه الراهب ميخائيل على الجبل واطلاعه على كتب ارسطو وافلاطون وبلينيوس . هو الانسانية الجديدة التي تكوّنت في باطنه بعد ان رُفع الغطاء عن عينيه في هذه المطالعات المختلفة . وهذا هو السبب في الضعف الذي حدث في نفسه بعد بضعة اعوام من دخوله الى المزرعة وانكبابه على هذه

المطالعة . فانه صار اميل الى الانفراد منه الى الاجتماع . ولم يعد يلذّ له مرافقة الفلاحين في حقولهم ومساعدتهم على حرثها بل كان يلذّ له بالاكثر الاستلقاء بكسل على ظهره تحت شجرة والتأمل في الفضاء الذي امامه . وقلما كان يُرى ضاحكاً في هذا الطور بعد ان كان عصفور المزرعة وابتسامتها . اما صحته فتبعت افكاره ايضاً . فانه صار نحيلاً اصفر الوجه قليل الكلام كثير الضجر فكأنَّ النار التي كانت تتقد في نفسه لمصارعته مع مبداء الكمال الخيالي والحقيقة المحجبة قد جففت ما كان فيها من ماء القوة والعافية . وهكذا تغيّر ايليا في بضع سنوات تغيرًا كليًا

وكان كثيرًا ما يقول في نفسه وهو سائر بين الحقول واشجار المزرعة : ما هذه الحياة الباردة والوجود المضجر . لماذا خُلق الانسان في الارض وما هي الحكمة من خلقه جاهلاً قاصرًا محدود العقل كما هو الآن . انني لما جئتُ من الناصرة الى المدينة لأدخل في الخدمة الدينية كنتُ اسعد مني الآن . لانني كنت قادمًا وانا معتقد انني ساقبض بيدي على الحقيقة والراحة والسعادة . ولكن الخطبة على الجبل غيرت فكري . فطلبتُ بعدها الحقيقة والراحة في العمل والكتب . وها قد مرَّ عليَّ بضع سنوات وكلما تقدَّمتُ ازدادت الحقيقة بعدًا عني وازددت بعدًا عنها ولقد صرت أرى كل شيء في الحياة اسود ثقيلاً باردًا . فالبشر باجسادهم الضخمة الغليظة وعقولهم الجامدة وقلوبهم القاسية وافواههم واجوافهم المملوءة اقذارًا مختلفة لا يختلفون كثيرًا عن وحوش البرية . وكل ما في الارض من مناظر طبيعية والوان مختلفة واشكال منتظمة لا يساوي جماله جمال حلمٍ واحد من الاحلام الوهمية . نعم لا انكر جمال صنع الخير كما وصفه استاذي الراهب ولكن ماذا يقدر شاب ضعيف مثلي في وسط اوقيانوس العالم المضطرب . هوذا اننا نصنع الخير الآن في هذه المزرعة وكل اهلها آمنون على رزقهم وراحتهم ولكن الا يوجد بشر اشقياء تعساء خارج المزرعة . لا ريب في ذلك لان الارض كلها خارج هذه الدائرة في شقاء وعذاب ونزاع وخصام . فماذا تنفع حياتنا اذا كانت عاجزة عن ابطال كل ذلك . وما قيمة المعيشة التي يتنعم فيها عشرة ويشقى الوف . حقًا ان الحياة لا تسوى ما فيها من الهم والعناء والتعب . والسعداء انفسهم لا يجدون فيها ما يروي غليلهم ويشفي نفوسهم . فالموت خير منها لانه راحة الراحات

وهكذا تدرَّج ايليا في دركات الملل واليأس في مدة قصيرة وصار يرى الخدمة الروحية والعملية عبثًا ولغوًا لان الفائدة التي تخرج منها لا تساوي القوة التي تُبذل فيها .

ولو كان غيره في مكانه لافضى به هذا الامر الى تنبيه انانيته وادى به الى الاقتصار بعد ذلك على خدمة مصلحته الخصوصية ما دام لا شيء في الحياة يستحق ان يضحى له شيء من الذات . ولكن من احتقر الحياة والدنيا بنفس كنفس ايليا فانه يبدأ باحتقار المصلحة الخصوصية قبل المصلحة العمومية

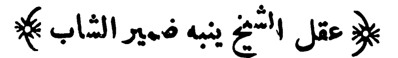
ولذلك كان الشيخ سليمان كلما شاهد ايليا بحالة التأمل والانقباض بعد نشاطه السابق يقول مع باقي اهل المزرعة : ماذا اصاب صديقنا ايليا

وا اسفاه ان ايليا كان مريضاً مرضاً روحياً . ان ايليا كان ينقصه الزخام والعراك في الحياة لتتنبه همته بالمقاومة وتشتغل بتنازع البقاء والحركة الى العلاء بدل الاشتغال في نفسها بنفسها . ان ايليا كان ينقصه الغذاء القلبي الذي يريه محاسن الحياة ويزينها له . كان ينقصه ابتسامات كابتسامات الفتاة اليهودية التي رآها على طريق يافا منذ سنوات وكانت صورتها تتردّد عليه في احلامه المضطربة

***

هذا هو تاريخ حياة ايليا قبل ان عرفناه وهكذا كانت حالة نفسه لما لقيناه في بيت لحم ليلة امس . فلنعد الان اليه بعد مفارقته ارميا وتيوفانا امام دير العذراء

الفصل التاسع



عود الى استير

وانحدر ايليا من امام دير العذراء نحو المزرعة وهو يتفكر بثلاثة امور . الاول حصر العرب مدينة القدس والثاني سجن استير في الدير والثالث ما وجده من رقة البطريرك وعقله خلافاً لما كان يعتقده

ولاريب ان ايليا كان شديد الاهتمام بحصر العرب مدينة القدس ولكنه كان قد الف انكسارات قومه امام جيوشهم . وكعارف للداء الذي كان يودي بالمملكة لم يكن يدهش منه كثيراً فضلاً عن ان تعدد حروب الفرس قبل ذلك عوّد الناس اعتبار الحرب امراً مألوفاً فيوم معهم ويوم عليهم . ولذلك كان كل اشتغال ايليا بحبيبته استير المسجونة التي جاءته وهو في ضجر من الحياة لتلقي في نفسه شيئاً من شعاع الامل والسرور

ولما وصل ايليا الى المزرعة هرعت اليه كلابها تهزّ اذنابها . وكانت المزرعة منبسطة في سفح الجبل بين آكام وسهول على مسافة عدة اميال . وكان فيها الكرمة والتين والزيتون والحبوب والبقول المختلفة . ويظهر لكل من تأمل الارض الجبلية القاحلة الجافة في النواحي ان صاحب المزرعة قد اتى ضروب المعجزات ليجعل تلك الارض صالحة للزراعة

وكان اهل المزرعة في ذلك اليوم في زينة وابتهاج لانه يوم عيد الميلاد كما تقدم فحيّا ايليا الذين وجدهم في طريقه منهم وعايدهم ثم دخل

ولما وقع نظر الشيخ سليمان على وجه ايليا من بعيد صاح به . اهلاً وسهلاً بمعلمنا حاجّ بيت لحم . انني ارى في وجهك شيئاً جديداً

فاجاب ايليا . نعم يا ابتِ فقد وصل العرب الى المدينة

فعبس الشيخ سليمان وقال كنت انتظر هذا الامر بعد فتح دمشق فليكن الله معنا والا ذهبت مملكتنا بسوء تدبير رجالنا . ثم ابتسم الشيخ قليلاً متناسياً ذلك الحديث المزعج وقال : الا انني لا اظن هذا سبب خفة حركاتك وبرق عينيك في هذا الصباح فانك ذهبتَ كسولاً فاتراً ضعيفاً حسب عادتك في المدة الاخيرة وعدتَ نشيطاً فائراً قوياً . فاخبرني ما ذا جرى لك

فابتسم ايليا ابتسامة معناها انت مصيب في ظنك ثم اخذ يد الشيخ ودخل به الى منزله · وجلس يقص عليه كل ما جرى له

وكان الشيخ سليمان في سن الستين تقريباً بلحيــة بيضاء منتشرة على صدره الواسع · وجسمه الكبير الظاهر عليه لوائح القوة والصحة يحمل رأساً كبيرًا فيه عينان كبيرتان كسرت السنون حدتهما · وكان لون وجهه الاسمر الذي لفحه حر الشمس والقوة التي تبدو منه مع شيخوخته في كل حركة من حركاته يدلاّن على ان هذا الرجل قد عارك الدهر في حياته عراكاً شديداً

ولما كان الشيخ يسمع قصة ايليا من حين قبض عليه العامة في بيت لحم الى حين مفارقته تيوفانا امام الدير كان تارة يضحك وطورًا يعبس وآونة يقوم ويقعد · ولما استوفى ايليا قصته بهت الشيخ وبقي مبهوتاً · وكان ايليا يقرأ حينئذ في هيئته وعينيه دلائل التأثر الشديد ويرى في نظره بروقاً ورعوداً · وبعد برهة وثب الشيخ سليمان وصار يتمشى بغضب في الغرفة · ثم صاح على حين بغتة : يا ولدي ايليا لقد اخطأت خطاء عظيماً

فدهش ايليا واجاب وما ذنبي فانني قد بذلت جهدي لاقناع البطريرك باطلاق سراح الفتاة فرفض ذلك لان الشعب كان يطلب تعميدها

فهزّ الشيخ سليمان رأسه وصاح : هذه احدى آفاتنا يا ولدي · الشعب الشعب الشعب انهم يأتون كلّ ضروب الظلم والاضطهاد والرياء بحجة الشعب كما كان يقول اخونا ميخائيل · فاذا رام أحدٌ فهم اصول دينه بعقله لا بعقل غيره (١) صاحوا عليه صياحاً شديداً خوفاً على ايمان الشعب · اذا اعترض احد على الجزئيات الدينية التي ليست في شيء من جوهر الدين اقاموا القيامة عليه بحجة لزوم ذلك للشعب · اذا اثنى احد على دين غير ديننا قاموا وقعدوا بحجة ان ذلك يضعضع ايمان الشعب · اذا وقع في يدنا مثلاً فتاة ضعيفة وطلب الشعب تعميدها رغماً عنها جاروه على هواه واهانوا الانسانية في تلك الفتاة ارضاء للشعب · وعلى هذا القياس يا ولدي تؤتى ضروب الظلم والافتئات والشرور والفساد صيانةً لاوهام الشعب · ويكون اجهل رجل في الشعب اقدر من رئيسه واقوى سلطةً منه في كرسيه لانه يُحرك الشعب عليه كلما رام تحريكه · وهكذا يكون الشعب محسوباً عندهم عبارة عن ولد جاهل ابله يدارون جهله وشهواته واوهامه ولو ادى ذلك الى الشر والفساد وخنق كل ذكاء ونباهة واصلاح في الامة · ومن هذا الضلال والضعف يا بني يخرج التأخر للامم

١ هو الاجتهاد عند المسلمين ونقيض العصمة عند فريق من المسيحيين

لانك لم تنسَ ان الرهبان في مملكتنا كانوا في اكثر الاحيان اقوى من رؤسائهم لتحريكهم الشعب عليهم * وكم حالوا دون اصلاحات مهمة بهذا السبب الصغير * (١)

ثم سكت الشيخ . فقال ايليا بعد ان تأمل قليلاً . ولكن ماذا كنتَ تريد ان يصنع البطريرك يا ابتِ . فهنا لطم الشيخ الجدار بقبضته لطمة شديدة وصاح : كنت اريد ان يكون رئيس الشعب لا مرؤوسه . قائده لا تابعه . فاننا نريد رؤساء يواجهون الشرّ والفساد وجهاً لوجه بلا خوف ولا رياء ويضربونه ضربة قاتلة بدل ستره واخفائه جبناً وضعفاً . اننا نريد رؤساء يربون الشعب تربية جديدة اساسها العدل والحق والصدق ومكافأة اصحاب الكفاءة الشخصية لكي يتقدم القادرون العادلون الصادقون النافعون وينزوي العاجزون والمتزلفون . ولا تقل ان الشعب يسخط ويغضب من الضغط عليه فان هذا ليس بضغط بل هو تدريب وتربية . واذا كان الطفل يغضب من ابويه لتأديبهما اياه في صغره فانه متى كبر وصار رجلاً عاقلاً يجثو باحترام امام ابويه شكراً لهما لانهما درّباه على الرجولية ولم يتركاه طفلاً جاهلاً . فلو كنتُ مكان البطريرك لقاومت العامّة وفحصتُ امر الشيخ والفتاة . فاذا وجدته جاسوساً عاقبته واطلقت فتاته واذا وجدته بريئاً اطلقتها معاً انتصاراً للعدالة والحق ولو قامت عليّ الدنيا كلها . اذ بدون هذا لا يتمّ اصلاح في الامة

وكان الشيخ سليمان قد تحمّس عند هذا الكلام تحمساً شديداً . فسكت هنيهة . ثم صاح ثانية : وهل تظنّ يا ايليا انك غير مشتركٍ في الذنب الذي حصل . الا تعلم ان شاهد الشر شريك فيه اذا لم يبذل جهده لازالته . فهل صنعت حتى الآن شيئاً لاخراج الفتاة من سجنها حيث تتعذّب عذاباً شديداً . يا ايها الشاب ان ضميراً بشرياً يتألم الآن في دير العذراء لانهم يضغطون عليه . ان نفساً بشريه تطلب الآن الموت ولا تجده فراراً من تغيير معتقدها المجبول بلحمها وعظامها . ان صوتاً يستغيث الآن بالله ولا مغيث له . وانت من اسباب هذا كله . فضع نفسك يا ايليا مكان هذه النفس . افترض ان اليهود سجنوك في هيكل لهم ليجبروك على جحود دينك ومسيحك ويعلموك ان مبادئ المشنا والتلمود والتوراة اسمى من مبادئ الانجيل لانها مصدره ويُكرهوك على ترك المبداء السامي الذي تتمسك وتحيا به

(١) قال بابيت في الانسيكلوبيذية الفرنسوية « ان الرهبان تكاثروا يومئذ في الاديرة كثرة متصلة حتى صار لهم على الشعب سلطة عظيمة فكانوا يتخذون هذه السلطة لزيادة جذبه اليهم وذلك بحمله على التمسك بالظواهر الدينية كالصور وغيرها ولذلك كانوا قادرين على تهييجه ضد الاساقفة والبطاركة والموظفين حتى ضد الامبراطرة . وهذا ما جعل همّ الامبراطرة المصلحين منصرفاً الى اضعاف نفوذ الاكابيروس خصوصاً الرهبان وتقوية السلطة المدنية الامبراطورية وتنقية الديانة »

نفسك . فماذا كنتَ تصنع ؟ اما كنتَ تقتل نفسك او تقتل سجانك اذا لم تجد في وجهك غير هذا الوجه ؟ واذا سمعتَ ان احداً هجم على الهيكل لانقاذك الا تراه عادلاً ذا حق بذلك بل من واجباته ذلك لانه يرفع الاضطهاد عن ضمير بشري

وكان الشيخ يتكلم وايليا ينتفض من التأثر . فلما اتى الشيخ على كلامه ضاق الشاب ذرعاً وكاد يخنقه غيظه وانفعاله فوثب وخرج من الغرفة كالسهم المارق . ثم اتجه نحو باب المزرعة وخرج منه عائداً الى جبل الزيتون وهو شارد الفكر لا يعي على شيء . ويظهر ان ضميره انتبه بعد كلام الشيخ انتباهاً شديداً ولذلك كان يعضُّ اصابعه وهو سائر في طريقه ندماً على انه لم يأخذ على البطريرك عهداً ان يوصي الراهبات بان لا يتعرضن لمعتقد الفتاة

وهكذا بقي ايليا في ذلك النهار يتيه في جبل الزيتون من مكان الى مكان حائماً حول الدير ومستنقطاً نوافذه وجدرانه طالباً ارميا ليسأله ماذا صنع ومتساءلاً ماذا يصنع . ولما خيم الظلام اشتدَّ وخز ضميره وجزعه لعناء حبيبته وخيل له انه يسمع بكاءها وصوتها يستغيث على ما ذكرته له تيوفانا . فجلس الشاب في الظلام والبرد الشديد على اكمة تجاه الدير . ولبث هناك شاخصاً في نوافذه المشرفة على الحديقة . ولكنه قُبيل منتصف الليل بعد التفكير طويلاً نهض على حين بغتة وتسلل نحو الدير فتسلّق جدار الحديقة وهبط الى الداخل ونفسه في اشد حالات الاضطراب والانفعال

الفصل العاشر

﴿ انا اعرف الله ﴾

وفي تلك الدقيقة برز القمر من وراء الافق يعمّم نوره الابيض اللطيف سطوح الدير فاستاء ايليا من ذلك لان النور فضّاح . الا انه رأى في ظل الاشجار التي كانت مغروسة بجانب نوافذ الدير في الحديقة مخبئاً حسناً

فانسلَّ ايليا نحو تلك الاشجار واخذ يصغي بكل جوانحه لعله يسمع شيئاً في داخل الدير . فلم تمضِ عليه دقيقة حتى ارتعدت فرائصه لاصوات هائلة بعيدة كانت واردة من جهة المدينة . فخشي ان يكون العرب هاجمين حينئذ على الدير . ولكن الحقيقة كانت ان جيشاً ثانياً وصل الى المدينة بعد الجيش الاول وكان صراخه هذا لارهاب اهل المدينة كما اوصاه ابو عبيدة

وبعد انقضاء دقيقة اخرى لم يسمع ايليا في اثنائها شيئاً انتقل متسللاً متنصتاً كلصوص الليل من نافذة الى نافذة وكانت كل النوافذ مغلقة لفصل الشتاء . وما زال سائراً حتى وصل الى آخر نافذة فسمع فيها صوتاً ضعيفاً كزفير وبكاء

فهنا جمد ايليا في مكانه وصار كله آذاناً تصغي . فبعد حين سمع في الغرفة باباً يُفتح وصوت اقدام . ثم سمع قائلاً يقول باللغة اليونانية

— يا اختي المحبوبة . خفّفي عنكِ فقد ازعجتِ ضميري ببكائك وجزعك . ولذلك لم أقدر على الرقاد حتى الآن . فبحياة اهلك اذا كان لك اهل ووطنك اذا كان لك وطن ان تريحي نفسك وتريحينا . انظري اننا هنا كلنا اخواتك . وكل ما تحتاجين اليه يُقضى في الحال . فتعيشين معنا بهناءٍ وسرور لا ينقصك شيءٌ ولا يزعجك شيء . ولا نطلب منك في مقابلة ذلك الا شيئاً واحداً

ثم سكت الصوت فلم يجاوبه احد بل اشتدّ صوت الزفير قليلاً . فاستأنف ذلك الصوت الكلام قائلاً — ما بالك لا تجاوبين يا اختي . اننا لم نطلب منك الا ما فيه خلاص نفسك . وهل مثلك تدنس نفسها بعبادة باكوس وجوبيتير وجينون وتترك الاله الواحد الذي لا آله الا هو. الا تخجلين يا اختي من عبادة الاصنام والتماثيل الحجرية التي يكسرها اضعف انسان بيده

ولكن هذا الصوت لم يأتِ على هذا الكلام حتى اجاب صوت آخر صارخاً بحدة وبكاء

— انا اعرف الله اكثر منكم

فصاح الصوت الاول بابتهاج قائلاً — شكراً لله شكراً لله . فلقد انار عقلك . وياما احيلي اسم «الله» في شفتيك يا اختي المحبوبة . الآن ارحتِ بالي وعلمتُ ان النور قد بدأ يدخل الى نفسك . ولكن من اي ساعة بدأتِ تعرفين الله يا اختي المحبوبة

فاجاب ايضاً الصوت الثاني بنزق وحدة وبكاء — عرفته منذ ولادتي . فهو الهي واله آبائي واجدادي . هو الذي اخرجنا من مصر ووهبنا هذه الارض ارض الميعاد وحمانا في خلال القرون والاجيال ولولانا لما عرفتموه . وهو لم يسمح لكم ان تستولوا على هذه الارض حيناً الاّ عقاباً لنا كما سمح بذلك للبابليين من قبل . ولكن كما حدث للبابليين سيحدث لكم ايضاً فيعيد الينا الهنا مملكتنا ويخذل اعداءنا

وكان ايليا يصغي الى المتخاطبتين بانتباه شديد لانه من بدء الحديث فهم ان الصوت الاول صوت احدى الراهبات ولعلها الرئيسة والصوت الثاني صوت استير حبيبته ، فازداد

قلبه نبضاً للجراءة والتهور اللذين ظهرا من الفتاة · وقال في نفسه انهـا لو فاهت بهذا الكلام امام احد من العامة لما بقيت حية زمناً طويلاً

اما الراهبة فانها لما علمت ان الفتاة لم تكن وثنيـة بل اسرائيلية قالت بلطفٍ مساوٍ للطفها الاول — يا اختي سواء كنتِ يهودية ام وثنيَّة فان ضميري يوجب عليَّ ان اسعى لهدايتك · ولكن لماذا لم تخبرينا من قبل بذلك · انني الآن عرفت سبب اغمائك حينما وقع نظرك في الصباح على صليب المخلّص في الكنيسة · فيا بنيَّة ارقـدي الليلة بهدوءٍ وسلام وغداً سنتباحث في شأنك · الا تريدين ان تاكلي شيئاً فانك لا تزالين صائمة منذ الصباح

فبكت الفتاة وصاحت لا انام ولا آكل قبل ان ترفعوا هذا من هنا فانه لا يدعني استريح ابداً

ثم اشارت بيدها الى زاويةٍ فيهـا صليب صغير عليه السيد المسيح مصلوب وذلك دون ان تنظر نحوها

فلمـا سمعت الراهبة ذلك حمقت وكادت تستشيط غضباً لهذا الكلام الذي جرح صميم قلبها ولكنها كانت طويلة البال كثيرة الحلم فاجابت وقلبها يقطر دماً من كلام الفتاة — يا اختي · هذا البيت بيتنا · ونظامنا ان نضع في كل غرفة فيه صليب مخلصنا · فلا تتحكمي فينا في بيتنا · لماذا تغلقين قلبك الى هذا الحدّ يا بنية · انظري الى المصلوب فهو يمد يديه نحوك · انظري الا يخيَّل لك انه يبتسم استقبالاً لك · انه حنون صفوح فلا تخـافي ان يذكر لك جناية آبائك · اسمعي اسمعي · فانه يخاطبك بلساني قائلاً : اذا كان التبن الذي يُذرى في الريح العاصفة يعود ويجتمع فمملكتك تعود وتجتمع · لقد تشتتت اورشليم القديمة وقامت مكانها بامر الله يا اختي اورشليم الجديدة · ونحن بنات اسرائيل الجديد نستقبل فيك الآن بنت اسرائيل القديم · فيا له من يوم جميل يوم تضعن ايديكن بايدينا لنمجّد كلنا معاً اختنـا الام العذراء التي اختارها الله ونفخ روحه في احشائها · نامي نامي يا بنية هذه الليلة على تذكار هذه الآمال الجميلة وغداً سنتباحث ملياً في امرك · وليكن الله معك

وهنا انقطع الصوت وسُمع صوت الباب يُغلق · ولكن ما أُغلق الباب حتى علا صوت الفتاة بالنحيب والزفير وقد اشتد جزعها حينئذ لانها صار يخيَّل لها ان تينك اليدين الكريمتين الممدودتين اللتين ذكرتهما الراهبة انما هما ممدودتان اليها · فكادت تجنُّ من الخوف · فقصدت النافذة وهي تبكي وتطلب منفذاً لخوفها وفتحتها بعنفٍ · فلطمت النافذة رأس ايليا فادمته ولكن ايليا لم يبالِ حينئذ برأسه الدامي بل دنا من النافذة وقلبه يخفق خفقاناً شديداً وقال

بالغة العبرانية همساً — انا آتٍ من قبل ابيك ايتها السيدة

وقد نطق ايليا بالعبرانية وذكر للفتاة اباها لكي يطمئن قلبها عند سماع كلامه ولا يهولها منظره في ذلك الليل على حين فجأة

فلما سمعت استير لغتها واسم ابيها تركت البكاء بالحال واصغت . ثم دنت من النافذة وقلبها يخفق خفقاناً شديداً فوقع نظرها على ايليا . فعرفته من اول نظرة . فدنا ايليا وقلبه يكاد يفجر صدره من شدة خفقانه وهمس قائلاً — ايتها السيدة . انا منتظر هنا . فبعد ساعتين ينام الجميع . فاخرجي بتأنٍ من باب الحديقة او من احدى النوافذ

فهنا تنفست استير الصعداء لتحققها الخلاص من أسرها والانضمام الى ابيها . ولم تعد تخشى من اليدين الممدودتين لعلمها ان رجلاً بجانبها . فبعد ساعتين تقريباً قرعت على النافذة مرتين دلالة على استعدادها للخروج ثم خرجت تتسلل كانها طيف . وبعد خمس دقائق ظهر شبحها في الحديقة

فهرع ايليا حينئذ مضطرباً ومسروراً معاً . فقال لها اتبعيني . ثم اتجه نحو جدار الحديقة . فلما وصل اليه خالج ذهنه وذهن استير فكر واحد : وهو كيف تتسلق استير ذلك الجدار . فارتعدت لهذا الفكر فرائص الفتاة وبقي الفتى مبهوتاً . ذلك ان استير لا يمكنها تسلق الجدار بدون مساعدة ايليا كحمله لها او انهاضها . وكيف يجوز ليهودية ان يمسها مسيحي خصوصاً اذا كان ذلك في ظلمة الليل على انفراد . الا أن ايليا انتبه بسرعة الى حل لهذا المشكل فانه شاهد على احد الاشجار في طريقه سلماً صغيراً . فركض مسرعاً الى السلم فحمله وتسلقا الجدار عليه دون ان يشعر احد من اهل الدير بخروجهما منه

الفصل الحادي عشر

الصليب اهون من هذا

قصة استير

ولما خرج الاثنان من الحديقة كان قلب الفتاة يرقص مسرة بالنجاة وقلب ايليا يرقص اضطراباً لعاقبة صنعه هذا وفرحاً بانقاذ فتاته واراحة ضميره . لكن ما خطت استير بضع خطوات حتى سألت ايليا بصوتها اللطيف : اين ابي

فتلجلج ايليا واجاب : ستلقينه غداً ايتها السيدة

فلما سمعت استير هذا الجواب اجفلت ووقفت . ثم تأملت في الهدوء الشامل حولها في ظلمة ذلك الليل في ذلك الجبل المقفر فخارت قواها وهلع قلبها لانها كانت تظن ان اباها ينتظرها خارجاً . ولولا ذلك لما رضيت بالانفراد مع شاب في ذلك الليل . ثم تذكرت ان ذلك المسيحي قال لها على النافذة انه قادم من قبل ابيها فخيّل لها حينئذ انه احتال عليها بذلك لاخراجها . فرجعت القهقرى صائحة : انا عائدة الى الدير . فالصليب اهون من هذا

فصعق ايليا لهذا الجواب واسرع وراء استير فجاءها من امامها وقال بأدب وجد : يا ايتها السيدة . انك لا تجهلين انني خاطرت ليلة امس بنفسي في سبيل انقاذك مع ابيك من ايدي العامة . فاي غرض كان لي حينئذ مع انني لم اعرفكما من قبل . ولقد خاطرت بنفسي ايضاً الليلة لانقاذك ولا غرض لي غير راحتك وراحة ضميري لانني عجزتُ امس عن انقاذك . فهل من العدل ان تجزيني على هذا الصنع بسوء الظن والاهانة الى هذا الحد

فسكتت استير حينئذ تفكر بنفسها وتتساءل هل هذا المسيحي صادق في ما يقول . ثم اجابت . واين تذهب بي الآن . فاجاب ايليا الى مزرعة قريبة في سفح الجبل حيث تنتظرك كثيرات من الفتيات مثلك وغداً يلاقيك ابوك اليها . فقالت ولماذا لا نذهب الى المدينة . فاجاب ايليا لان جيوش العرب تحصرها فضلاً عن ان الابواب لا تُفتح في الليل . فتنهدت الفتاة وسكتت . ولكنها بقيت ترتعد من انفرادها بالفتى في ذلك المكان

وكان القمر في تلك الساعة ملتحفاً بالغيوم السوداء المنذرة بالمطر والريح تهب باردة برداً يدل على قرب مطر مثلج . ولكن كان القمر كان له غرض في الارض في تلك البرهة فاطل من وراء الغيوم ينظر بعينه البيضاء الواسعة الى الجبل والشخصين الواقفين عليه . وكان وجه استير مستقبلاً القمر فلما وقع عليه اول شعاعه وراى ايليا برقه في عينيها سرت في جسمه كهربائية فتاته الغائبة التي احبها عشر سنوات متوالية . وكانت هذه اول مرة وقع فيها نظر ايليا على نظر استير وجهاً لوجه . فذابت حشاشة ايليا لقسوة قلب استير وعدم فهمها عواطفه وعلم حينئذ ان اصعب شيء على القلوب الكريمة التي تستحق الحب الصادق لشرفها وصدقها وكرامتها هو ان تحب ويبقى المحبوب جاهلاً او متجاهلاً حبها وكرامتها لا يثق بشيء لها حتى ولا باخلاصها

لكن يظهر ان استير بعد ان فكرت ملياً اقتنعت بالذهاب مع الشاب لانه اهون الشرين . فقالت له وهل المزرعة بعيدة من هنا فانني اخشى المطر والبرد . فتنفس ايليا الصعداء حينئذ وقال نعم ايتها السيدة ان المزرعة بعيدة ولكننا سنصل اليها في ساعة بعون الله

ثم انه سار امامها يدلها على الطريق وسارت وراءه بخطى سريعة

ولكن يظهر ان السماء رامت الانتقام من استير لانها اساءت الظن بايليا ٠ فهبت على الجبل في تلك اللحظة زوبعة شديدة تمازجها رعود وبروق وثلج ومطر شديد كافواه القرب ٠ وكانت استير بثياب النوم ٠ فجزع ايليا لهذا المصاب الجديد فخلع عنه رداء شتويًا كان عليه والقاه على جسمها ٠ الا ان ذلك لم يجدها نفعًا فان المطر بلل جميع ثيابها والبرد قارص وجهها واطرافها والتعب افنى قوتها فسقطت على الارض ضعيفة واهية القوى ٠ فجزع ايليا جزعًا شديدًا لذلك فدنا من استير وقال : ايتها السيدة استندي الى ذراعي لاحمل عنك شيئًا من مشقة السير فنصل في وقت قريب ٠ فترددت استير اولاً اذ كيف يجوز ان تمس يدها يد مسيحي ٠ ولكنها رأت انها بدون ذلك لا تستطيع السير فنهضت وهي ترتعد من الخوف واسنانها تصطك من البرد ٠ فوضعت ذراعها اليسرى في ذراع ايليا اليمنى اي اخذ ايليا جانب قلبها ثم سار بها ٠ فشعر ايليا حينئذ بسرعة نبض ذلك القلب اللطيف لخوفه وتعبه فازداد نبض قلبه ايضًا كانما سرى بين القلبين نوع من الكهرباء

ولكن الفتاة لم تخط خطوتين حتى سقطت لعدم استطاعتها الوقوف ٠ فازداد قلق ايليا فدنا منها ثانية بوجل وقال : هل تسمحين لي ان احملك

فعند هذا السؤال نفرت استير بانفة واشارت براسها اشارة سلبية ٠ وكان قلبها يقول حينئذ : الموت بردًا اسهل من ان يخالط جسمي جسم رجل خصوصًا اذا كان مسيحيًا

وفي هذه الدقيقة سُمع على الطريق من جهة المزرعة صوت اقدام تعدو بسرعة شديدة فخاف ايليا ولكنه لما ظهر صاحب الصوت صاح به — ارميا ارميا اسرع اليّ ٠ فاجاب ارميا كبريه ايليا ٠ ماذا تصنع هنا ٠ ولما وصل ارميا وشاهد استير فهم سر المسألة ٠ فوقف مبهوتًا يتأمل ٠ ولكن ايليا لم يُطل وقفته بل انه صنع من بعض ثيابه وثياب ارميا ملفًا فلف به جسم استير دون راسها ثم حملاها كل واحد منهما من طرف ٠ وكانت المسافة بينهم وبين المزرعة ساعة والمسافة بينهم وبين كوخ ارميا تحت الارزة عشر دقائق فقط ولذلك اسرعا بها الى هذا الكوخ لاتقاء المطر والبرد

وعند وصولهم ادخلت اليه استير واغلق عليها الباب وبقي ايليا وارميا خارجًا يوقدان النار لتدفئة الفتاة وتجفيف ملابسها ٠ وبعد حين كتب ايليا ورقة واعطاها الى ارميا ليوصلها الى المزرعة ويعود منها بملابس جافة وفرس للركوب

فسار ارميا وهو يتلفت الى الكوخ ليرى هل يبقى ايليا خارجًا ام يدخل اليه ٠ وفي طريقه كان يردد في نفسه قوله السابق لايليا تحت الارزة : يا الله ما اجملها ٠ حقًا لا اعلم

لماذا تكون الوثنيات جميلات هكذا

وكان المطر لا يزال شديداً في الخارج وايليا لاجئ منه تحت الارزة لان استير لم تدعه ليدخل احتماء منه في الكوخ وايليا لا يمكن ان يدخل بدون اذنها. فازداد استياء ايليا لاساءة الفتاة ظنها به. ولكن مع ازدياد استيائه هذا ازداد حبه لها. اذ لا شيء يزيد الحب مثل التمنع والجفاء

ويظهر ان استير قد شعرت بخشونتها. لانها لم تلبث ان اخرجت راسها من باب الكوخ وفتحت الحديث بقولها : هل الفجر بعيد يا كيريه ايليا

فتنهد ايليا ودنا نحو الكوخ واجاب . اظن ايتها السيدة انه لم يبقَ من الليل سوى اربع ساعات . فقالت ولمن هذه المزرعة التي سنذهب اليها. فاجاب هي لرجل كريم يدعى الشيخ سليمان وهو الذي ساءه خبر سجنك في هذا الدير . ثم قص عليها شيئاً مما جرى له معه

فعجبت استير من ذلك في نفسها. لانها بناء على ما سمعته من قومها وما راته من هيجان العامة امس في طريق بيت لحم لم تكن تعهد ان يوجد بين المسيحيين رجلان كايليا والشيخ سليمان يساعدان المظلوم وان كان من غير دينهما ولا يعرفان عنه شيئاً

وهذا وا اسفاه داء من ادواء البشر فان كل فريق منهم يخص قومه بالفضائل دون سواهم

ثم دار الحديث بين ايليا والفتاة . وكان اول ما سالها عنه سبب وجودها مع ابيها في بيت لحم في ليلة امس . فعلم منها ايليا قصتها وهي

كانت استير من عائلة اسرائيلية مقيمة في مصر . وقد شاع يومئذ في المملكة البيزنطية كلها ان المنجمين قالوا ان السلطنة ستصير الى قوم مختونين * (١) فثارت تصورات بعض الاسرائيليين وانتشر بينهم ان المسيح اي المسيح الذي لا يزال اليهود ينتظرونه قادم لاعادة مملكتهم والاستيلاء على العالم . وفي ذات يوم ورد على ابي استير كتاب من بلاد العرب مع رسول من ابناء جنسه فتاهب بعد هذا الكتاب للسفر الى فلسطين مع زوجته وابنته . وكانت زوجته في نحو السبعين من العمر وهي مقعدة لمرض عضال اصابها وكانت اقصى امانيها ان تموت في اورشليم وتطلق روحها في فضائها بجانب هيكل سليمان . ولذلك فرحت فرحاً شديداً بسفرهم الى فلسطين . وقد شاركتها ابنتها استير في هذا الفرح لانهم قالوا لها ان المسيح سيظهر في ذلك العام في فلسطين . فجاءوا الى اورشليم متخفين متنكرين

١ لذلك يقول بعض ادباء العرب ان هذه النبوءة انطبقت عليهم . وهو من الغرابة بمكان . ولكن لعل هذه النبوءة لم تظهر الا بعد ظهور العرب

لينتظروا المسيح فيها ويكونوا اول من يستقبله من ابناء اسرائيل · وقد استأجروا في القدس منزلاً صغيرًا بازاء الجدار الذي كان المسيحيون يلقون عليه فضلات منازلهم (١) وكان الثلاثة كثيرًا ما يخرجون في ظلمة الليل سرًّا ويقفون هناك ويصلّون باكين الصلاة التي يصليها بنو اسرائيل دائمًا امام جدار هيكلهم القديم في اورشليم وهي :

(يقول واحد) من اجل الهيكل المقدس العظيم (فيرد الجماعة) نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل اسوار هذه المدينة الساقطة (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل مملكتنا التي بادت (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل رؤسائنا الذين ماتوا (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") آه تحنن على صهيون (" ") واجمع شتات اورشليم
(" ") اعد سابق مجدك لصهيون (" ") وانظر مترحمًا اليها الخ

وقد مرت عليهم ثلاثة اشهر على هذه الحال وفي كل يوم كان يذهب ابو استير لمشاهدة آثار المدينة ويختلط باهلها متزيًا بزي اليونانيين والسوريين · اما استير فانها كانت تخرج احيانًا من المدينة مع ابيها وتجلس على رابية عالية لترى منها هل المسيح آتٍ ام لا · وفي اكثر الاحيان كانت تلازم امها العجوز المقعدة في البيت وتخدمها · ففي ليلة امس اشتهت استير ان تشاهد عيد المسيحيين في بيت لحم فغضبت امها من ذلك ولكن اباها رضي باخذها الى بيت لحم فذهبا للتفرج فيها فجرى لها ما جرى

فلما سمع ايليا هذه القصة صار يسأل نفسه هل هذه العائلة ساذجة الى هذا الحد حتى خاطرت بنفسها في القدس من اجل هذه المسالة ام هنالك امر آخر كتمته عنه استير او كتمه اهلها عنها ولم يظهروا لها منه غير المسالة الدينية · الا انه كان يظهر في كلام استير انها مخلصة في قولها كل الاخلاص ولذلك رجح ايليا السذاجة على السياسة

وبعد السكوت حينًا ابتدر ايليا الكلام فقال : فامك اذًا الآن في المدينة يا اختي

فلما سمعت استير كلمة «اختي» من فم الشاب حصل ارتياح في نفسها لازدياد طمأنينتها · انما تساءلت في نفسها هل يجوز لمسيحي ان يدعوها اخته · ثم اجابت والدموع في عينيها لذكر امها : نعم يا كيريه ايليا وهي مقعدة لمرضها

وكانت استير بعد هذا الحديث رأت انها فعلت ما كان عليها ولذلك انزوت في احدى

---

١ هو بقية هيكل هيرودس الذي اقامه على هيكل سليمان ووراءه اليوم حي اليهود في القدس على ما في الخريطة التي امامنا وهو احد جوانب الحرم المشهور

الزوايا بداخل الكوخ . فعاد ايليا عن الباب متنهداً . وبقي الاثنان بعد ذلك ساكتين ولكن «الهوى» في قلبه و«الهواء» في الخارج على اغصان الارزة كانا يتكلما و يزئران زئيراً شديداً

وبعد نصف ساعة سُمع صوت حوافر جواد ينهب الارض نهباً فنهض ايليا لعلمه ان ارميا قد عاد من المزرعة . ولكنه عجب من هذه السرعة . لانه لم يكن يدري ان ارميا سار في ذهابه بسرعة الجواد وعاد بسرعة الجواد لكي لا يترك استير مع ايليا وقتاً طويلاً

وكانت استير قد دفئت قليلاً في داخل الكوخ فغيرت ملابسها بالملابس الجافة التي جاءها بها ارميا ثم ركبت الجواد وهمت بالمسير . فقال ايليا لارميا خذ بقياد الفرس يا ارميا وسر سيرًا سريعاً . فحكّ ارميا راسه واجاب . بل دعني اسير على مهل وراءه يا كيريه ايليا لانني تعبت . فاخذ ايليا بقياد الفرس وسار امامه دون ان يدري بالسبب الذي من اجله طلب ارميا ان يكون وراء . وهكذا سار الثلاثة بين العواصف والقواصف ايليا امام واستير في الوسط على ظهر الفرس وارميا وراء . وكان ارميا لا يرفع نظره منها

ولما وصلوا الى المزرعة كان الشيخ سليمان ينتظرهم فدنا وقبّل رأس ايليا سرورًا بفعله ثم دفع استير الى بناته فاستقبلنها استقبال اخت وصديقة قديمة . وقد خصصن بها غرفة بجانب غرفتهنّ فنامت استير بقية الليل نوماً هنيئاً بعد ان عجبت كثيرًا من هؤلاء المسيحيين

الفصل الثاني عشر

﴿ بين مسيحي ويهودية ﴾

وفي فجر اليوم التالي قبل ان تتعارف الوجوه تقريباً كان على قبر الراهب ميخائيل الكائن في وسط المزرعة كما تقدم شخص جالس يتأمل والبرد قارس والريح شديدة . وكان هذا الشخص ايليا لانه لم ينم بقية ذلك الليل . وكان يقول وهو جالس على القبر: يا استاذي ميخائيل . ان خطبتك على الجبل كانت حداً فاصلاً وطورًا جديداً في حياتي . وها انا الان قد وصلت الى طور جديد آخر . انني لم اكن افهم لذة الوجود وبهجة الدنيا ولذلك سئمتها وضجرتُ منها . اما الآن فصرت افهمها . انما ارجو من روحك الكريمة التي ترفرف في فضاء هذه المزرعة دائماً ان تمس قلب استير وتجعلها تشعر شعوري

ولما طلع الصباح وانتبه اهل المزرعة عاد ايليا اليها فوجد بنات الشيخ سليمان عند استير

يلاطفنها ويتناولن طعام الصباح معها . وكانت هذه اول مرة يرى فيها ايليا استير وجهاً لوجه على ضوء النهار

فراى ايليا استير فتاة في نحو العشرين من العمر وكانت بقدّ رشيق طويل كأنه غصن بان ووجه ممتلىء ناصع البياض كالثلج تخالط بياضه حمرة الصحة والعافية كانما اجتمع فيه كل ما في الورد من اللون الزاهر . وفوق وجهها التفاحي الجميل شعر ابنوسي يؤلف سواده الفاحم مع ذلك البياض وتلك الحمرة منظرًا عجيباً . اما العينان فقد انفردتا بلون رابع وهو اللون الازرق الصافي صفاءً بديعاً وهو ما يندر تحت الشعر الاسود . فكانّ هذا الراس الملائكي الجميل آلى خالقه على نفسه ان يجمع فيه كل بياض الزنبق وحمرة الورد وسواد المسك وزرقة السماء باشد جمالها ومعانيها ليكون مثالاً للجمال الذي يمكن ان تدركه عين بشرية

فلما شاهد ايليا في ذلك الصباح وجه استير على نور الشمس سجد قلبه في صدره لصانع هذا الحسن . وادار نظره الى السماء من النافذة ليرى ايّهما اعمق واجمل زرقة عيني استير ام زرقتها

وبعد الطعام طلبت استير محادثة ايليا فهرع الشاب اليها وخرج معها الى الحقول . فلما رآها الشيخ سليمان سائرين قال : لقد آن انْ يكون لايليا شمس تبدّد همومه الدائمة . فاظن ان استير ستكون من بنات المزرعة بعد الآن

ولما انفردت استير بايليا ابتدرت الكلام قائلة : ماذا نصنع الآن يا كيريه ايليا هل اذهب الى المدينة ام ياتي ابي الى هنا لاخذي . فتنهّد ايليا واجاب . يظهر ايتها السيدة انك غير مسرورة بالاقامة هنا . ولكن ما الحيلة انك لا تقدرين على الذهاب الى المدينة لان جيوش العرب تحصرها كما ذكرتُ لك وابوك لا يقدر ان يأتي الينا لانه لا يستطيع ترك امك وحدها

فاغرورقت هنا عينا استير بالدمع لدى ذكر امها وتنهدت بكآبة وحزن . فكاد قلب ايليا يتفطر لعنائها . وبعد السكوت برهة قالت استير والى كم يطول حصار المدينة . فاجاب ايليا لا اعلم فعلينا ان ننتظر منتهى هذه الحادثة

وفي هذا الحين التفت ايليا نحو المزرعة فابصر ارميا راكضاً نحوه . ولما وصل اليهما حيّاها ببشاشة واخبر ايليا ان اهل دير العذراء دروا في الصباح بفرار الفتاة فاضطربوا وكاتبوا البطريرك وارسلوا يسألون ارميا هل رآها فاجابهم ارميا انه ما راى احدًا

وفي الحقيقة ان جواب ارميا لهم كان ان شاباً يُدعى ايليا في مزرعة الشيخ سليمان هو الذي اختطفها

وبعد وصول ارميا الى ايليا واستير لزمها ولم يعد يفارقها . وكان كثير المراقبة لاستير على الخصوص . فلاحظ منه ايليا هذه المرة ما لم يلاحظه من قبل . فاستاء في نفسه وعاد بالفتاة الى المزرعة

وبقيت استير كئيبة حزينة طول النهار فحاول الشيخ سليمان كثيرًا ان يزيل كآبتها فلم يقدر فاحال عليها ايليا قائلاً : هل انت جماد لا تتحرك . فكيف تترك هذه الفتاة تذوب كآبةً لفراق اهلها ولا تحاول تعزيتها

فوا اسفاه ان الشيخ سليمان لم يكن يدري ايضاً ما كان في نفس ايليا

مجيء المسيح وصلبه

وفي ذلك المساء قبل غروب الشمس بساعتين عرض ايليا على الفتاة ان يذهب بها ليريها الحقول والبساتين في المزرعة . فرضيت الفتاة بذلك وذهبا يتنقلان بين تلك الطبيعة الجميلة التي زادتها عناية يد الانسان ثمارًا وجمالاً

وما زالا سائرين حتى بلغا قبر الراهب ميخائيل . وكان ايليا قد نثر الزهر في الصباح على القبر حسب العادة . وكان حول القبر عدة مقاعد من حجر فجلس على احدها وجلست الفتاة بعيدة عنه . وبعد ان جلست سالت ايليا عن صاحب ذلك القبر . فلما سمعت اسم « راهب » اجفلت ونهضت . فاستاء ايليا في نفسه لهذه الاهانة لاستاذه ولكنه اظهر الابتسام والضحك فقال . اجلسي اجلسي يا اختي لنتحادث في موضوع نفورك . وارجو ان تسمحي لي بذلك فان هذا الامر قام في نفسي منذ رأيتك على الطريق تمتنعين عن انقاذ نفسك وابيك بعلامة ترسمينها على صدرك

فهنا جزعت استير جزعاً شديدًا وصبغ الاصفرار وجهها من شدة الجزع . فثارت نفس ايليا لذلك وصاح : يا اختي اقسم لك بخالق السماء والارض الحكم والمنا انني لا اقصد الاساءة اليك او الى معتقدك بشيء . فانني من الذين يحرّمون الضغط حتى على ضمير النملة اذا كان لها ضمير . فعلامَ هذا الجزع والخوف من لا شيء

فدمعت عينا استير واجابت باضطراب شديد . لا اريد ان اباحث احدًا في هذه المواضيع فانني رأيتُ اسلوبكم في البحث اول امس في طريق بيت لحم وامس في الدير

فهنا ابتسم ايليا واجاب . اسمعي ايتها الفتاة الكريمة لازيل سوء ظنك واهانتك بكلمتين . انك تقيسينني ايتها السيدة على العوام الذين شاهدناهم في طريق بيت لحم وعلى الراهبات

اللواتي رمن اجتذ ابك في دير العذراء . ولكنك تخطئين بهذا القياس . فان العامة اناس لا رأي لهم غير ما تلقنوه وهم لا يفتكرون بعقولهم بل بعقول غيرهم . والراهبات وغيرهن من المنقطعين الى الله في الاديرة وغيرها لا يُلامون اذا تمسكوا بمعتقدهم تمسكهم بالحقيقة المطلقة لانهم لو لم يكونوا يعتبرون انه الحقيقة المطلقة لما انقطعوا اليه عن كل ملاذ الدنيا . اما نحن باقي البشر الذين لنا عقول نعقل بها وعلينا ان نعيش مع عناصر مختلفة في الارض فان حالنا غير حال اولئك . فاننا انما نحن تلامذة البحث والتنقيب والاخذ والرد . ثم ابتسم ايليا وقال . فابحثي معي يا ايتها السيدة ولا تجاسي اذ ما ادراكِ انك لم تُرسلي من السماء لهدايتي . ما ادراك ان العناية الالهية لم ترسلك اليَّ لاعطائي ما ينقصني الى الان

فابتسمت استبشاراً لهذا الكلام اللطيف وظننت ان ايليا يريد به الجهة الدينية . وفي الحقيقة انه كان يريد به الجهة القلبية ... اذ ما كان ينقصه معلوم مما تقدم .

ثم ان ايليا اردف كلامه السابق بقوله : ومصداقاً لقولي ايتها السيدة الكريمة اذكر لك شيئاً عن صاحب هذا القبر الكريم الذي اجفلتِ منه لمجرد معرفتك انه راهب . هل سمعت يا سيدتي بمبادىء واخلاق الراهب ميخائيل . هذا الراهب صرف كهولته في جمع المال من اهل المال ولكنه توفي ولا فلس في صندوقه لانه كان يوزعها كلها على الفقراء والمساكين . وكان عنده جميع الفقراء على السواء مسيحيين ويهوداً ومجوساً لانهم كلهم عيال الله كما كان يقول . هذا الراهب اضطهده بعض الناس حسداً وبغضاً واساءوا اليه وقطعوا رزقه ولكنه كان يباركهم الى آخر نسمة من حياته . وفي ساعة موته اشار اليَّ فدنوت منه فقال لي وهو يجود بنفسه : اذا سافرتَ الى بلادي يوماً ورأيت احداً منهم فقل لهم انه يقرئكم السلام ويطلب ان تصلّوا من اجله . هذا الراهب طُرد من سلك الرهبانية لانه خطب خطبة لام فيها الحكومة ورجال الدين لاضطهادهم اليهود في سوريا وفلسطين . وكان كلما مرَّ في طريقه بيهودي فاذا كان فقيراً يحسن اليه بشيء من المال واذا كان غير فقير استوقفه وحادثه وآنسه وذلك على سبيل الاحتجاج على اضطهاد الحكومة لبني جنسه . وقد قلتُ لكِ انه كان « يحسن » الى الفقير والصحيح كما كان يقول انه كان يفي له « الدَّين » الذي عليه . هذا الراهب عاش في هذه المزرعة عشرين سنة وليس بين الناس هنا وفي القدس واحد يقول انه اساء اليه بشيء ما طول حياته حتى ولا الكهنة الذين كانوا في خلاف معه . هذا الراهب اذا جادل الناس بعضهم بعضاً امامه في الدين كان يعبس ويقطع حديثهم بقوله : فلنبحث يا اولادي في ما نعلمه ونفهمه من شؤون السماء اما شؤون الارض

فاننا لا نعلمها. وحسبنا ان نكون صالحين طاهري القلوب مسلمين امورنا الى الله تعالى فنعيش كلنا في الارض اخوانًا في اخوان مهما اختلفت مذاهبنا . — هذا ايتها السيدة هو الراهب الذي اجفلتِ من ذكر اسمه . افكنتِ ترفضين مباحثته كما رفضتِ مباحثتي لو كان حيًا

وكانت استير مصغية الى ايليا اشد اصغاء . فلما فرغ من كلامه قالت : اذًا لم يكن هذا الراهب مسيحيًا ؟

فقهقه ايليا قهقهة تكاد تُسمع من المزرعة واجاب : بل كان مسيحيًا يا اختي لان هذه هي المسيحية الحقيقية

فسكتت استير هنيهة ثم اجابت ، حقًا هذه اول مرة اسمع بها مثل هذا الكلام عن مسيحي . ولكن كيف كان ايمانه به ...

وقد نطقت استير بهذا الكلام على غير وعي تقريبًا . فترك ايليا حينئذ الضحك وصار يفكّر بجدٍ واهتمام في الجواب الذي يجيبها به . ذلك لانها انما قصدت بسوءالها السوءال عن ايمان الراهب ميخائيل بالمسيح . والبحث في ذلك معها صعب لعدة اسباب منها رغبته في ان تكون مسيحية والاَّ فلا يمكنه الاقتران بها وهذا يقتضي مباحثتها في ذلك بحثًا دينيًا لا بحثًا عقليًا . فشرع اولاً في البحث الديني فاجاب : يا سيدتي نسألينني سوءالاً غريبًا اذ كيف يكون الانسان مسيحيًا ولا يوءمن بالمسيح

وكانت استير قد تحمَّست من كلام ايليا الذي قال لها فيه انه يحتمل ان تكون مرسلة اليه من العناية الالهية لهدايته . فجمعت قواها كلها لمباحثته في امر كانت قد سمعت كثيرًا من المباحثات فيه لعلها تهديه . ويا للغرابة . ان هذه هي اول مرة بدأت بها تميل الى ايليا . ولكن لالا . لا غرابة في ذلك لان هذه هي اول مرة بدأت بها تهدم الحاجز الاجتماعي الذي كان بينها وبينه . ومتى انهدم هذا الحاجز مسَّت نفسها نفسه بحكم الطبع فنتآخيان بأمن وسلام

اما نفس ايليا فانها لم تكن محتاجة هذا الهدم ليحصل التآخي بينها وبين نفس استير لان هذا التآخي حصل لها من النظرة الاولى

فلما سمعت استير جواب ايليا ابتسمت وقالت : وانت يا كيريه ايليا اصدقني . اتوءمن به ايضًا . فاجاب ايليا برزانة : بلا شك ايتها السيدة . وانني آسف لانك لاتوءمنين انتِ به ايضًا . فابتسمت استير واجابت . هل تغضب اذا جهرتُ بكل رأيي كما يغضب ابناء مذهبك او تريد ان اسكت . فقال لالا تكلمي ياسيدتي . فقالت استير انني اوءمن

بالمسيح يا كيريه ايليا ولكنني اؤمن بالمسيح الحقيقي الذي لم يأتِ بعد ولا بدَّ ان يأتي

فنظر ايليا حينئذ ضاحكاً الى تينك الشفتين الورديتين اللتين كان يخرج منهما هذا التجديف على الاسم الذي يفديه بدمه . وقال في نفسه : لو خرج هذا التجديف من شفتين غير هاتين الشفتين لعضضتها وقطعتها باسناني . لانني اذا كنت ابحث في الكائنات والفلسفات بحثاً عقلياً مجرَّداً عن كل تقليد فانني اضع دائماً فوق كل بحث وكل علم اسم الذي مسَّ يوماً باصبعه الالهيَّة صورة الكمال السماوية فكان مثالاً لها في هذه الحياة المملوءة بالصغائر والنقائص والشرور

فبعد ان فكر ايليا هنيهةً اجاب : يا ايتها السيدة أانتِ اسرائيلية ام لا . فقالت استير نعم اسرائيلية . فقال الا تعتقدين بصحة التوراة . فاجابت استير بلا شك اعتقد بها . فقال ايليا . فالتوراة كتابك المقدس يشهد ان المسيح قد اتى

فهمَّت استير ان تجاوبه فابتدرها ايليا بقوله . دعيني اكمّل اولاً وبعد ذلك قولي ما تشائين . اسمعي يا استير . هل قرأتِ الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين . اسمعي ماذا يتنبأ يعقوب لابنه يهوذا . قال « يهوذا اياك يحمد اخوتك . يدك على قفا اعدائك . يسجد لك بنو ابيك — لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون » اي المسيح لان هذا احد اسمائه . فيا استير ان قضيب الملك قد زال من يهوذا وتفرقت مملكته ايدي سبا . وهذا يدل على ان « شيلون » قد اتى

فهمَّت استير ان تجاوبه ثانية فصاح ايليا : دعيني اكمّل اولاً . ما قولك يا استير بنبوءة اشعيا في اصحاحه السابع . اسمعي ماذا يقول « يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (الذي تفسيره الله معنا) فيا استير ان العذراء قد حبلت وولدت في بيت لحم الصبي المنتظر طبقاً لقول ميخا النبي في الاصحاح الخامس حيث يقول « اما انتِ يا بيت لحم فانت صغيرة ان تكوني بين الوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على اسرائيل . ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل » فيا اختي استير هل من شهادة افصح وابلغ من هذه الشهادات

وكانت استير قد بدأت ترتعد من غضبها وتأثرها خصوصاً لان ايليا لم يكن يترك لها سبيلاً للجواب . فتأثر ايليا اشد تأثر لذلك فقال : يا اختي سكني روعك ولا تخافي من الحقيقة اذا لمستها اصبعك . ولا يسوءنك تأثرك الآن اذ ما هذا العناء بالقياس على العذاب الذي لقيه غيرك . اسمعي ماذا قال اشعيا في الاصحاح الثالث والخمسين عن عذاب « شيلون » « محتقر ومخذول من الناس . رجل اوجاع ومختبر الحزن وكمستَّر عنه وجوهنا . محتقر فلم

نعتدّ به » الم يكن يسوع هكذا يا اخي . ثم انه يقول « ليس مبغضي تعظم عليّ فاختبىء منه بل انت انسان عديلي . الفي . وصديقي الذي معه كانت تحلو لنا العشرة » فلماذا يا اخي صنع قومك هكذا مع صديقه وصدّيقه . اسمعي ايضاً نبوءة النبي داود في مزموره الثاني والعشرين « احاطت بي . . . . . (عذراً فلا اذكر هنا الكلمة يا اخي لئلا تسوءك) جماعة من الاشرار اكتنفتني . ثقبوا يدي ورجليّ . احصي كل عظامي . وهم ينظرون ويتفرّسون فيّ . يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون » — افما تمّ كل هذا يا اختي بصلب شيلون . وكيف نستطيع انكار مجيئه بدون مناقضة التوراة كتابك

وكانت استير تبكي في اثناء هذا الكلام وتعضّ شفتيها من شدة تأثرها . فلما فرغ ايليا من كلامه صاحت من صميم قلبها : يا كبيريه ايليا لقد ظلمتني . فانك انتَ تقول كل شيء وانا لا اقدر ان اقول كل شيء . وهذا سبب شدة تأثري وبكائي . فانا اكتفي اذاً بشيء واحد . انكم تظنون ان نبوءات التوراة تنطبق على يسوع الناصري ولكن رجال ديننا يقولون انها لا تنطبق عليه . وحسبي ان اذكر لك نبوءة واحدة دليلها فيّ الآن . ان رئيسنا وملكنا داود قال في مزموره الثاني والسبعين متنبئاً عن زمن المسيح « يشرق في ايامه الصدّيق وكثرة السلامة الى ان يضمحلّ القمر » اي الى نهاية العالم . فهل الصدّيق هو المنتصر في العالم الآن . واين هذه السلامة الموعودة . انظر فانني انا ابكي امامك الآن واضطرب كريشة في مهب الريح . ثم ان يوئيل النبي يقول في اصحاحه الثاني « و يكون بعد ذلك — اي بعد سعادة اسرائيل بمسيحه — اني اسكب روحي على كل بشر » فهل روح الله الآن في اولئك الذين يضطهدون ويظلمون ويملأون الدنيا بالشرور . وقال ميخا في اصحاحه الرابع مشيراً الى المسيح « يقضي بين شعوب كثيرين . ينصف لامم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل . لا ترفع امة على امة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » فيا صديقي ايليا هل جرى شيء من هذا الى الآن لتقول بمجيء المسيح . انظر ان السيف والنار ياكلان العباد والبلاد في كل الجهات . وهوذا اورشليم نفسها محصورة الان بنطاق من الرماح والسيوف . وقال اشعيا في الاصحاح الستين والخامس والستين مخاطباً اورشليم بعد مجيء مسيحها « لا يُسمع بعد ظلمٌ في ارضكِ . ولا خراب او سحق في تخومك . بل تسمين اسوارك خلاصاً وابوابك تسبيحاً — الذئب والحمل يرعيان معاً والاسد ياكل التبن كالبقر . اما الحية فالتراب طعامها . لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي » — فيا اخي ايليا هل تمّ هذا كله . هل ساد السلام في الارض بين البشر والحيوانات كما تنبأ اشعيا ليجوز

لك ان تقول بمجيء ملك السلام . ماذا تجيب عن هذا

فعجب ايليا في نفسه من اخراج استير الموضوع عن محوره الاول ومهاجمتها له بدل الدفاع . فتأمل هنيهة ثم اجاب : اذًا انت لستِ باسرائيلية يا اختي ؟ فصاحت استير وقد تركت البكاء كيف ذلك . فقال ايليا لانك لو كنتِ اسرائيلية لكنتِ تؤمنين بالله تعالى خالق هذا الكون ومدبّره . فصاحت استير كلبوة جُرحت : بلا شك انا أؤمن بالهنا واله آبائنا واجدادنا . فقال ايليا حينئذٍ : فكيف تؤمنين بوجود الله يا اختي ولا تؤمنين باعماله . اتظنين انه يقوم شيء في الارض ويعمّ الدنيا كلها بدون ارادته . دعينا من النظر في الكتب فان كل فريق منا يؤولها تأويلاً ينطبق على مذهبه ومصلحته ولننظر في الاشياء بعقولنا فقط . الا يجب ان تعتبري انتصار المسيحية في الارض وتغلّبها على الاديان القديمة وعقول ملايين البشر دليلاً على انها من افعال الله تعالى . فهذا برهان واقعي بسيط على ان تأويلي للتوراة اصح من تأويلك . ولا ينقض هذا البرهان الا القول بان الله لا يدبّر شؤون الكون بل ليس هو بموجود اصلاً وهذا الامر اجلّك عن ان تقولي به او تفكري فيه . يا اختي كلنا عباد الله ولا تسقط شعرة في نظام الكون ومسير الدنيا بدون ارادته . ومتى اعتقدنا هذا الاعتقاد ثبت لنا ان انهدام اورشليمكم القديمة وقيام اورشليمنا الجديدة كان بارادة الله وفعله لانه رأى ذلك افضل لنظام الدنيا . فيجب علينا اذًا ان نسلّم لارادة الله ونعترف بافعاله . ولا نعارض في احكامه

فعند هذا الكلام تحول ضعف استير الى قوة وغيظ فنظرت الى ايليا بعينين ثائرتين وصاحت :

يا كيريه ايليا لا تتهدّدونا بالهنا وربنا . فانه لم يُسقطنا الا لينهضنا . اسمع قول هوشع النبي في اصحاحه الثالث « لان بني اسرائيل سيقعدون اياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا افود وترافيم . وبعد ذلك يعود بنو اسرائيل ويطلبون الرب الههم وداود ملكهم ويفزعون الى الرب والى وجوده في آخر الايام » ونحن الآن بلا ملك لان مملكتنا زالت وبلا ذبيحة لان هيكلنا قد هُدم ولكن سنعيد مملكتنا وهيكلنا طبقاً لوعد الهنا . نعم ان الله يستحيل أن يترك شعبه . واذا تركه حيناً فما ذلك الا لتأديبه . وقد كفانا يا الهنا هذا التاديب الهائل . لقد اخذوا بلادنا وسلبونا ارثنا واقتسموا كل مالنا . حتى انت نفسك صاروا يدعونك الههم لا الهنا . وبذلك اصبحنا غرباء ضعفاء في الارض التي عاهدتَ نفسك على اعطائنا اياها لنا ولاولادنا . انظر الينا اننا متشتتون في جميع اقطارها

كالسلك المنثور . اولادنا يبكون وآباؤنا يحزنون وبناتنا يلبسن السواد لانك نصرت الاعداء علينا . ولا نكاد نجد لدى هذه الامم القاسية ملجئاً ناوي اليه براحة وسلام مع عيالنا ولا حجراً نضع عليه رؤوسنا . اسمع كيف يتهكمون علينا ويضحكون منا . يقولون انك اقمت اسرائيلاً جديداً بدل اسرائيل القديم . ولكن هل انت قاسٍ الى هذا الحد لتهمل القديم بعد اقامتك الجديد . لماذا لم ترشد القديم الى هذا الجديد اذا كانوا صادقين في ما يقولون . وبناء على هذا اردّ اليك يا ايها الفتى ايليا الكريم سهام برهانك قائلة : لا يمكن ان يكون الله هو الذي هداكم لانه لا يمكن ان يضلّنا

اما ايليا فلما سمع هذا الكلام اثر فيه اشد تاثير وخيّل له انه يسمع صوت امة باسرها ينادي هذا النداء . فعلم انه يستحيل عليه بعد كل ما بذله من الجهد ان يُقنع الفتاة من طريق الكتب والدين ما دام كل واحد يرى الامور بعين تختلف عن عين الآخر . فترك ايليا الكتب والدين جانباً ورام البحث من وجه آخر . وقد قال في نفسه ان استير اذا تحركت احشاؤها وتأثرت من هذا الوجه فانها تكون كانها صعدت اول درجة من درجات الايمان ولذلك قال للفتاة وهي في اشد اضطراب

يا اختي استير انني اندب معك حالة قومك . وآسف للاضطهاد الجائر الذي يصيبهم من عدوان الناس وبغضهم . وكوني على ثقة من ان المسيحيين الذين يصنعون هذا يخرجون عن حدود المسيحية لان المسيحية انما هي حب الاعداء ومباركة المبغضين . ولكنّ اشتراكي هذا معك لا يمنعني يا اختي من تذكيرك بامرٍ جدير بالذكر في هذا الموضوع . وهو ان الذي داس الحق في زمانه لا تؤثر كثيراً في النفوس شكواه من دوس الناس حقه . ولنضرب لذلك مثلاً

لنفترض ان العامة في ليلة عيد الميلاد في بيت لحم وجدت فتاة يهودية تُدعى استير فثارت تصوّراتها وطلبت اما تنصير الفتاة او قتلها لانها خالفت اوامر الحكومة بالدخول الى بيت المقدس . فارسلت الفتاة الى دير على جبل الزيتون لاقناعها بجحود دينها . فرفضت ذلك رفضاً قطعياً وفضلت الموت على ترك دين آبائها . فقام اولو الامر وصلبوها على خشبة واهانوها وقتلوها . ثم بعد الوف سنين صارت اوروشليم الى اليهود وقام محل الدير المسيحي في جبل الزيتون معبد يهودي كان اليهود يصلبون فيه الفتيات المسيحيات اللواتي يأبين جحود دياناتهن . فاي تاثير يكون في النفوس لكلام المسيحيين اذا كانوا يقولون يومئذ ان اليهود برابرة لانهم يصلبون الفتيات المسيحيات . الا يردّ حينئذ اليهود عليهم بقولهم اننا تعلمنا هذه البربرة منكم

فهمت استير ان تجاوب ايليا فصاح ايليا : دعيني اكمل اولاً وبعد ذلك تقولين ما تشائين . فيا استير لو صلبوك — لا سمح الله — في دير العذراء فماذا كان يقول اهلك وقومك . انظري انني لا ابحث هنا في مسألتنا من وجه ديني قطعياً بل انني اضع الدين والتوراة والانجيل جانباً واسالك كفتاة رقيقة القلب تبغض الشر والقسوة والظلم . فاجيبيني . اي ذنب جناه المصلوب الذي سفك دمه اجدادك . . . . اسمعي ولا تقطعي حديثي فانني اعرف اعتراضاتك . انك تقولين انه خان وطنك وجدّف على دينك ورام هدم هيكلك . ولكن كل هذا لا ابالي به ولا يلتفت اليه اليوم احد . وانما يجب ان نسأل من كان المحق والمحقوق في تلك الحادثة الهائلة . فصاحب الحق وحده هو الذي يجب ان يُعطى الحق بقطع النظر عن كل شيءٍ

واسمعي من كان صاحب الحق في هذه الحادثة — ما ذا كان يقول المصلوب ؟ — اليكِ خلاصة مطاليبه يا اختي بصرف النظر عن المسألة الدينية فانني لا انظر معك هنا الآن الا في ناسوته نظرًا بشريًا

جاء ابن الانسان يا اختي من دم يهودي . فنظر قومه وشعبه شاردين عن كتابهم . ان كتابكم التوراة يا اختي مفعم بمبادىء العدالة والرفق والصدق والمساواة والحكمة . ولكن هذه المبادىء كانت لا تتعدى الكتاب . اي انه لم يكن منها شيءٌ في النفوس . فالكهنة أَلفوا في الامة طبقة ممتازة لها السيادة والقوة والثروة والجاه . وكان الشعب تحتهم يئنُّ من الفقر والذل والضيق وهو ينظر شزرًا الى الاغنياء والعظماء لان غناهم وعظمتهم مخالفان لمبادىء المساواة الاجتماعية المعلنة في التوراة . وكأنَّ هذا الخلل الاجتماعي لم يكن كافياً وحده لعذاب الشعب المسكين فجاء مقرونًا بخلل ديني ايضاً فوضعوا ان العبادة الحقيقية لا تكون الاَّ في هيكل اورشليم . اي انهم جعلوا بين نفوس البشر وبين خالقها تعالى حاجزًا عظيماً لا يرفعه الاَّ الكهنة خدَمة ذلك الهيكل . ولا عجب في ذلك لانَّ دخل الهيكل كان المورد العظيم لرزقهم وثروتهم . ثم استطردوا من تقييد الدين بالمكان الى تقييده بالجنس . فقالوا ان كل الامم كلاب ولا انسانية الاَّ في شعب اسرائيل . ولذلك كانوا يعتبرون باقي الناس نجسين لا يجوز لليهود معاشرتهم ولا الاحسان اليهم . وبما ان العبادة قد تقيَّدت بالمكان والجنس لزم ان يجرَّ هذا القيد قيودًا اخرى ومن هنا بدأُوا يدخلون على دين موسى ما ليس منه في شيء . فاصبحت الظواهر الدينية الذي يسهل العمل بها مقدمة على البواطن لصعوبة العمل بها . فصار مثلاً الفريسي يمشي في الشوارع

مغمض العينين لئلا يرى الشر والنساء * ومع ذلك فانه كان يأتي في السر اكثر ضروب الشر . واذا كانت جبهته تدمى احيانًا من لطمه جدارًا في طريقه * لمشيه مطبق العينين فان كثيرين من الناس كانت قلوبهم دامية من اساءآته وقسوة قلبه وسوء معاملته . وهكذا الصائم ايضًا فانه كان اذا صام عدَّ عمله فضيلة وان كان ينقض بافعاله ومعاملاته كل اصول الفضائل . وهكذا حافظ السبت وهلمَّ جرًا

فماذا فعل ابن الانسان يا اختي لدى هذه الامور الجافة الباردة . هل اعترض على الدين . كلا . انه قال « ما جئتُ لانقضَ بل لاكمل » وانما نفسه اللطيفة كانت لاتستطيع قبول هذا الخروج عن الشرائع الالهية الابدية . لذلك نادى ان العشَّار الغريب المنبوذ افضل من الكاهن الفريسي اذا هو استقبل الله بقلب نقي . والسامريّ المضطهَد المحتقَر افضل من اليهودي اذا هو اغاث غريبًا جريحًا على طريق اريحا ولم يغثه اليهودي . وبذلك وضع اساس الاخاء والمحبة بين جميع اجناس البشر على الاطلاق هادمًا الحواجز الاجتماعية الموضوعة بينهم وجاعلاً مقياس الفضل والصلاح ومحبة القريب صنعَ الخير المجرَّد لاي انسان كان . ولما قالت له المرأة السامرية على بئر شكيم (نابلس) ان اليهود يقولون ان الصلاة لا تجوز الا في اورشليم صاح بها قائلاً : « ايتها المرأة قد جاءت الساعة التي فيها يُعبد الله في كل مكان بالحق والروح » اي ان كل انسان يجب ان يكون كاهن نفسه . وعبادته يجب ان تكون في كل مكان « بالحق والروح » اي بطهارة القلب دون شعوذة لربح المال ودون ظواهر مادية محسوسة . فيا اختي ان هذه العبارة وحدها هدمت العالم القديم لتنشىء عالمًا جديدًا . ووا اسفاه ليت العالم الجديد يبقى متمسكاً بها

فمن ذلك يا اختي استير تفهمين السبب العظيم الذي من اجله ثار قومك على ابن الانسان . فانَّ البشر لا يؤلمهم شيء مثل التعرض لمصالحهم وكبريائهم للاضرار بها . وهم اول ما يشعرون بالضرر والالم يتسترون بالدين وينادون بان تلك المبادىء التي تضرُّ مصالحهم تضرّ الدين وتهدمه . وهذا ما جرى يومئذ . فانه لما قويت سلطة ابن الانسان على الشعب ورأى الكهنة والفريسيون ان تلك المبادىء الجديدة ستهدم مبادئهم ومصالحهم اذا استمروا ساكتين عنها قاموا يفترون على صاحبها بخيانة الملة والامة والتجديف على الدين . ولكي يتمكنوا من بلوغ اربهم منه كذبوا عليه لدى والي الرومان بيلاطس بانه يقول انه « ملك اليهود وهم لا يريدون ملكًا غير قيصر » فيا اختي هل رأيتِ في زمانك قط ظلمًا كهذا الظلم ورياءً كهذا الرياء . ان قومك كانوا يكرهون الرومان

وقيصر كل الكراهة ويطلبون الى الله ان يخلع عنهم نيره ومع ذلك لم يأنفوا من تسليم واحد منهم للصلب بحجة انه يقاوم قيصر مع انه هو القائل لمن استفتاه في طاعة قيصر « اعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر »

وماذا فعل ابن الانسان يا اختي عند ما راى كل هذا الافتراء والظلم والرياء . اسمعي ماذا فعل . انه لم يغضب ولم يحقد . وفي ليلة صلبه جمع تلامذته وودّعهم وغسل اقدامهم وفي جملتها قدما جاحده وعدوه يهوذا الذي اسلمه . ولما قبضوا عليه للصلب لطموه على خده وبصقوا في وجهه ووقفوا حوله يعرضونه للناس ويستهزئون به . ومع كل ذلك بقي ساكتاً هادئاً ثم اخذوه خارج المدينة وهناك صلبوه بين لصين فسمروا يديه ورجليه واقتسموا ثيابه واجتمعوا حوله يضحكون منه . وكان قد تركه كل الناس حتى تلامذته الا النساء يا اختي فانهنّ مثال الرقة والحنان ومعرفة الجميل . ومع هذا وهذا بقي المصلوب يا اختي ساكتاً هادئاً . وهل تعلمين يا اختي اول كلمة قالها على الصليب بعد ذلك ؟ هي هذه مخاطباً الخالق « يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يصنعون » يا اختي انظري الى دموعي . فلقد مضت على هذه الحادثة اكثر من ستمائة سنة وقرأتها اكثر من ستمائة مرة ومع ذلك فانني ابكي لدى ذكرها لك الآن بكاء يفتت كبدي . ويا ما ارق قلبك يا اختي واشرف عواطفك . انني اجثو الآن باحترام لدى هذه الدموع التي اراها نازلة من عينيك لانها دليل على طهارة الانسانية في داخلك . نعم يا اختي ان كل انسان فيه ذرة من طينة الانسانية الطاهرة يتألم لهذه الحادثة التي انتصر فيها الباطل وخُذل الحق بصرف النظر عن كل مسالة دينية . والانسان الذي يتالم لها لا يتالم فقط شفقة على عذاب الصدّيق بل لمصلحة نفسه ايضاً . اننا في الارض يا اختي كلنا عرضة لاعتداء الظالمين والاشرار والمفترين . فواجب علينا ان يكون لنا مبداء يحمينا من الظلم والافتراء لنتمسك به في ظلمات هذه الحياة تمسك الغريق بخشبة في البحر . وهذا المبداء هو (العدالة) — العدالة المطلقة لكل انسان كبيراً او صغيراً قوياً او ضعيفاً مؤمناً او وثنياً اذ بفقدان العدالة المطلقة تفقد الحياة اساسها واثمن ما فيها . وكل واحد من الناس يصير حينئذ في خوف على نفسه لئلا تجعله التقادير المظلوم الذي لا بدّ من ظلمه لمصلحة طائفة او امة او دولة . وهذا ما يسمونه « بمصلحة الدولة » (١) وبهذا المبداء يا اختي صُلب الصديق اذ قال قومك في مجمعهم يوم قرروا صلبه « خير ان يموت واحد من ان تموت الامة » فيا اختي فلننبذنّ هذه القاعدة القبيحة التي تحتجّ بها

---

(١) Raison d, état

كل امة او حكومة تريد الخروج عن جادة الحق · ولنتمسك بالعدالة المطلقة كما تقدم · فان التمسك بالعدالة المطلقة هو الذي يجيز الآن مثلاً لك ولقومك ان تحتجوا على ظلم المسيحيين لكم حتى لو كان في هذا الظلم مصلحة كل الامم المسيحية · ولكن هذا التمسك بالعدالة المطلقة يوجب يا اختي الاعتراف بالجناية الهائلة التي حصلت على الجلجلة · وبدونه يكون كل تظلم رياء وكلاماً فارغاً ذاهباً في الهواء · فان الحق حق لا يتجزأ · وسواء في ذلك لدى العدالة المطلقة حق فرد او حق امة · فيا اختي فلنعترف بالجناية الهائلة التي حصلت · لنجث كانا معاً امام الصليب لانه رمز ابدي لا يفنى الى «الحق» الذي يجب ان لا يداس في العالم واذا داسه احد فانه ينتصر ابداً · لنضع شفاهنا على نقط الدم التي جرت عليه لنمحوها بالقبلات والدموع · لنبكِ بحزن وألم امام الذي تحمّل الآلام بصبر الهي بلا ضعف ولا شكوى · ولذلك قيل فيه « اذا كان موت سقراط موت رجل حكيم فموت يسوع كان موت اله» (١) وفي الحقيقة يا اختي اي بشر يستطيع تحمّل ما تحمله يسوع بقوة كقوته · اي انسان وصلت فيه الانسانية الى هذا الحد من الكمال الالهي · استير استير · هنا أرى يد الله ظاهرة كالشمس · هنا أرى الارض تتوارى مدهوشة لان اشياءها واشخاصها لا تستطيع ان تصل الى هذا الحد من الكمال · فاذا انكرنا هذا المثال الالهي الذي شاء الله اعطاءه للارض الناقصة التعيسة زعزعنا الكرة الارضية كلها · لانه بنفس العقل الذي يُنكَر به هذا المثال يُنكَر كل ما في الارض من السماء · تُنكَر التوراة حينئذٍ ويقال عنها انها اساطير قديمة جُمعت في ازمنة مختلفة بناء على شريعة منسوبة لموسى مع ان موسى لم يكن له وجود في العالم كما يقول كثيرون من اكابر العلماء (٢) تُنكر نبوءات اشعيا ودانيال وغيرهما في مجيء المسيح لانهم يقولون انها صُنفت تصنيفاً لعدم وجود رجلين باسم اشعيا ودانيال في الارض قط وان تلك النبوءات ليست الا هذر وهذيان شيوخ كانوا مغتاظين من البابليين الذين اسروهم وسبوهم الى بابل ولذلك كانوا يعللون نفوسهم في احلامهم وضيقهم بنقذ يعيد ممالكهم اليهم · تُنكر ايضاً حينئذ كل ما في الارض من آثار العناية الالهية يا استير ونصير كلنا في ظلام ابدي · فما الداعي الى كل هذه الخسارة يا اختي · وماذا نربح في مقابلتها · لا شيء · اذاً فلنعترف بقدرة الله على كل شيء · فلنعترف بافعاله الظاهرة في مخلوقاته · فليعترف كل فريق منا بفضائل ومزايا الفريق الآخر · انني يا اختي احب قومك حباً شديداً واعرف فضلهم على

---

(١) قول لجان جاك روسو في كتابه اميل

(٢) اسم موسى في الانسكلوبيذية الفرنسوية

العالم . فهم الذين كانوا مهد الدين والوحدانية . هم الذين كانوا اول من بذروا في الارض مبادىء المساواة الاجتماعية والعدل والعبادة النقيّة المنزّهـة عن عبادة الامور الحسية . وتاريخهم تاريخ الصلة الاولى بين الله والناس . ولكن هذا الاعتراف يا استير يجب ان يكون كاملاً . وكماله ان نعترف ايضاً بالسيئات بعد اعترافنا بالحسنات . فنقول ان شريعة قومك بعد التحول الجديد الذي طرأ عليها كما وصفته لك لم تعد بكافية للانسانية . لان ارتقاء الانسانية كان يستوجب شريعة ارقى منها . ولذلك جاءت الشريعة المسيحية بآدابها النقيّة وقداستها السماوية . فتشي وابحثي يا اختي اين تجدين في الكتب القديمة مبادىء كالمبادىء الانجيلية انظري يا عزيزتي ان المعطلين والوثنيين انفسهم يحنون باحترام امام هذه المبادىء بصرف النظر عن المسائل الدينية لانها ارقى صورة للكمال في هذا العالم . وكثيرون من قومك العقلاء المنصفين يعترفون بذلك . واؤكد لكِ انني سمعتُ ذلك منهم باذني . ولا تقولي ان تلك المبادىء مستمدَّة من التوراة فانّ المنصفين (١) الذين يطلبون الحقيقة المجرَّدة دون انتصار لحزب دون حزب يُثبتون انها منقطعة عما قبلها انقطاعاً حقيقياً . ومتى ثبت هذا فقد ثبت الحق في جانب واضعها والحقوقية في جانب الذين اضطهدوه من اجلها

فيا اختي استير . فلنضع كل جدال ديني جانباً . لنترك المماحكات التي لا فائدة فيها لبشر بعقول قاصرة محدودة كعقولنا . انتِ يهودية وانا مسيحي . ولكن لا انتِ يمنعك دينك ان تعترفي بالحق ولا انا يمنعني ديني ان اعترف به . والاَّ فان الاديان تكون اديان فساد لا اديان صلاح وصدق واخاء ومساواة . فانا اعجب بتاريخكم وبشعبكم وبحكمائكم وبقوة نفوس امتكم . ولكن اعجابي هذا سابق لصلب الصدّيق . واما ما بعده فانني آسف لانكم لم تجدوا في نفوسكم وحبكم القديم للصدق والحق والعدل من القوة ما يمكّنكم من الاعتراف بالخطاء الهائل الذي حدث على يدكم . فيا استير اخبريني . ايطاوعك قلبك اللطيف الرقيق بعد الآن ان تخافي من الصليب الذي هو رمز انتصار الحق وانكار الذات والآلام والمصائب الارضية . بالله قولي . ماذا طلبوا منكِ على الطريق لكي تظهري كل ذلك النفار والاباء من طلبهم . طلبوا منكِ ان ترسمي في الهواء على صدرك باشارة يدك شكلاً كشكل هذا الرمز . فلو رسمتِ هذا الشكل لما كان لذلك من معنى لديك سوى هذا « انني اذكر بهذه الاشارة ان الحق لا يُداس في الارض بل ينتصر ابدًا » ثم هل علمتِ معنى اليدين الممدودتين اللتين خفتِ منهما في الدير ؟ معناهما « يا اختي يا بنت دمي ولحمي انني متُّ وانا

«١» في جملتهم الفيلسوف رنان في كتابه تاريخ المسيح

اغفر لكم فاذا لم تشائي الايمان بي فلا اقلّ من التألم لحادثتي » — فيا استير مدي يدك بجرأة الى هاتين اليدين وخذي بهما ولا يروعنكِ امرهما . هوذا انظري . منذ طفوليتي اعتادت امي ان تعلّق في عنقي صليباً صغيراً عُلّق اياماً على الصليب الكبير القائم في الجلجلة والذي لا يزال حتى اليوم بختمه كما ختمته الملكة هيلانه ام قسطنطين * (١) فاليك هذا الصليب الصغير لنرى ألا تزالين تخافين منه . خذيه في يدك . نعم هكذا .. انظري اليه بحنو لا بخشونة .. لماذا تبكين يا اختي . هل هذه الدموع للغيظ ام للحنان . اذا كانت للغيظ فرديه اليّ . وان كانت للحنان فبالله ضعيه على شفتيك .. آه ما اشد حنان قلبك وارق عواطفك .. اسمحي لي الآن بعد وضعه على شفتيك ان اقبّله انا ايضاً .. وبذلك لا اقبّله فقط بل اقبّل ايضاً . . . . شفتيك . استير استير انني الآن في اشد حالات الهياج ولم اعد قادرًا على ضبط نفسي . فانا اصيح على مسمع منك والله يسمع كلامي و يشهد عليّ : انني احبك احبك .. بحياتك لا تنفري واسمعي .. انني منذ وقع نظري على نظرك سرت في نفسي كهربائية نفسك .. قد كنت مللتُ هذه الحياة الباردة الجافة وسئمتُ كل ما فيها لان كلّ ما فيها صغير دميم خشن دنيء اما الآن بعد أن عرفتك فقد صرتُ اراها جميلة مثلك . نعم ما اطيب العيش وما ارغد الحياة معك . ان كل الاشياء فيها تستمدّ حينئذٍ بهاءها من بهائك . وكل الوانها تصبح حمراء زرقاء بيضاء بلون خدك وعينك وعنقك . واما لون شعرك فلا تستمدّ منه ايامي شيئاً معك . فيا جميلتي ان الله ارسلك اليّ كما ارسلني اليكِ . فلا نترك الحواجز الصناعية التي يضعها البشر تحول بيني وبينك . يا استير . لا تظني انني قدّمتُ لك كل تلك المقدمة الطويلة لاحوّلك عن مذهبك . كلا يا اختي انني احترم مذهبك وكل مذهب يجد فيه صاحبه راحة وسلاماً وحقاً وفضيلة . وانما قصدتُ ان اعلمك احترام مذاهب غيرك . قصدتُ ان اريكِ انه من المضحك في الحياة ان يأكل الرؤساء الحصرم والمرؤوسون يضرسون . فالرؤساء يضعون الترتيبات والنظامات التي تفرّق بين البشر والبشر يتبعونهم مغمضي العيون كعميان يقادون الى حيث لا يعلمون . فما لنا ولهم يا استير فلندعهم في اعمالهم ومصالحهم ولنعمل نحن ايضاً ما فيه مصلحتنا . لنضع اديان البشر جانباً في مكان مقدّس محترَم ولنجتمع على دين جديد يقبل كل الاديان الفاضلة ولا يرفض احدها . وهذا الدين هو دين العدالة التي تقدّم ذكرها والحق والمحبة والصفح للجميع (٢) . ونحن الصغار المرؤوسون المظلومون بهذه الحياة في اشد حاجة الى اقامة

« ١ درابيرون « ٢ هنا يظهر في كلام ايليا اثر تعليم الراهب كما ورد في ختام خطبته على الجبل

« الحق والعدالة والمحبة » مقام كل شيء · فيا استير ضعي يدي في يدك لنعيش بسلام في هذه الارض على هذا الدين الجديد الذي تحترم فيه كل الاديان · فانتِ تحترمين مذهبي كما أحترم انا مذهبك ونترك الزمان يفعل فعله · واذا اقتضت الحال عرض مسألتنا على البطريرك فلا اطلب منك شيئًا اكثر من تقبيل هذا الصليب الصغير امامه كما قبلته الآن امامي »

هذا ما خاطب به ايليا استير لدى قبر الراهب ميخائيل · وكانت استير مصغية اليه اشد اصغاء في اثناء كلامه · وان القلم ليعجز عن وصف ما قام حينئذٍ في نفسها

الفصل الثالث عشر

حلم استير

في ان للمجاذيب قلوبًا تتحرك ايضًا

ولما رجعت استير من سياحتها في المزرعة مع ايليا كانت صفراء اللون بعد الاحمرار مبهوتة تفكّر كثيرًا وتتنهد كثيرًا · وفي تلك الليلة لم تتناول طعامًا ولا نطقت بكلمة · وكان الشيخ سليمان يعجب من هذه الحالة ولكنّ ايليا كان يراقبها مراقبة شديدة ليعلم ما وراءها لانه كان على ثقة من انها نتيجة حديثه معها

فكأنّ هذا الحديث هدم الحواجز التي كانت في نفسها فاشتغلت هذه النفس بالخرائب التي حصلت فيها · وهذا شأن الهدم اذا لم يقرن بالبناء · وقلّما يُبنى على انقاض الاخربة المهدومة

ولما هبط الظلام استأذنت استير في الدخول الى غرفتها للنوم طلبًا للراحة · وقبل ان دخلت اليها ألقت في خلال كآبتها وانقباضها نظرة الى ايليا وابتسمت له · فطار صواب ايليا لهذا الابتسام الملائكي وقال في نفسه لعله جواب ايجابيّ عما تقدّم

واتفق ان غرفة ايليا كانت بجانب غرفة استير · فلما مضى الهزيع الاول من الليل دخل ايليا الى غرفته ايضًا · وبعد ان خلع ملابسه ورقد في فراشه سمع تقلُّب استير في فراشها في غرفتها · فعلم انها لم ترقد بعد · فبقي ايليا ساهرًا في فراشه لا يزور الكرى جفنيه حتى سكنت حركات استير ورقدت · وكان ذلك بعد منتصف الليل · فالوى ايليا حينئذٍ رأسه على وسادته وتنهّد تنهدًا من صميم قلبه ثم استسلم الى الكرى فطارت روحه الى عالم الاحلام لتلتقي بروح استير التي سبقتها اليه

وكانت عين ايليا آخر عين رقدت في المزرعة في تلك الليلة

الا ان عيناً اخرى من غير المزرعة كانت حينئذ في ظلمة الليلة ترصد المزرعة من خارج وتحوم حولها كما يحوم النسر على الفريسة . ولذلك لم تمر نصف ساعة بعد منتصف الليل حتى كان شبح يتسلّق جدار المزرعة ويهبط اليها

وكأنّ هذا الشبح كان يطلب في المزرعة غرضاً معلوماً لانه لم يهبط الى ارضها حتى سار متلصصاً نحو غرفة استير ووقف على نافذتها المشرفة على فناء المزرعة

وهناك بقي جامداً هامداً يصغي بكل جوانحه

لكن هذا الشبح لم يكد يستقر في مكانه وراء النافذة حتى علا من غرفة استير صراخ وبكاء . فاجفل الشبح وصار ينظر حوله خوفاً من ان يفاجئه احد . ثم اشتدّ البكاء مقروناً بزفير وشهيق متصلين . فيظهر ان ايليا انتبه على صوت بكاء استير فهبّ من رقاده مهرولاً وخرج من باب غرف المزرعة قاصداً نافذة استير الخارجية ليتنصت عليها . فما كاد يصل الى النافذة حتى لمح الشبح الاول الذي كان واقفاً هناك

وكانت زوبعة امس قد سكنت والريح هادئة والظلام دامس . فهجم ايليا بشجاعة نحو الشبح ولا سلاح في يده غير قبضته . ولما وصل اليه اخذ بيديه اخذاً شديداً وصاح به . من انت (١) فضحك حينئذ الشبح ضحكاً شديداً واجاب : اما عرفتني يا كبيري ايليا . فحينئذ عبس ايليا واجاب : وماذا تصنع هنا يا ارميا

اما ارميا وهو عين الشبح المذكور فانه زاد ضحكاً واجاب : انا اصنع كما تصنع انت . فغضب ايليا حينئذٍ وقال : يا ارميا ان نزولك الى المزرعة تحت جنح الدجى امر غير حسن . ثم تركه ايليا ودخل فايقظ الشيخ سليمان واخبره ببكاء استير في الليل ووجود ارميا في المزرعة

اما الشيخ سليمان فلم يبال بهبوط ارميا الى المزرعة في تلك الليلة لان ايليا لم يوقفه على سبب ذلك . ولهذا لم يهتمّ الا بامر استير . فذهب في الحال ونبه بناته . وبعد ثلاث دقائق اجتمعوا في غرفة استير يؤانسونها

اما استير فانها لما وقع نظرها على ايليا زاد بكاؤها حتى كاد يُغمى عليها . وكان ارميا من خارج يسمع صوتها . فقال في نفسه : اذا لم تكن ذلك الليلة فغداً

«١» قال روسو في كتابه «اميل» اذا تعرّض لك في ظلام الليل الدامس شخص على حين فجأة فاول ما يجب عليك دفاعاً عن نفسك ان تقبض عليه من جانب يديه وان تضغط عليه بكل قوتك وتسأله من هو وماذا يريد ولا تتركه الاّ بعد طمأنينة نفسك

ولما سألت البنات استير عن سبب بكائها اجابتهن انه حلم مريع . ولكنها لم تقص لهن شيئاً من هذا الحلم . وفي الحقيقة انه كان مؤثراً . فان استير لم تكد ترقد حتى رأت نفسها في كنيسة جاثية امام الصليب وهي تقول « انني اكفر يا سيدي عن جناية امتي » لكنها لم تلبث ان رات امها العجوز المقعدة قد دخلت الى الكنيسة ركضاً لانها كانت تفتش عنها . واذ ابصرتها صاحت بها « أهكذا تتركيننا يا استير . اهذه ثمرة اتعابنا فيكِ » فانتبهت استير مذعورة مرتعدة واندفعت تبكي بكاء شديداً دون ان تمالك نفسها كما يحدث كثيراً للذين يرون احلاماً مؤلمة

وكانت حينئذٍ قد دخلت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبينما كان الفتيات يسكنَّ روع استير في داخل الغرفة جاء ارميا وطلب الانفراد بايليا . فخرج اليه ايليا عابساً . فأخذه ارميا الى جانب في ساحة المزرعة وابتدأ الحديث بقوله : يا كيريه ايليا على اي شيء عزمتَ الآن . فدهش ايليا واجاب اي شيء تريد . فقال ارميا المعتوه انت تعلم ان الصيد لمن صاده . وانا وانت قد اصطدنا صيداً فلماذا تنفرد به انت وحدك . فحمق ايليا وصاح به ما معنى كلامك هذا . فضحك ارميا ضحكة شديدة واجاب : انظرتَ يا كيريه ايليا . انه لا يغضب الا المخطىء . واما الذي يكون ذا حق مثلي فانه يكون هادئاً دائماً . واسمع لافسر لك كلامي . يا كيريه ايليا . ضع يدك على صدري فتعلم ان لي قلباً مثل قلبك . وهو يتحرك ايضاً كما يتحرك قلبك . فانا احب كما انت تحب . واول ما وقع نظري على هذه الفتاة الوثنية احببتها من صميم قلبي . وصرت ارى من واجباتي هدايتها الى الايمان الحقيقي . ثم لما اصطدناها معاً على الطريق ليلة امس صار لي حق فيها . وانتَ ايضاً لك فيها حق لا يُنكر . فماذا تريد الآن هل تبيعني حقك ام تشتري حقي

فعند هذا الكلام تحوَّل غضب ايليا الى ضحك رغماً عنه ولكنه بقي يظهر الجدَّ فقال ومن اخبرك انني احبها ثم ما هي طريقة هذا البيع والشراء

فقهقه ارميا واجاب : اما حبك فقد عرفته . واما البيع والشراء فله ثلاث طرق . الاولى ان نقترع على الفتاة فالذي يربحها تكون له . والثانية ان نتناظر في الدين فالذي يغلب رفيقه تكون من نصيبه . والثالثة ان تكون الفتاة للذي يتنازل للثاني عن وظيفته . فانا وظيفتي حراسة ورثاء اوروشليم على الجبل وانت وظيفتك رئاسة هذه المزرعة . فاما ان تبقى في وظيفتك وتكون الفتاة لي او تأخذ وظيفتي على الجبل تاركاً المزرعة لي فتكون الفتاة لك

فهزّ ايليا حينئذٍ رأسه وعجب من نفسه لاصغائه لكلام هذا المعتوه . فاجابه باستخفاف ظاهر في وجهه : سنتباحث في هذا ايها النبي ارميا . ثم تركه وعاد الى منازل المزرعة

اما ارميا فانه تامل فيه وهو عائد عنه وقال في نفسه : انك تضحك مني ولكني اقسم بالله انني ساحرمك اياها

وكان الهدوّ قد عاد الى المزرعة ودخل كل واحد الى غرفته للرقاد بقيّة الليل . وكذلك ارميا دخل الى احدى الغرف لينام . ولكنه كان ينام بعين و يسهر بالاخرى وهو يقول في نفسه ضاحكاً ضحك المجاذيب « ان ايليا سيخسر الفتاة من ذات الباب الذي ربحها منه »

الفصل الرابع عشر

❊ الكتاب ❊

في ان عواطف المراة قد تنقلب بغتة وتفيض دفعة واحدة

وفي صبيحة اليوم التالي استغرق ايليا في الرقاد ولم ينهض باكرًا . الاّ انّه وهو في الفراش سمع ضوضاء شديدة وحركة اجتماع . فنهض من فراشه ليستخبر الخبر . فعلم حينئذٍ ما جمّد دمه في عروقه وجعله يثب عن الارض ذراعًا . وهو ان استير قد فرّت من المزرعة في الليل و تركت له على مائدتها كتابًا بخط يدها . فصاح ايليا في الحال مناديًا : ارميا . فقيل له انه لم يطلع عليه الصباح في المزرعة . فصاح ايليا حينئذٍ لقد فرّ بها ابن اللئام . ثم عمد الى كتاب استير ففتحه بيد مرتجفة وقلب ملتهب وقراء فيه ما يأتي

« يا صديقي ايليا

« أرجو منك أنْ تسامحني لتركي المزرعة بدون علمك . واشفق عليّ لانني في غاية التعاسة . انني لم اعد اطيق الاقامة في المكان الذي نقيم فيه يا ايليا ولذلك افرّ منك . فانسني ولا تتذكّرني بعد الآن . ولا تحاول كشف مكاني فانك لا تعلم به ابدًا . ان بيني وبينك هاوية عظيمة . فاذا قطعتها اليك صرتُ تعيسةً لفراقي دين ابائي واجدادي واذا بقيتُ بجانبك بعيدةً عنك كنتُ اشد تعاسةً وعذابًا لانني اخاف ضعفي . فياصديقي ساعدني على نسيانك و بعدي عنك بنسياني و بعدك عني . وبحياة عينيك يا ايليا لا تخالف ارادتي هذه . انا اعلم ما تعانيه لاتباعها ولكن كن على ثقة من ان كل عنائك لا يساوي

شيئاً من العناء والعذاب الذي وجدته حين فراقي هذا المكان . فانني خرجتُ منه باكيةً .
وهوذا يدي ترتجف وانا اكتب لك . وكن مطمئناً من نحوي فانني لم اذهب وحدي بل ان
صاحبك الذي تسميه « ارميا » يصحبني . وسيوصلني الى حيث اشاء . الوداع الى الابد .
كن سعيداً بعدي يا ايليا وحبَّ غيري . اما انا فساذكرك ما عشتُ . لم اكنْ لاظن قبل
معرفتك انه يوجد بين البشر الغير الاسرائيليين قومٌ باخلاقك وافكارك . وثق يا ايليا ان
سلوكك معي اثَّر فيَّ اكثر من خطبتك نعم صرت اعلم اننا نحن البشر كلنا اخوان ولكن ما
الحيلة بالعادات والتقاليد . ربما كان لي قوة على خرقها لو استسلمتُ الى نفسي ولكنني اذا خرقتها
وجاريتك قتلتُ ابي وامي . فانَّ روح امي تجلَّت لي بالحلم يا ايليا وارجعتني بكلمة واحدة
الى الطريق التي حدتُ عنها . وانا لا اخالف امي ولو جنيتُ على نفسي . ولا ريب عندي
انك بعد هذا القول تثني عليَّ بدل أن تلومني . يا ايليا ان امهاتناهنَّ ارواحنا الحقيقية
التي خرجنا منها . وقد كوَّنَّنا وربيننا بالدماء والدموع . فمهما صنعنا ومهما انكرنا ذواتنا
من اجلهنَّ فاننا لا نفيهنَّ الدَّين الذي لهنَّ علينا . وفضلاً عن ذلك يا ايليا فانك تعلم ان
المعتقدات المجبولة بلحم الانسان وعظامه لا تتغيَّر بالوعظ والكلام . فان معتقدي يبقى قائماً
في وجه معتقدك الى الابد . فيكون تنغيص عيشك على يدي بدل مسرتك . فدعني اذاً اوشاني .
اعتبرني كحلم ذهبي مرَّ في مخيلتك في احدى ليالي الصيف المضطربة التي يشتدُّ فيها
اضطراب المنفردين . احسبني كعروس الجنِّ التي تظهر لبعض البشر في بعض الليالي
لتعذيبهم بالشوق والوجد . ولكن يا ايليا اغفر لي فانني لم ارد تعذيبك عمداً . والدليل على
ذلك انني شريكتك في هذا العذاب . انظر الى هذا السطر فانك تجد فيه اثر دمعة نزلت
من عيني وانا اكتب اليك . وكفى ذلك برهاناً على صدق عواطفي من نحوك . نعم
يا عزيزي ايليا انني صرتُ ... اميل اليك كما ملتَ لي .. وأخجل ان اقول احبك لان
هذه الكلمة تحرق يدي وفمي .. ويخيَّل لي انني اذا سطرتها على الورق فانه يلتهب بها ايضاً .
ولكن يا عزيزي ما قيمة الحب والميل اذا كان الانسان يضحّي من اجلهما « الواجب » والضمير .
انه حينئذ يشتري راحة صغيرة بتعب كبير . ولذة خفيفة بالم شديد . فيا ايليا انت تحبني ولكن كن
متيقناً انك اذا تركتني وحدتَ من طريقي تحسن اليَّ والى نفسك اضعاف حبك لي . فانه حينئذ
يجوز لضميرك ان يقول انك لم تكن لي عذاباً واضطهاداً ونقمة دائمة . واذا كانت المسيحية
هي ترك الاساءة كما قلتَ فبالله اذكر الآن انك مسيحي ... ايليا ايليا . انني اردتُ ان
اطلعك على حقيقة نفسي في هذا الكتاب لتعلم انني لستُ بدون قلب ولا انا بجاحدة

للجميل . فعذراً عما اصرّح لك به هنا . اسمع . انني اكاد اندم لطلبي منك ان تحيد من طريقي . وها انني اكاد امزّق هذا الكتاب وابقى في المزرعة بجانبك الى ما شاء الله . . ولكن صوت دمي وصوت امي يصيحان دائماً في اذني . ويخيّل لي انني ارى في هذا الظلام الدامس يد امي تشير الى باب المزرعة تدلني على طريقي . فيا ايليا صفحاً وحلاً ولا تتبعني . وان تبعتني فانك تقتل نفسك وتقتلني . ذلك انني لا استطيع ان اراك بعد الآن الا وانطرح بين يديك . ولكن ثق انني بعد هذا الانطراح اموت في لحظة واحدة . آه انك لم تعرف حب بنات اليهود ولا قوة نفوسهن . فهنيئاً لك لانك لا تُبلى بهذه النار الآكلة . فاختر الآن يا عزيزي بين حياتي بعيدة عنك وبين موتي معك . واذا متُّ انا فلا اسف عليَّ لانني لستُ الا فتاة مسكينة خانها دهرها وربط نفسها بنفس لا سبيل لها للاقتران بها . اما انتَ فاحرص على حياتك لانها ثمينة لقومك . وكن في بلادنا التعيسة رسول المبادىء والافكار المعتدلة التي بسطتها فانه متى سادت هذه المبادىء بين قومي وقومك لم يبقَ سبيل لشقاء نفسين كنفسينا

« يا عزيزي ايليا . لا اوصيك الا بشيء واحد وهو ان تذكرني ببشاشة وسرور امام المرأة السعيدة التي ستكون شريكتك في مستقبل حياتك . ومتى اتاك طفل فوصيتي امام الله والناس وصيةً اطالبك بها في اليوم الاخير ان يكون اول ما تعلّمه اياه النطق باسمي . . بل اسمع يا عزيزي . . سمِّ باسم « استير » اول ابنة يرزقك الله اياها . واذا وضعتَ ذلك نصب عينيك . . . فلا ريب عندي في ان الابنة تجيء مثلي . ومن يعلم المستقبل يا عزيزي . . فانني ربما اكون متُّ في ذلك الزمان ، وحينئذ يكون الذّ واشهى شيء عند روحي الاتحاد بشيء منك والسكنى في جسم ابنتك

« يا عزيزي ايليا انسني ما استطعتَ . ولكن اذا كنتَ سائراً بين البساتين في مزرعتك ورأيت يمامة قادمة ترفرف حولك فاعلم انها رسول من قِبلي يحمل اليك تحيتي . واذا نفر من امامك في احد الحقول عصفور جميل وحلّق في الجو مغرّداً فاعلم انه رقيب مني عليك ارسلته ليجيئني باخبارك . واذا داعبت الريح شعرك في مرورها عليك مطيّبةً فلا تظن ان طيبها ماخوذ من شذا الازهار بل هو مرسل معها اليك من استير عزيزتك . واذا رفّت عينك يوماً فاعلم ان عيني تنظر اليك مع غيبتك . واذا طنّت اذنك يوماً فاعلم انني اتحدث عنك واناجي نفسي بذكرك

« وهذا وحده يدلك يا ايليا على انني لا انساك ابداً ما بقي لي من الحياة بقية .

فتعزَّ ياعزيزي عن فقدي بصدق وثبات عواطفي واندب معي مسرّات البشر وآمالهم الحلوة التي يجترفها تيار الحياة بلا شفقة على الاحياء ولامبالاة بعذاباتهم ليحملها الى هاوية النسيان الهائلة

« استير »

حاشية— أرجو منك ان تنثر من قِبلي في كل يوم شيئًا من الزهر على قبر الراهب ميخائيل

فليتصوّر القارئ حالة ايليا بعد قراءته هذا الكتاب. اما نحن فنضرب صفحًا عن وصفها و بعد ان ثاب الى ايليا رشده كان اول ما طلبه فرسًا مسرجًا . فلما درى بذلك الشيخ سليمان جاءه مستخبرًا فاخبره ايليا ان ارميا اختطف الفتاة وذهب بها . فاطرق الشيخ سليمان ثم قال اذهب واخطف روحه . واذا لم تجده تحت الارزة ولا في الدير فابحث عنه في بيت لحم ومغارة الرعاة القريبة منها* فانه يتردد كثيرًا الى هناك :

فركب ايليا وسار ينشد ضالّته . وكان اذا مرّ بالطرق التي وقف فيها مع استير اول امس يقف عليها مبهوتًا متذكرًا . وما زال سائرًا حتى اشرف على كوخ ارميا تحت الارزة فلم يجد فيه احدًا . فقصد دير العذراء وسأل خدمته عن ارميا وفتاة معه فاجابوه انهم لم يروا احدًا . وكان ايليا يرى من قمة الجبل حركات العرب حول سور المدينة فوقف متحيرًا في ماذا يصنع . هل يهبط الى المدينة و يستأذن العرب في الدخول اليها لمقابلة ابي استير وامها وسؤالهما عنها ام يذهب الى بيت لحم . لا سيما وانه كان خائفًا على الفتاة من جنون ارميا . ولكنه بينما كان يفكر في هذين الامرين واذا بشرذمة من فرسان العرب هاجمة على الجبل لارتياد ضواحي المدينة وطلب الزاد والميرة منها. فلما ابصرهم ايليا اصفرّ لونه وجمد على فرسه في مكانه . اما الفرسان فلما رأوا ذلك الفارس على الجبل قصدوه جميعًا . فشاهدهم ايليا يهجمون عليه دون ان يفرّ من وجوههم فرارًا من عار الفرار . فقبض عليه فرسان العرب وارسلوه اسيرًا الى قائدهم لظنهم انه رسول او جاسوس . وهكذا اصبح ايليا المسكين في همّين . همّ استير وهمّ نفسه

الفصل الخامس عشر

﴿ حصر بيت المقدس ﴾

اقتراح الاسلام او الجزية او السيف قبل الشروع في القتال · استشارة ابي عبيدة في القتال · حديث نساء العرب عن فضائل بيت المقدس · الزحف والشروع في القتال · مقدم ابي عبيدة واضطراب المدينة

فلنترك ايليا الآن اسيرًا في خيام العرب ولنعد الى المدينة وحاصريها لنرى ماذا حدث فيها

« اقام جند العرب على بيت المقدس ثلاثة ايام لا يبارزهم حرب ولا ينظرون رسولاً يأتي اليهم ولا يكلمهم احد من اهلها · الا ان اهل بيت المقدس حصنوا اسوارها بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخر » * (١) « فلما كان اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة (٢) « ايها الامير · كأنّ هؤلاء القوم صمّ فلا يسمعون او بكم فلا ينطقون او عمي فلا يبصرون · ازحفوا بنا اليهم · فلما كان اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان اول من ركب من المسلمين من الامراء لسؤال اهل بيت المقدس يزيد بن ابي سفيان (٣) فشهر سلاحه وجعل يدنو من سور المدينة وقد اخذ معه ترجمانًا (يعرف اليونانية والعربية) ليبلغه عنهم ما يقولون · فوقف بازاء السور بحيث يسمعون خطابه وهم صامتون وقال لترجمانه « قل لهم امير العرب يقول لكم ماذا تقولون في اجابة الدعوة الى الاسلام والحق وكلمة الاخلاص وهي كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم · وان ابيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو اعظم منكم عدةً واشد منكم · وان ابيتم هاتين الحالتين حلّ بكم البوار وكان مصيركم الى النار » * فتقدم الترجمان اليهم وسالهم من المخاطب عنكم * فكلمه قس عليه مدراع الشعر * وقال ماذا تريد · فابلغهم الترجمان ان امير العرب يدعوهم الى احدى هذه الخصال الثلاث : اما الدخول في الاسلام او اداء

(١) كل ما وضع في هذا الفصل بين قوسين ووراءها نجمة * فهو نص حرفي للواقدي

« ٢ » القائد الثاني في الترتيب المذكور في الصفحة ٣٢

« ٣ » القائد الاول في الترتيب المذكور انفًا

الجزية واما السيف . فبلّغ القس مَنْ وراءه ما قال الترجمان وكان فوق السور جمع غفير من الروم وراءهم والي المدينة وقائد الحامية والبطريرك . فضحك بعضهم ثم عادوا اليه بالجواب انهم يختارون السيف لانه خير الحاكمين * فعاد يزيد بن ابي سفيان الى معسكر العرب واخبر الامراء بجوابهم . ثم قيل لهم « ما انتظاركم بهم . فقالوا ان الامير ابا عبيدة ما امرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم . ولكن نكتب الى امين الامة (يعني ابا عبيدة) فان امرنا بالزحف زحفنا . فكتب يزيد بن ابي سفيان الى ابي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر » *

وفي ليلة ارسال هذا الكتاب كان بين خيام جند يزيد بن ابي سفيان خيمة غاصة بنساء العرب وهنّ مجتمعات حول فتاة غريبة في نحو العشرين من العمر وكانت اسيرة في الخيمة وكان النساء يخاطبنها بالعربية وهي لا تفهم لغتهن . فلما اعياهنّ امرها قالت احداهنّ وكانت هي خولة بنت الازور الفارسة المشهورة اخت ضرار بن الازور الفارس المعروف : هل ترين يا اخواتي ان ابا عبيدة ينهانا عن قتال اهل بيت المقدس حرمةً للمكان . والله انني لابد ان اكون اول المقاتلين والداخلين الى بلد الانبياء . فقالت خولة بنت ثعلبة الانصارية : هل نظرتِ قبل اليوم صخرة بيت المقدس يا خولة . فاجابت خولة وهل دخلنا بيت المقدس قبل اليوم . فقالت كعوب ابنة مالك بن عاصم وهل سمعتِ بصفتها . فاجابت خولة « كانت صخرة بيت المقدس في السماء اثني عشر ميلاً وكان اهل اريحا يستظلون بظلها واهل عمواس مثل ذلك . وكان عليها ياقوتة حمراء تضيء لاهل البلقاء وكان يغزل في ضوئها اهل البلقاء » (١) فدهش النساء من ذلك وقالت لبنى ابنة جرير الحميرية . وهل اذا دخلنا المدينة غدًا نرى المسجد ومربط البراق . فاجابت خولة مربط البراق تحت ركن المسجد (٢) اما المسجد فخربٌ وسناخذ المدينة بحول الله وقوته ونعيد بناءه وان أغاظ ذلك الروم واليهود . فلما لفظت خولة كلمة « اليهود » ظهرت البغتة على وجه الفتاة كانها كانت تفهم كلمة « يهود » العربية . ولكن النساء لم يلتفتن اليها

فساءلت امراة اخرى وهي سلمى ابنة هاشم (٣) اصحيح يا خولة ان كل الناس سيبعثون

---

١ « العقد الفريد . وغني عن البيان ان هذه الاقوال من آراء العوام وان وردت في العقد

٢ العقد الفريد

٣ النساء العربيات المذكورات هنا كنّ في جيش الشام وقد حضرن وقعة اليرموك المشهورة وكن فيها من اكبر اسباب نصرة المسلمين وفوزهم لانهن رددن جيشهم بعد انهزامه وذلك ان بعضهن كن يحملن

في بيت المقدس · فاجابت خولة اجل يا سلمى « ينصب الصراط ببيت المقدس ويؤتى بجهنم نعوذ بالله منها الى بيت المقدس وتزف الجنة يوم القيامة مثل العروس الى بيت المقدس · وتزف الكعبة فيجاء بها الى بيت المقدس ويقال لها : مرحباً بالزائرة والمزورة · ويزف الحجر الاسود الى بيت المقدس والحجر يومئذ اعظم من جبل ابي قبيس »(١) فقالت نعم ابنة فياض يا اخواتي فما افضل بيت المقدس · فقالت خولة اجل يا نعم ولها فضائل اخرى ايضاً « منها ان الله رفع نبيه الى السماء من بيت المقدس ورفع عيسى من بيت المقدس ويغلب المسيح الدجال على الارض كلها الا بيت المقدس والانبياء كلهم من بيت المقدس والابدال كلهم من بيت المقدس واوصى آدم وموسى ويوسف وجميع انبياء بني اسرائيل ان يدفنوا في بيت المقدس (٢)

وهكذا لم يكن للمسلمين والمسلمات من حديث في تلك الليلة غير التشوّق لفتح بيت المقدس والتحدث بآثارها

فبعد مدة وردهم جواب ابي عبيدة « يامرهم بالزحف وانه واصل في اثر الكتاب » * فاشرقت وجوههم * « وقد باتوا تلك الليلة كانهم ينتظرون قادماً يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال اهل بيت المقدس وكل امير يريد ان يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر الى آثار الانبياء . فلما اضاء الفجر أذّن وصلت الناس صلاة الفجر فقرأ يزيد لاصحابه « يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا » * (الآية) ومن غرائب الاتفاق ان باقي امراء الجند قرءوا في جندهم هذه الآية ايضاً فكأنهم كانوا على ميعاد واحد (٣) وبعد ذلك نادوا « النفير النفير يا خيل الله اركبي » * وبرزوا للقتال

اولادهن على ايديهن ويستقبلن المنهزمين فيحرضنهم على القتال عنهن وبعضهن كن يرددن الخيل بعمد يضربن وجوهها بها · وبما ان هذه الوقعة كانت مفتاح ابواب الشام فالفضل فيها يكون راجعاً للنساء العربيات الباسلات · وكان بعضهن يحارب في الجيش كخولة بنت الازور المذكورة آنفاً وعفيرة بنت غفار التي قال فيها الواقدي انها كانت من « المترجلات الباذلات » وهي التي حرّضت النساء على ردّ الرجال في هذه الوقعة كما تقدم · وروى الواقدي عن العباس بن سهل الساعدي الذي حضر هذه الوقعة انه قال يصف حملة المسلمين يومئذ على الروم بعد الهزيمة , ونظرت الى النساء وقد حملن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبايديهن العمد بين ارجل الخيل ولقد رايت منهن امراة وقد اقبلت الى علج عظيم وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت حتى نكسته عن جواده وقتلته ,

١ العقد الفريد وهو ايضاً من آراء العوام يقول « يقال » انها جرت على السنتهم   ٢ العقد الفريد   ٣ الواقدي

وكان اهل بيت المقدس قد استخفوا بالعرب ونبالهم ولذلك كانوا يتعرضون لها في بادئ الامر * وكان اول من برز للقتال حمير ونبالة اليمن * فاخذ الروم يرشقونهم بالنشاب من عن الاسوار فتفتك بهم والنبالة ترشق الروم بالنبال . فلما راى الروم ان النبال كانت تصيب رجالهم « فيتهافتون من سورهم كالغنم احترزوا منه (بعد اهمالهم امره) وستروا السور بالجحف والجلود وبما يرد النبل »* الا ان حامية المدينة كانت مع ذلك تحارب بجراءة وشجاعة وبشاشة . وهكذا مر اليوم الاول من القتال على غير طائل

« ولما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون فرضهم واخذوا في اصلاح شانهم وعشائهم . فلما فرغوا من ذلك اوقدوا النيران واستكثروا منها لان الحطب كان عندهم كثيرًا . فبقي قوم يصلون وقوم يقرؤن وقوم يتضرعون وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل »*وفي اليوم التالي برزوا للقتال ايضًا وحامية المدينة يظهرون الفرح ويضحكون فمر هذا اليوم كاليوم الاول وهكذا الى اليوم العاشر* على غير طائل

وفي اليوم الحادي عشر اشرفت على بيت المقدس راية ابي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها الفرسان وقد احدقوا باميرهم ابي عبيدة وخالد بن الوليد عن يمينه وعبد الرحمن بن ابي بكر عن يساره وجاءت النساء والاموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فاجابتهم القبائل وارتجت المدينة لهذا الاستقبال الحافل * فضعفت قلوب المحصورين وقويت قلوب الحاصرين بهذا المدد العظيم الجديد . فذهب وجوه الجند والمدينة الى مقام البطريرك قرب كنيسة القيامة (١) ليتشاوروا في امرهم ويبلغوه مقدم امير العرب . فلما سمع البطريرك بهذا بُغت بغتة شديدة لانه حسب ان الامير الذي قدم هو الخليفة عمر بن الخطاب وكان يعلم ان الخليفة لا يقصد فتح بلد حتى يكون كل العرب وراءه . ولكنه لما علم ان الذي قدم هو ابو عبيدة عامل الشام سكّن خاطر الناس وشجّع قلوبهم بقرب وصول المدد اليهم فعادوا الى الحرب بالجراءة اللازمة (٢)

---

(١) في تاريخ الواقدي تارة « الغمامة » وطورًا « القمامة » وآونة « الخمامة » وهو خطأ في النسخ ظاهر . وكنيسة القيامة اعظم كنائس القدس اذ فيها قبر المسيح وسميت كنيسة القيامة نسبة الى قيامة المسيح من القبر بعد صلبه

(٢) الرواية التي رواها الواقدي هنا مخالفة للعقل بعيدة التصديق ولذلك لم نعبأ بها واوّلناها هنا هذا التاويل

الفصل السادس عشر

بين استير وارميا وايليا

في اثناء الحصار

الجاسوس وابو عبيدة · حادثة مضحكة حدثت لارميا · حيلة لارميا لم تنجح · امبراطور لا اخو امبراطور فارس العرب عمرو بن معدي كرب وايليا · حيلة لارميا نجحت نجاحاً عظيماً

فاقام ابو عبيدة نحو اربعة اشهر على حصر بيت المقدس على هذا المنوال · وكان جنده لانكشافهم امام اسوار عدوهم يلاقون بلاء اشد من بلاء المحصورين ولم تغن عنهم دروقهم شيئاً · وكان الوقت وقت مطر و برد وثلج فعانى الفريقان من ذلك ما عانياه حتى سئما الحرب والقتال *

وفي ذات يوم بينما كان ابو عبيدة في مضربه ورحى القتال دائرة حول المدينة واذا برجل يقصده و يسائل الناس عنه · وكان وراءه عجوز على حمار · فلما وصل الى مضرب الامير انزل العجوز الى الارض وفرش لها رداء لتجلس عليه ثم دخل على الامير فسلم وناوله كتاباً صغيراً كان مخبوءاً في ثيابه · فلما قرأه ابو عبيدة بغت وصاح به : انت يوسف · فقال الرجل نعم ايها الامير · فقال اجلس وقص عليَّ ما تعلم فقد كتب اليَّ في شانك منذ اشهر ولماذا لم تفد علينا قبل الآن · فاجاب الرجل لانني لم اجد قبل الآن عذراً يمكنني من الخروج من المدينة لملاقاتكم لان الروم دروا بامري · فقال ابو عبيدة ضاحكاً وهل قبضوا عليك · فغص الرجل بدمعه وقال قبضوا عليَّ وعلى ابنتي فاطلقوني واسروا ابنتي في ديرلهم · وامس زرت هذا الدير بامر بطريركهم فعلمت منه ان ابنتي فرت من الدير ولم يوقف لها على اثر · فقال ابو عبيدة وكيف تركوك تخرج الآن من المدينة · فقال الرجل · ان قائد الجند دعاني اليه بامر البطريرك واشارته فاظهر لي اللطف والمجاملة ثم عهد اليَّ ان اجيئكم واظهر انني فار منهم اليكم و بعد ذلك اخبركم بقوتهم وعزمهم على القتال وقرب وصول المدد اليهم حتى اوهن عزائمكم فتبدأوا بطلب الصلح منهم · و يظهر لي ان غرضهم من ذلك هو الصلح لياس البطريرك من ورود مدد الى المدينة من ملكهم

فاطرق ابو عبيدة يفكر ثم ساله : لقد مرَّ على قتالنا لهم بضعة اشهر بدون جدوى فما ظنك لو حاربناهم شهرين ايضاً · فتامل الرجل هنيهة ثم اجاب · هؤلاء النصارى لا يؤثر فيهم شيء مثل الضغط عليهم : فشد عليهم الوثاق ايها الامير ولا تقبل منهم الصلح اذ انه

فائدة لكم فيه . اما اذا اخذتم المدينة فتحًا بالسيف فانكم تغنمون كنوزهم واموالهم

فنظر حينئذ ابو عبيدة الى ذلك الرجل وقال في نفسه ان البغض بين هذين الفريقين من اهل الكتاب — اليهود والنصارى — لا يزول ابدًا . وكان ضرار ابن الازور عائدًا حينئذٍ من ساحة القتال لحاجة له فناداه الامير وقال له : خذ هذا الرجل الى خيمتك واصلح حاله في هذا الشتاء . فسار الرجل والعجوز وراء ضرار الى خيمته

وما كاد الثلاثة يصلون الى خيمة ضرار حتى سمعوا من الخيمة بكاء فقال ضرار لرفيقه اتعرف لغة الروم يا رجل فاجاب الرجل بالعربية وكان يعرفها كما تقدم . نعم اعرفها ايها الفارس الهمام فايّ امر تريد . فقال ضرار عندي فتاة من الروم اسرتها منذ مدّة على طريق مهد عيسى (١) مع رومي مجنون وهي لا تزال تبكي ليلاً ونهارًا . وقد احبّتها اختي خولة وعزمتْ على ادخالها في الاسلام لتكون لي زوجًا ولكنها لا نستطيع مخاطبتها لان الفتاة لا تفهم لغتنا

فقال الرجل مفكرًا سأراها الساعة . ثم بدأ يرطن بلغته مع العجوز فاستوت العجوز حينئذٍ على حمارها وقد ابرقت عيناها دهشةً وسار الجميع بخطى واسعة الى الخيمة والعجوز تتطاول نحوها

ولكن ما كاد الثلاثة يشرفون على الخيمة ويلقون نظرة الى داخلها حتى صاحت العجوز صيحة اجفل لها النساء والاولاد الذين كانوا في الخيام القريبة . وهرع الرجل والعجوز نحو الفتاة الاسيرة في الخيمة يقبّلانها ونقبلها باكين جميعاً

فعلم ضرار حينئذ ان هذه الفتاة نسيبة للشيخ والعجوز

اما القارئ، فانه ولا شكّ علم انّ الفتاة هي استير والرجل ابوها والعجوز امها

اما ضرار فانه لما علم من الشيخ لبي استير ان الفتاة ابنته أُسقط في يده لانه كان يُطمع نفسه فيها . الاّ انه صار اكثر اكراماً للشيخ مما كان قبل علمه بذلك

وقد قصّت استير على ابيها وامها كل ما جرى لها وكيف انقذها شاب من مزرعة تحت جبل الزيتون ثم فرّت منها فاسرها العرب على بيت لحم . الا انها لم تذكر لها شيئًا مما حدث لها مع ايليا . وقد غصّت بدمعها مرارًا وهي تحكي لهما قصّتها من ذكرى ذلك الشاب الكريم الذي فارقته رغماً عنها

ومنذ هذا الحين اصبحت استير طليقة في حيّ العرب مع ابيها وامها

---

١ بريد على طريق بيت لحم

وكان اوّل شيء فكرت فيه استير بعد اطلاق سراحها انقاذ ارميا الذي احسن معاملتها وامر معها . فسأل ابوها ضرارًا عنه فاخبره انه اسير عند رجل من البادية لم يقدر احد غيره على كبح جماحه . فسارت استير مع ابيها وضرار الى خيمة الرجل . فلما اطلوا عليها ابصروا في احدى زواياها رجلاً مطروحًا كالجزع الممدود وهو موثق اليدين والرجلين بحبال ثخينة . فلما سمع هذا الرجل صوت حركة وراء الخيمة انتفض انتفاضًا شديدًا واخذ يصيح ملء فيه — يا قتلة الانبياء وآسري المرسلين . اهكذا تصنعون بي . كفى الارض ما فيها من الظلم فلا تزيدوا ظلمًا جديدًا فيها . اتظنون انها تُفتح لكم بالاضطهاد والاسر والقسوة . لا لا . فانكم اذا لم تعدلوا لم تسودوا . واذا كانت هذه فاتحة اعمالكم فخاتمتها بلاء وعذاب . تأسرون الانبياء وتطرحونهم على الارض كالكلاب . تأسرون الفتيات الضعيفات وتسبون اليهنّ . اخذوها اخذوها . وحرموني اياها . ايليا ايليا . اظن هذا عقابًا لي لانني خنتك . وهذه عاقبة الخائن دائمًا . وانتم ايضًا تخونونني فستكون عاقبتكم كذلك

ولما ترجم الشيخ ابو استير لضرار هذا الكلام ضحك منه حتى استلقى لانه علم من استير وابيها ان الرجل معتوه . ثم دخل وحده على ارميا . فلما رآه ارميا هاج كالجمل الثائر وصاح : انت كبيرهم . انت ظالمهم . اين الفتاة . اما تخافون الله و يوم الحساب

فدنا حينئذ ضرار منه وفي يده سيفه فلما رأى ارميا السيف قامت قيامته وصار يعوي عواء الكلاب والذئاب خوفًا من القتل . فعلم ضرار خطأه فدعى الشيخ ابا استير فدخل وحده . فقال الشيخ لارميا بعد ان اسكته ان ضرارًا لا يقصد الا قطع وثاقه بالسيف . فلم يطمئن ارميا بل عاد الى العواء والصراخ وصار يدافع ضرارًا رفسًا برجليه و بصقًا بفيه كانه حسب البصاق حجارة مقلاع تدفع عنه . وكان ضرار في اثناء ذلك يضحك ضحكًا شديدًا . فلما رأى الشيخ خوف ارميا من ضرار اخذ السيف بيده ودنا من ارميا فعاد ارميا الى العواء والصراخ والرفس والبصق . فيظهر ان استير علمت وهي تراقب هذا المشهد من خارج الخيمة انه لا يحلّ هذه المشكلة غيرها فدخلت باسمة تختال بحلل الجمال والدلال

فلما وقع نظر ارميا على استير دُهش وصاح متنهدًا من اعماق قلبه قائلاً : من انقذك . هاها . . ما اقوى النساء الجميلات . فانهنّ ينقذن انفسهن دائمًا . . اعطوها السيف اعطوها السيف . فانني لا ائتمن غيرها على روحي . يا عزيزتي اذكري انني خلصتك فخلصيني

فاخذت استير السيف بيدها البيضاء الجميلة ودنت من ارميا وهو ممدّد فصار ارميا يضحك لها .

فقطعت استير بالسيف الحبال التي كانت توثق يديه ورجليه فنهض ارميا وصار يتمطّى كمن كان مقيدًا واطلق من قيده

وبعدما اُصلح ارميا شأْنه وملابسه دنا من استير باهتمام وقال لها : لقد اطلقونا الآن فهلمي بنا . فضحكت استير واجابت الى اين . فصاح ارميا كل الاماكن خير من هذا المكان . هلمي يا اختي لنعيش بالبرية معاً كالرعاة . فعبس ابوها وهزّ رأْسه وهو يقول في نفسه انه صار يجب عليه انقاذ الفتاة لا من ضرار فقط بل من ارميا المعتوه ايضاً . ومنذ هذا الحين عرف صعوبة موقف الرجل بين بعض الرجال اذا كان يصحب فتاة متناهية في الجمال

اما ضرار فانه لما علم بمطاب ارميا هزّ سيفه حتى دبّ الموت با فرنده وقال له : والله اذا ذكرتَ الرحيل مرة اخرى لاجعلنك مرتعاً له . — فابتعد عنه ارميا دون ان يفهم كلامه وهو يدير فيه عينين مذعورتين ويبحث بهما في الارض عن حجارة او اخشاب يدفع بها عن نفسه اذا هاجمه صاحب السيف

اما الشيخ ابو استير فانه خلا بارميا واخبره ان امير العرب اسرهم ولا يأْذن لهم بالرحيل . ولكنه اذن لارميا بذلك . وكان ارميا قد علم ان الشيخ هو ابو استيرْ فقال له : انا مقيم معكم حيثما تقيمون

ومنذ هذا الحين صار ارميا يتجول في حي العرب بين الخيام لمشاهدة تلك المنازل البدوية الغريبة . وفي المساء يعود الى خيمة ضرار وينام في الليل على بابها واستير في داخلها مع ابيها كانه حارس لها

وفي ذات يوم بينما كان يدور بين الخيام متجنباً المضارب التي فيها نساء واولاد واصوات القتال واردة من جهة بيت المقدس واذا به قد بلغ خيمة رفيعة العمد عالية الاطناب . وكان حول هذه الخيمة خيام كثيرة تحيط بها على مسافات مختلفة . والناظر اليها يعرف لاول نظرة انها خيمة زعيم قومه . وفي الحقيقة انها كانت خيمة الفارس المغوار المشهور عمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي ترك بوادي اليمن وجاء في رجاله لنصرة جند الشام مع مالك ابن الاشتر النخعي في اواخر خلافة ابي بكر (١)

---

(١) وقد كتب ابو بكر يومئذ في هذا الشان كتاباً الى خالد بن الوليد عامله في الشام لذلك العهد قال فيه قبل فتح دمشق ,, قد تقدَّم اليك ابطال اليمن وابطال مكة ويكفيك ابن معدي كرب الزبيدي ومالك ابن الاشتر '' ويقال ان عدة هذه النجدة كانت تسعة الاف

فلما دنا ارميا من هذه الخيمة الشامخة سمع فيها صوتاً يتكلم باللغة اليونانية فعجب من ذلك وتقدم متلصصاً فلما اطلّ على الخيمة ابصر في احدى زواياها ما اثار دهشته فرجع القهقرى مستغرباً

ذلك انه ابصر في تلك الزاوية « ايليا » جالساً مشدود اليدين شدّاً خفيفاً

وكان ايليا يحادث رجلاً آخر جالساً امامه لكنّ هيئته كانت تدل على انه ليس بعربي

وحينما تحقق ارميا وجود ايليا هناك ابتعد عن الخيمة وجلس يفكّر ملياً . ويظهر انه قرر في نفسه شيئاً لانه اول ما ابصر رفيق ايليا قد خرج من الخيمة لحاجة له نهض مسرعاً اليه . ولما صار بجانبه خاطبه باليونانية قائلاً . هل انت عربي ايها الاخ

فنظر اليه الرجل وقال اخبرني اولاً من انت لاخبرك من انا . فاجاب ارميا ما قصدتك لهذا وانما لاخبرك خبرًا عظيماً . اتحب ذلك . فاجاب الرجل وقد بدأ يتأمل في وجه ارميا . وما هو هذا الخبر . فقال ارميا باهتمام شديد . اما عرفتَ هذا الرجل المقيم في هذه الخيمة مشدود اليدين . فقال الرجل وقد بدأ يهتمّ لحديث ارميا : لا ومن عساه يكون . فضحك ارميا وقال : انكم تقبضون على كنز ثمين بل على مفتاح المدينة دون ان تعلموا بذلك . فزاد اهتمام الرجل وقال ومن عساه يكون . فقال ارميا هذا الاسير ستفدون به عشرة الاف اسير منكم اذا شئتم . فصاح الرجل وقد فرغ صبره . الا تقول من هو . فدنا ارميا حينئذ من الرجل وانحنى على اذنه وهمس فيها قائلاً : هذا ثيودوروس اخو الامبراطور

فدهش الرجل ورجع القهقرى عجباً . ثم سأل ارميا . ومن اين عرفته . فضحك المعتوه وقال وهل احد منا يجهل اخا الامبراطور . فاحرصوا عليه جيدًا اذا شئتم فتح المدينة فانه ربما افتداه الامبراطور منكم بالمدينة كلها

فعاد الرجل نحو الخيمة التي كان ايليا فيها وهو يفكّر كثيرًا اما ارميا فانه عاد عنها نحو خيمة ضرار وصار يبذل جهده ليمنع استير واباها من الذهاب نحو خيمة ايليا

والعادة ان علو المقام يجرّ دائماً زيادة الاتعاب والاثقال . ولذلك ما انتشر بين تلك الخيام ان اخا الامير اسير في خيمة الامير عمرو بن معدي كرب حتى تهافت الناس من كل جانب لمشاهدته . وادى هذا الامر الى التشديد في حراسته والتضييق عليه

اما ايليا فلم يكن يفهم شيئاً من ذلك الاكرام الجديد له والتألب عليه . حتى الترجمان نفسه الذي كان يقصده ويحادثه في الخيمة صار لا يقترب منه الا باكرام خاص

وكان غرض ارميا من صنع ما تقدم رغبته في ان يحول دون اطلاق سراح ايليا وابقائه بعيداً عن استير الى ان يتمكن من اخراجها من هذا المكان بالكلية . ولكنه ما درى ان هذه الحيلة ستؤدي الى عكس غرضه . فانه لما فشا بين المسلمين ان اخا الامبراطور وقع اسيراً في قبضة بعض من رجال عمرو بن معدى كرب الذين ساروا لارتياد الضواحي وراء القدس ووصل هذا الخبر الى الامير ابي عبيدة القائد العام امر ابو عبيدة في الحال بان يؤتى اليه باليهودي يوسف ليتحقق منه هذا الامر . وكان هذا الاسم اسم ابي استير كما تقدم . فلما حضر الشيخ بين يدي ابي عبيدة صحبه ابو عبيدة الى خيمة عمرو بن معدي كرب واراه ايليا ليعلم اهو اخو الامبراطور حقيقةً لعله يعرفه . ولكن ما وقع نظر الشيخ على ايليا حتى اسرع اليه صارخاً : هذا امبراطور لا اخو امبراطور . فانه امبراطور الشهامة والرفق والمروءة

ثم قصّ ابو استير على ابي عبيدة ما صنعه ايليا معه ومع ابنته على طريق بيت لحم . فدنا حينئذ ابو عبيدة الرجل الكريم المحب للكرام وقطع وثاق ايليا بيده واطلق سراحه

وقد جرى كل ذلك دون ان يدري به ارميا واستير . فكأنّ ارميا نفع ايليا من حيث قصد مضرّته . وذلك مصداق لقول من قال « من حفر حفرة لاخيه وقع فيها »

اما ايليا فانه لما وقع نظره على ابي حبيبته خفق قلبه خفقاناً شديداً وكان اول سؤال وجّهه اليه بعد انطلاق سراحه هو هذا — هل وجدتَ السيدة استير . فوضع الشيخ يده في يده واجاب : هلمّ بنا اليها

فيا ايها القارئ العزيز هل اضعتَ يوماً قلباً لك على شاطئ البحر بين رماله وحجارته ثم وجدته محفوظاً في احدى اصدافه الجميلة كانه درٌّ فيها مكنون . هل كنت في احدى الليالي مسافراً في ظلمة ليلاء واحاطت بك العواصف والامطار والوحوش واللصوص وانسدّت الطريق في وجهك ثم بغتةً طلع لك القمر او الشمس تنير طريقك وتدفئ عظامك وتؤمّن نفسك . هل كنتَ يوماً مريضاً مشرفاً على الهاوية وقد نضب ماء حياتك ورايتَ الموت بعينيك ثم انتفضتَ وعادت اليك قوتك وصحة شبابك الماضي — اذا كنتَ قد لقيتَ يوماً شيئاً من ذلك فانك تعرف مبلغ السرور الذي حاق بايليا حينما قال له الشيخ عن استير « هلمّ بنا اليها »

ولما وصل الشيخ وايليا الى خيمة ضرار حيث كانت استير كان قد امسى المساء واخذ العرب يعودون عن اسوار المدينة . وكانوا يطيلون النظر الى الاثنين في اثناء الطريق .

ولكن لم يبالوا بها لتعوّدهم مشاهدة التراجمة والعيون من اليهود واحيانًا من اذناب الروم في معسكراتهم . وهذا ايضًا هو السبب في تجوال ارميا بين المضارب قبل ذلك دون ان يتعرَّض احد له

وحين وصول ايليا مع الشيخ الى خيمة ضرار كان ضرار قد عاد من ساحة القتال وجلس في باب الخيمة يطيل النظر الى استير واخته خولة تضحك من نظراته واستير مطرقة تتورّد وجنتاها خجلاً وتذوب حياءً . فصاح الشيخ حين وصوله : استير ابن استير . فهبت استير الى باب الخيمة . ولكن ما وقع نظرها على الشخص الذي يرافق اباها حتى صاحت صياحًا شديدًا وتراجعت الى الوراء وقد انقلب لونها الفضي الورديّ الى لون الزعفران وصارت ترتجف . فادرك ضرار بذكائه العربي الفطري سرَّ استير في الحال فعبس وصار يقلّب طرفه في ايليا . اما ايليا فكان يتقدم والابتسام على شفتيه ولكن الالم الشديد في قلبه . وكانت جبهته تنصبب عرقًا مع شدة البرد ساعتئذٍ . فلما وصل الى استير نظر اليها نظرة هي وحدها كانت تعرف معناها . وقال : الحمد لله ايتها السيدة على انني وجدتك بخير وسلامة فانني خفتُ عليك من المعتوه الذي رحلتِ معه ولذلك ذهبتُ في طلبك

فادركت استير ان ايليا يريد بهذا الكلام تبرئة نفسه لديها عملاً بوصيتها له ان لا يتبعها . فحاولت الجواب فلم تستطع . ولكن عينيها جاوبتا عنها بدمعتين كلؤلؤتين ترقرقتا في حدقتيها

وفي هذه الدقيقة وصل ارميا لانه كان غائبًا عن الخيمة

فلما وقع نظر ارميا على ايليا من بعيد صلّب على صدره ورجع القهقرى قائلاً « كيريا لايسون كيريا لايسون اي شيطان جاء به الى هنا »

ثم توارى لانه كان يخجل من مقابلة ايليا . اما ايليا فقد لمحه ولكنه تركه وشأنه لئلا ينفتح عليه باب جنونه فيفضح حبّه

ولم يكد ايليا يجلس في الخيمة حتى دخل بدوي وسأل عن ضرار . ثم ابلغه ان الامير ابا عبيدة يطلب اليهودي يوسف . فاستاء ابو استير من هذه الدعوة في تلك الساعة امام ايليا . اما ايليا فانه لم يفهم شيئًا . فقام ابو استير وذهب اجابة للدعوة فبقي في الخيمة ايليا واستير وامها وضرار وخولة . وكان ضرار ينظر الى استير ويقول في نفسه ما اجمل بنات الروم . وخولة تنظر الى ايليا وتقول في نفسها ما اضعف رجال الروم وهكذا كان كلٌّ واحد منهما يقيس امة باسرها على فرد منها وهو الخطاء الذي كثيرًا ما يقع الناس فيه

ولم يكد يخرج ابو استير من الخيمة حتى سُمع صوت من الخارج يقول « السلام على اهل الايمان» فنهض ضرار وخولة على عجل وصاح ضرار بعد رد السلام اهلاً بفارس العرب . فدخل حينئذ رجل معتقل سيفه وفي يده رمحه وكان كبير الهامة شانخ الرأس تكفي هيئته للدلالة على نجابته وشجاعته . وكان وراءه رجل غريب الزي . فقال الفارس القادم لضرار: أجاءكم اسيري يا ضرار . وكان ايليا قد هبَّ على صوت الفارس وقام اجلالاً له . فلما رآه الفارس بشَّ في وجهه والتفت الى الرجل الذي كان وراءه . فنطق حينئذٍ هذا الرجل باليونانية مخاطباً ايليا بقوله : ان فارس العرب عمرو بن معدي كرب قد ساءه تركك خيمته ولقد اذن بما اذن به ابو عبيدة من اطلاق سراحك ولكنه يريد ان تقيم عنده لا في مكان آخر لسروره بحديثك واخبارك . فاستاء ايليا في نفسه من هذا الاقتراح لانه يفصله عن استير وان كان قد سرَّه كرم العربي ورحابة صدره فاجاب . هذا أحبُّ شيء اليَّ فساحظى في كل مساء بالمثول في حضرة الامير واما في النهار فانني مضطرٌّ ان الزم اصدقاء لي في هذه الخيمة ما اقمتُ في هذا المعسكر

فلما علم عمرو بن معدي كرب بجواب ايليا التفت ليرى الاصدقاء الذين اشار اليهم الشاب فوقع نظره على استير . فلاحظ ضرار تلك النظرة لخوفه من عاقبتها اكثر من خوفه من عاقبة وداد ايليا

وكان ارميا حينئذ خارج الخيمة يتنصَّت ويتجسَّس فلما رأى فارس العرب يقلّب نظره في استير قال في نفسه : لقد صرنا أربعة

اما عمرو بن معدي كرب فانه بعد ان اجال نظره في استير ملياً قال للترجمان : لماذا لا يصطحب اصدقاءه الى حيث يذهب . فغضب ضرار لهذا الجواب وظهر الغضب في وجهه . واما ايليا فانه لما فهم جواب الامير ابلغه ان رفيقه غائب وابنته هذه الفتاة لا تستطيع مفارقة ابيها

فيظهر ان الامير انقلب غرضه من اخذ ايليا الى اخذ استير ولذلك اجاب : ساعود غداً بعد عودة رفيقك فوالله يهمني ان تقصَّ عليَّ بقية قصة صاحبك ميكائيل

وكان الامير يعني « بميكائيل » الراهب ميخائيل استاذ ايليا .

فلما انصرف الامير وترجمانه صار ايليا يفكّر في ماذا يصنع للخروج باستير وابيها من المعسكر خصوصاً بعدما رآه من اهتمام ضرار وعمرو بن معدي كرب بها اهتماماً خاصاً . وبينما هو يتأمل في ذلك واذا بارميا قد دخل على حين فجأة ودنا من ايليا واسرَّ اليه قوله : هل تريد يا كيريه ايليا ان احدّثك على انفراد . فحوّل ايليا وجهه عن ارميا دون ان يجاوبه . فقال ارميا

همساً ايضاً · لا تغضب يا كيريه ايليا فانني فعلتُ ما فعلته بأمر استير نفسها · وعندي الآن لك حديث في غاية الاهمية فاسمعه مني وبعد ذلك اصنع ما تشاء

فنهض ايليا وخرج من الخيمة · ولما صار خارجاً صاح بارميا : ماذا تقول للشيخ سليمان غداً يا ارميا بعد خطفك الفتاة من مزرعته · فاجاب ارميا لم اخطفها وانما هي التي طلبت مني ان اذهب بها من المزرعة لتلتقي بابيها · ولكن دع عنك هذا فانه ليس في شيء من الاهمية · اعرفت يا كيريه ايليا ابا هذه الفتاة

فاجاب ايليا نعم عرفته · فقال ارميا مظهراً الاهتمام دائماً وهل عرفتَ ما بينه وبين العرب · فقال ايليا لا لم سأله عن ذلك بعد · فلعلهم اسروه كما اسروكما وكما اسروني · فهزّ ارميا حينئذ رأسه وقال همساً : كلا كلا يا كيريه ايليا · فانه جاسوس جاسوس

فهنا خطا ايليا خطوة الى الوراء لدهشته · وبقي مبهوتاً · ولما رأى ارميا ان كلامه اثّر في نفس ايليا تأثيراً شديداً اردف بقوله : وهل علمتَ الآن اين ذهب الرجل حين فارقكم ؟ انه ذهب الى القائد العام لانه طلب مع بدوي مقابلته · فلعلّه يقصد سؤاله عن بعض الامور ·· يا كيريه ايليا · قد قيل لي انك انقذته على طريق بيت لحم · فانت اذاً انقذتَ جاسوساً على وطنك · وابنته استير الجميلة التي انقذتها انت مرة وانا انقذتها مرة هي ابنة جاسوس · يا كيريه ايليا حقاً ما كنتُ اظن اننا ننزل الى هذه الدركة من السفالة ونحب انتَ وانا ابنة جاسوس دنيء

فعند هذا الكلام انكشف غطاء كثيف عن عيني ايليا فذكر اقوال البطريرك وقصة استير تحت الارزة وذكر على الاخص استعانة ابي عبيدة بالشيخ ابي استير لمعرفته قبل اطلاق سراحه وبارسال ابي عبيدة الساعة في طلبه فلم تبقَ لديه شبهة في ان الرجل جاسوس · فلما تحقق ذلك في نفسه طارت نفسه شعاعاً فترك ارميا بنزق واخذ يهيم على وجهه بين الخيام كانه يطلب منفذاً ليأسه وانكسار قلبه

استير ابنة جاسوس ؟ يا للهول · ذلك المثال البديع للجمال وأدب النفس قد خرج من دم التجسس واللؤم ؟ يا للهول · اذاً اين يجد ايليا الطهارة والنقاء في العالم بعد اليوم؟ وما الذي يسلّيه بعد ذلك عن هذه الخسارة التي فقد بها احلامه وآماله في هذه الحياة

ايليا خان وطنه وساعد الجواسيس عليه ؟ يا للهول · نعم انه لم يكن شديد التعصب لوطنه ومملكته لان اليونان كانوا العنصر السائد المستبدّ فيهما ولذلك قد يمكن ان يكون هذا الفتح مساعداً للامة السورية المغلوبة على العنصر المستبد الغالب · ولكن من يضمن

ان يكون العنصر الفاتح الجديد اقل استبدادًا واكثر انصافًا للامة المغلوبة من العنصر الفاتح القديم . لا ريب في ان ايليا لم يكن يعتبر الدين جامعةً قوية بل هو يضع فوقها الجامعة البشرية اي جامعة « العدالة المطلقة والانصاف المطلق » ولكن من يضمن له انه لا يكون في هذا الاستبدال كالمستعين من الرمضاء بالنار وكالمنتقل من نير الى نير

وقد بقي ايليا يفكر ساعةً في موضوعه الجديد وبعد ان برّد هواء المساء جبهته التي كانت متقدة بهذه الافكار قر رأيه على السفر دون ان يشاهد استير ولا اباها . فانحرف عن خيمة ضرار وقصد خيمة الامير عمرو بن معدي كرب ليستأذن منه بالرحيل ويسأله رجلاً يرافقه الى خارج المعسكر . وكان غرضه من ذلك ايضاً زيادة التقرّب من هذا الامير لعله يستعين به على شيء يفيد بني وطنه اذا وقعت المدينة في ايدي العرب

ولما وصل ايليا الى خيمة الامير عمرو بن معدي كرب وجده راجعاً من خيمة ابي عبيدة . ذلك ان ابا عبيدة كان قد جمع امراء الجيش ووجوه الجند ليستشيرهم في طول الحرب وما اصاب الجند من التعب والشدة للمطر والثلج والبرد (١) فاجمع رأيهم على انه لا سبيل لأخذ المدينة الا صلحًا او يبرز الروم من وراء الاسوار للقتال وجهاً لوجه . لاسيما وانه قد بلغهم ان الأرطبون مقدم الجند الذي فرّ من اجنادين ولجأ الى بيت المقدس في اثناء الحصار معارضٌ في الصلح كل المعارضة . فلما علم الامير عمرو بن معدي كرب برغبة ايليا في الدخول الى المدينة استغرب ذلك وسأله بواسطة الترجمان . اين اصحابه . وقد عنى بهم استير واباها . فارتعد ايليا لهذا السؤال . اولاً لانه ذكّره امره وثانياً لانه تذكر ان استير ستبقى بعده هدفاً لميل ضرار وعمر بن معدي كرب وارميا

ولما ودّع ايليا الامير قال له الامير سنلتقي في المدينة بعد بضعة ايام . فابتسم ايليا وشكر للامير ما لقيه عنده من الكرامة وحسن الضيافة مدة الاسر . ثم سأله نصيحة لقومه يكون فيها فائدة للفريقين . فاطرق الامير يفكّر . ويظهر انه بدا له امر مهم ولذلك اشرق وجهه . فقال لايليا : لقد استنصحتني ايها الشاب وانا اصدقك النصيحة . انّ هذا الجيش اذا فتح مدينتكم هذه سيكون شديد الوطأة عليها لانه عانى في هذه الحرب مشقة شديدة . وها قد مرت اربعة اشهر والقتل فيه كل يوم . ولو كان المدد سيصلكم لوصلكم في اثناء هذه المدة الطويلة . فحرّض قومك على الصلح اذا كنتَ نافذ الرأي عندهم وكنتم تحبون سلامة مدينتكم . ولكي تعلم صدق نصيحتي اوصيك ان لا تقبلوا بالصلح الاّ على يد خليفتنا

١ بيت المقدس قائمة فوق الجبال وعلوها عن سطح البحر ٧٩٠ مترًا اي هي اعلى من دمشق الشام بمائة متر

عمر بن الخطاب فانه هو الذي يقدر وحده على كبح جماح هذا الجيش بعد عقد الصلح اذا رام الجيش انتقاماً او اغتناماً

وكان الامير صادقاً في هذه النصيحة وان كان قد قصد بها تعجيل الصلح لمنفعة قومه . فشكره ايليا وكرر توديعه وانصرف قاصداً اسوار المدينة ومعه رجل من رجال الامير ليوصله اليها

وكان ايليا وهو سائرٌ يتلفَّت نحو خيمة ضرار و يتنهَّد كلما التفت اليها كما تنهَّد آدم وتأفت الى الفردوس عند خروجه منه

الاان ترك آدم فردوسه كان بكرهه وترك ايليا فردوسه كان بطوعه اتباعاً لصوت ضميره وكبريائه والغريب ان ايليا لم يعاوده اليأس القديم بعد يأسه من هذا الحب الذي كان بنى عليه كل آماله في الحياة . فكأنَّ ما شاهده في هذه الحرب من آثار القتل والعذاب والشقاء البشري والعناء قد اذكره ان الحياة ليست بلعبةٍ يُتلهَّى بها بل هي واجب عظيم يجب القيام به باحسن ما يكون ومعالجة كل ما يعترضه من المصاعب والمتاعب والمصائب . ولذلك صار همّه مصروفاً الى نفع بني وطنه المحصورين لتخفيف شيء من مصائبهم ومنع الفتك فيهم اذا فتح العرب مدينتهم . وبذلك وجدت نفسه شاغلاً يشغلها عن نفسها

وقد اذن حراس اسوار المدينة لايليا بالدخول اليها ولكنهم اخذوه تواً الى البطريرك . وهذا ما كان ايليا يطلبه . فاختلى ايليا بالبطريرك ساعتين تقريباً

وفي اثناء ذلك كانت استير في خيمة ضرار تنتظر ايليا ....

الفصل السابع عشر

مخابرات الصلح

البطريرك وابو عبيدة . كلمة الشهادة بين الاثنين . اتباع البطريرك نصيحة ايليا . كتاب ابي عبيدة الى عمر

وكان اهل المدينة يومئذ في ضجر وملل من تأخر المدد عنهم وطول حصرهم . وكأنهم يئسوا من المدد بعد طول الحصار اربعة اشهر فاجتمع وجوههم عند البطريرك وقالوا له « يا ابانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا ان يأتينا مدد من قبل الملك ولا شكَّ انه اشتغل عنا بنفسه . وانهم اشهى منا للقتال وانهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقاراً منا لهم . والآن قد عظم علينا الامر . وانا نريد منك ان تشرف على

هؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا . فان كان امرهم قريباً اجبنا الى ما يريدون ويطلبون وان كان صعباً فتحنا الابواب وخرجنا اليهم فاما ان نُقتل عن آخرنا واما نهزمهم عنا » (١) وكان البطريرك قد بدا يرى رايهم لياسه من المدد خصوصاً بعد اختلائه بايليا وسماعه راي الامير عمرو بن معدي كرب (٢) . فاجابهم الى هذا الطلب « فاشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسس والرهبان حوله وبايديهم الاناجيل مفتحة والمباخر حتى اشرف على المكان الذي فيه ابو عبيدة »*« فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يا معشر العرب . ان عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد اقبل يخاطبكم فليدنُ منا اميركم » *فاخبروا ابا عبيدة فجاء ابو عبيدة « وجماعة من الامراء والصحابة ومعه ترجمان » * فلما التقى الفريقان تكلم البطريرك فقال « ما الذي تريدون منا » *فانبرى ابو عبيدة وقال « خصلة من ثلاث . اولها ان تقولوا لا اله الاّ الله وحده لا شريك له . وان محمداً عبده ورسوله . فان اجبتم الى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا » * « فقال البطريرك (٣) انها كلمة عظيمة ونحن قائلوها . الاّ ان نبيكم محمداً ما نقول انه رسول — فهذه خصلة لا نجيبكم اليها »*فعرض ابو عبيدة الخصلة الثانية وهي « تادية الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » * فقال البطريرك « ما كنا بالذي يدخل تحت الذلّ والصغار ابداً » * فقال ابو عبيدة اذن نقاتلكم حتى نفتح مدينتكم ونستعبدكم ونغنم اموالكم * فاجاب البطريرك بغضب . لو اقمتم على قتالنا عشرين عاماً لما فتحت المدينة لكم . وانا الآن اقول لكم كلمة واحدة . وهي ان المدينة لا تُفتح الا لاميركم عمر بن الخطاب . فابعثوا في طلبه لاقابله والقي اليه مفاتيحها اذا رمتم صلحاً حقيقياً فيه شرف لنا ولكم

فاطرق ابو عبيدة يفكر ملياً . وكان راغباً في الصلح حقناً لدماء رجاله . فقال « اني ابعث اليه بان يقدم علينا . افتحبون القتال ام نكفّ عنكم » * وقد قال ابو عبيدة هذا القول ليظهر للبطريرك ان قومه لا يبالون بالحرب . فاجاب البطريرك « معاشر العرب الا تدعون بغيكم . انطلب حقن الدماء وانتم تأبون الا القتال » * فامر ابو عبيدة حينئذٍ

١) الواقدي . وكل ما كان في هذا الفصل ايضاً وباقي الفصول التالية بين قوسين وورائه نجمة * فهو نص حرفي له

٢) غني عن البيان ان هذا الراي لم يُنسب في التاريخ للامير عمرو بن معدي كرب بل للبطريرك نفسه رغبة في زيادة الاستيثاق من سلامة المدينة بعد الصلح

٣) في الاصل البترك وهي الكلمة العامية اليوم . واحيانا ترد في كتب العرب « البطريق »

بالكف عن القتال وانصرف البطريرك وحاشيته

وبعد ذلك اجتمع امراء المسلمين فابلغهم ابو عبيدة طلب البطريرك « فرفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير » * فرحاً بقرب انتهاء الحرب ودخولهم بيت المقدس . « وقالوا افعل ايها الامير واكتب الى امير المؤمنين بذلك فلعله يسير الينا و يفتح هذا البلد علينـا » * وكان شرحبيل بن حسنة حاضراً فقال ان هذا الامر يطول « فاصبر حتى نقول لهم ان الخليفة معنا ويتقدم خالد اليهم فاذا نظروا اليه فتحوا الباب وكفينا التعب » *« وكان خالد بن الوليد اشبه الناس بعمر بن الخطاب » * ففعلوا ذلك . ولكن البطريرك واهل المدينة لم تنطلِ عليهم هذه الحيلة . فقال البطريرك « يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم . وحق المسيح لئن لم نرَ الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع احد منا يكلمكم ولو اقمتم علينا عشرين سنة . ثم ولى ولم يتكلم » *

فعند ذلك كتب ابو عبيده الى الامام عمر الكتاب التالي

« باسم الله الرحمن الرحيم . الى عبدالله امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله ابي عبيدة عامر بن الجراح . اما بعد السلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . واعلم يا امير المؤمنين انا منازلون لاهل مدينة ايلياء نقاتلهم اربعة اشهر . كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا . ولقد لقيَ المسلمون مشقة عظيمـة من الثلج والبرد والامطار . الا انهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم . فلما كان اليوم الذي كتبت اليك الكتاب فيه اشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه وقال انهم يجدون في كتبهم انه لا يفتح بلدهم الا صاحب نبينا واسمه عمر وانه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم . وقد سأَلنا حقن الدماء . فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله يفتح هذه البلدة علينا على يديك »*

ثم انه طوى الكتاب وختمه * وسأل المسلمين من ينطلق به . فاسرع بالاجابة ميسرة بن مسروق العبسي * فامتطى ناقة له كوماء وسار يقصد « المدينـة » في بلاد العرب وهي كرسي الخلافة الاسلامية يومئذٍ ومقر السلطنة العربية

الفصل الثامن عشر

الخليفة عمر بن الخطاب

وسفره الى الشام

الرسول في المدينة · رأي علي وعثمان · سفر الخليفة · مطيته · طعامه · ثلاثة حوادث رآها في طريقه · ابو استير في الجابية ونبوءته · عمر والقس الذي يعارضه في صلاته · بلال واذانه · اثارة بلال المسالة الاجتماعية · حركة جميلة لعمر يقتل بها افعى المدينة الهائلة

وطوى الرسول عدة ليال لم يذق فيها طعم الكرى * وكان وصوله الى « المدينة » ليلاً * فكره ان ينزل عند احد من الناس فاناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد فسلّم على القبر النبوي وقبر ابي بكر ثم اتى مكاناً في المسجد ونام فيه نوماً عميقاً * . فلم يستيقظ الا على صوت عمر يؤذن وكان يغلس في الاذان * ثم دخل الامام الى المسجد وهو يقول « الصلاة رحمكم الله » * فنهض الرسول في من نهض وتوضاء وصلى خلف عمر صلاة الفجر . و بعد الصلاة انحرف عمر عن محرابه فقام الرسول اليه وسلم عليه . فلما نظر عمر اليه صافحه واستبشر وقال « ميسرة ورب الكعبة . ما وراءك يا ابن مشروق » * فدفع اليه الرسول الكتاب . فقرأه الامام على المسلمين الحاضرين في المسجد وفيهم الامراء والصحابة يتقدمهم علي وعثمان بن عفان * فاستبشر الجميع به لقرب وقوع عاصمة الروم الدينية و بلد الانبياء في ايديهم . فقال عمر يستشيرهم في الرحيل او الاقامة « ما ترون رحمكم الله فيما كتب ابو عبيدة » * وكان اول من تكلم عثمان بن عفان * فقال « يا امير المؤمنين ان الله قد اذلّ الروم واخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر اصحابنا مدينة ايلياء وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلاً وضعفاً ورعباً . فان انت اقمت ولم تسر اليهم رأوا انك بامرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلا يلبثون الاّ اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية » * فقال عمر « جزاك الله خيراً » * ثم التفت الى باقي المشيرين وقال « هل عند احد منكم رأي غير هذا » * فيظهر ان المنافسة كانت موجودة بين علي وعثمان قبل وصول عثمان الى الخلافة ولذلك كان علي يتعرّض احياناً لعثمان كما تقدّم . فاجاب « نعم عندي غير هذا الرأي . وانا ابديه لك رحمك الله » * فقال عمر « ما هو يا ابا الحسن » * فاجاب علي « ان القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين . وقد اصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام . واني اري انك ان سرت اليهم فتح الله هذه المدينة على

يديك وكان في مسيرك الاجر العظيم في كل ظماء ومخمصة وفي قطع كل واد وصعود كل جبل حتى تقدم عليهم . فاذا انت قدمت كان لك وللمسلمين الامن والعافية والصلاح والفتح . ولست آمن ان يبأسوا (اي الروم) منك ومن الصلح ويملكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم فيدخل على المسلمين من ذلك الهم والبلاء . لا سيما بيت المقدس عندهم وهو معظم واليه يحجون فلا يتخلفون عنه . والصواب ان تسير اليهم ان شاء الله تعالى»*(١)

فقال عمر حينئذ « لقد احسن عثمان النظر في المكيدة للعدو واحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرًا . ولست آخذ الا بمشورة علي » * ثم امر الناس بالاستعداد للمسير معه

فيا له من زمن صغير كبير ذلك الزمن الذي كانت فيه ملوك الامم وقوادها يرجعون الى رجال العقل والفكر في سياسة ممالكهم ويفصلون في الامور السياسية الجسام التي عليها تتوقف حياة ممالك ودول عظيمة في مسجد صغير ساذج في مدينة صغيرة ساذجة بدون كلفة بين افراد من الاصحاب والاصدقاء كانهم عائلة واحدة

على طريق الشام

ولما فشا الخبر ان عمر مسافر الى الشام خرج الناس في المدينة لتوديعه وتشييعه * فاتى عمر المسجد فصلى فيه اربع ركعات ثم قام الى القبر النبوي فسلم عليه وعلى قبر ابي بكر* واستخلف على المدينة علي ابن ابي طالب* ثم خرج « على بعير(٢) له احمر وعليه غرارتان في احداها سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد » * وكان مرتديًا « بمرقعة من صوف وفيها اربع عشرة رقعة بعضها من ادم» * « وعلى راسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه »*

هكذا كان لباس الامير العظيم الذي فتحت له كنوز قيصر وكسرى

وكان معه جماعة من الصحابة ممن شهدوا وقعة اليرموك وعادوا الى المدينة بعدها في جملتهم الزبير وعبادة بن الصامت *

وانطلق بعير عمر ووراءه مطايا اصحابه في رمال بلاد العرب وقفارها وسهولها وجبالها يقصد بيت المقدس . وكان عمر اذا نزل منزلاً لا يبرح منه حتى يصلي الصبح . فاذا انفتل

---

١ اما رواية ابن الاثير فانها تناقض هذه الرواية . فانه روى ان عليًا قال لعمر اذ رام المسير الى الشام « اين تخرج بنفسك انك تريد عدوًا كلبًا . فقال عمر ابادر بالجهاد قبل موت العباس . انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل »

٢ يقول ابن الاثير انه قدم على فرس

من الصلاة اقبل على المسلمين وخطب فيهم يحضهم على الاتحاد* وشكر الله على نعمه « ثم يأخذ الجفنة فيملأها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول: كلوا هنيئاً مريئاً . فيأكل ويأكل المسلمون معه »*

هذه كانت مائدة صاحب السلطنة العربية التي كانت آخذة بالامتداد من شاطىء البحر الاحمر الى ما وراء الفرات . فلا طباخ ولا تانق ولا تمتع . وانما طعام طبيعي بسيط يأكله الانسان ليعيش بدل ان يعيش ليأكل ويفعم جوفه بالاطعمة المختلفة التي تفسد صحة النفس والبدن

وبعد مدة وصل الامام الى ماء لجذام يدعى « ذات المنار »* وكان هنالك طائفة من عرب جذام . فنزل الامير على الماء . فبعد حين جاءه قوم منهم وقالوا « يا امير المؤمنين ان عندنا رجلاً له امراتان وهما اختان لاب وام . فغضب عمر وقال عليَّ به . فاتي بالرجل اليه . فقال له عمر . ما هاتان المراتان . قال الرجل زوجتاي . قال فهل بينهما قرابة . قال نعم هما اختان . قال عمر . فما دينك . الست مسلماً . قال بلى . قال عمر او ما علمت ان هـذا حرام عليك والله يقول في كتابه (وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف) فقال الرجل ما علمت . وما هما عليَّ حرام . فغضب عمر وقال . كذبت والله انه لحرام عليك . ولتخلين سبيل احداهما والا ضربت عنقك . قال الرجل افتحكم عليَّ . قال اي والله الذي لا اله الا هو . فقال الرجل ان هذا دين ما اصبنا فيه خيرًا ولقد كنت غنياً عن ان ادخل فيه . قال عمر ادن مني . فدنا منه . فخفق راسه بالدرة (السوط) خفقتين وقال له . اتتشاءم بالاسلام يا عدو الله وعدو نفسه . خلّ يا ويلك سبيل احداهما والا جلدتك جلدة المفتري . فقال الرجل كيف اصنـع بهما وانا احبهما ولكن اقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي وان كنت لهما جميعاً محباً . فامر عمر فاقترع . فوقعت القرعة على احداهما فامسكها واطلق سبيل الثانية . ثم اقبل عليه عمر وقال له . اسمع ياذا الرجل . وع ما اقول لك . انه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه : فاياك ان تفارق الاسلام . واياك يبلغني انك قد اصبت اخت امراتك التي فارقتها فانك ان فعلت ذلك رجمتك »*(١)

ثم انطلق عمر فمرَّ في طريقه بحيٍّ من بني مرة « فاذا بقوم قد اقيموا في الشمس يعذَّبون . فقال لهم عمر ما بال هؤلاء يعذَّبون . فقيل . عليهم خراج . قال فما يقولون . قال يقولون ما نجد ما نؤدي . فقال عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون »* فخلوا سبيلهم ثم سار « حتى اذا كان بوادي القرى اخبروه ان شيخاً على الماء وله صديق يوده

(١) رواه الواقدي نقلاً عن عمر بن مالك العبسي الذي كان مع عمر في هذا السفر

فقال له صديقه هل لك ان تجعل لي في زوجتك نصيباً واكفيك رعي ابلك والقيام عليها. قال له الشيخ قد فعلتُ . فلما اُخبر عمر بذلك امر بهما فاحضرا فقال : ويلكما ما دينكما . قالا الاسلام . قال عمر فما الذي بلغني عنكما اما علمتما ان ذلك حرام في دين الاسلام. قالا لا والله ما علمنا ذلك . فقال عمر للشاب ان بلغني عنك شيء من ذلك بعدُ ضربتُ عنقك »*

وكان عمر قد كتب الى امراء الجند في بيت المقدس ان يلاقوه بالجابية (١) ليوم سماه لهم. فلما بلغ جند الشام خبر قدومه « ارتجّ الناس وهموا ان يركبوا لاستقباله باجمعهم. فقال لهم ابو عبيدة « عزيمة على كل رجل ان لا يخرج من مركزه »* ثم سار ابو عبيدة في اناس من المهاجرين والانصار . فلما وصل عمر الى الجابية كان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد بن الوليد وهم على الخيول وعليهم الديباج والحرير * فنزل عمر واخذ الحجارة ورماهم بها للبسهم ملابس الروم وقال « ما اسرع ما رجعتم عن رايكم . اياي تستقبلون في هذا الزيّ . وانما شبعتم منذ سنتين . وبالله لو فعلتم هذا على راس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » (١) فقالوا « يا امير المؤمنين انها يلامعة » (اي سلاح يلمع) قال « فنعم اذن » (٢) ثم ركب حتى دخل الجابية

وما استقرّ المقام بعمر في الجابية ليستريح من وعثاء السفر حتى تقدّم اليه رجل غريب الزي وقال « يا امير المؤمنين انك لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك ايلياء (٣) فالتفت عمر الى ابي عبيدة وساله من هذا الرجل (— فاجاب ابو عبيدة هو يوسف اليهودي الذي طلب ان يتقدمنا الى بيت المقدس . فلم يلتفت عمر اليه . وعند الفجر صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطب فيهم خطبة حسنة حضّ فيها الحاضرين على الاتحاد وشكر الله وقراء الآية « من يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن يجد له وليّاً مرشدًا » *وكان قس من المسيحيين حاضرًا فقال« ان الله لا يضلّ احدًا » * (٤) فلما كرر القس هذا القول قال عمر « ان عاد الى قوله فاضربوا عنقه »*فسكت القس*وحينئذ همس ابو عبيدة (— في اذن

---

١ » من اعمال دمشق في شمالي حوران

١ » ابن الاثير ٢ » ابن الاثير .

٣ » روى ابن الاثير والطبري وغيرهما ان يهوديًا اسمه يوسف لقي عمر بالجابية وقال له هذا القول. فجاء هنا محكم الانطباق على ابي اسنير

٤ الواقدي

الامير عمر : حيًّا الله الامير ويّاه فانه كره العقاب الا بعد الانذار مع ان الرجل عادٍ علينا . فلا عجب في ان يحبنا مخالفونا لتساهلنا الى هذا الحد"

ثم اخذ ابو عبيدة « يحدث عمر بما لقي الجند من الروم وعمر باهت فتارة يبكي وتارة يهدأ . فلم يزل كذلك الى ان حضرت صلاة الظهر. فقال الناس يا امير المؤمنين اسأل بلالاً ان يؤذن لنا * وبلال هو العبد الذي كان مؤذن النبي وكان قد حضر الى بيت المقدس اغتناماً لاجر القتال في سبيل فتحها . فقال عمر لبلال « يا بلال ان اصحاب رسول الله يسألون ان تؤذن لهم وتذكّرهم اوقات نبيهم » * « فقال بلال نعم » * ثم اخذ يؤذن الظهر . « فلما قال الله اكبر خشعت جلودهم واقشعرّت ابدانهم . فلما قال اشهد ان لا اله الاّ الله اشهد ان محمدًا رسول الله بكى الناس بكاءً شديدًا حتى كادت قلوبهم تتصدع عند ذكر الله ورسوله » *

ويظهر ان بلالاً راى في جند المسلمين شيئاً جديدًا لم يره من قبل . وفي الحقيقة ان هذا الشيء ليس بالجديد فانه ازلي لوجوده منذ وجود الانسان تقريباً . وهو ان اكابر المسلمين واجناد الشام كانوا « يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي » * والضعفاء كثيرًا ما كانوا لا ينالون شيئاً . وبما ان بلالاً قد نشأ في احضان النبوة فقد راى لنفسه حق الشكوى من هذه الحالة الجديدة . فشكى ذلك بعد الاذان الى الامام عمر * مختتماً قوله بهذه العبارة « الكل يفنى ومآله الى التراب ومصيرنا اليه » * فاجابه يزيد بن ابي سفيان « انّا لنصيب ما قاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به انفسنا مدة من الزمان في الحجاز لان الاسعار رخيصة في بلادنا هذه » * فقال عمر « ان الامر كما ذكرتَ فكلوا هنيئاً مريئاً » * ولكنه اردف ذلك بقوله انه سيفرض لكل اهل بيتٍ ما يكفيهم من البرّ والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون اليه

فنحن اذا رمنا ان نسمّي هذا الامر باسمه العلمي المألوف اليوم فاننا نقول ان الامام باهتمامه هذا كان يهتمّ بالمسالة الاجتماعية العظمى . وغنيٌّ عن البيان ان المبدأ المسيحي والمبداء الاسلامي في هذه المسالة مناقضان لمبداء المدنية الحاضرة القائمة على مبداء تنازع البقاء وبقاء الافضل . ولكن المدنيّة الحاضرة بدأت تعود الى المبداء المسيحي والمبداء الاسلامي من حيث اهتمام الهيئة الاجتماعية بجميع الافراد . وهو مبدأ الاشتراكية الجديد الذي قد طما سيله على اوروبا ولا يُعرف مستقبله الآن معرفة جليّة

ولما سمع ابو عبيدة جواب يزيد وحكم عمر انحرف نحو الامير وقال (ـ « لقد احسن

امير المؤمنين ورايه الموفق ان شاء الله في اسعاد احوال فقراء المسلمين . فان المسلمين اخوة وهم بعضهم لبعض كالبناء المرصوص . لا كالروم الذين يتمتع اغنياؤهم بملاذ الدنيا ويتركون فقراءهم كالكلاب »

ولكن ابا عبيدة كان يجهل ويا للاسف انّ ما حلّ بالروم في مدنيتهم الواسعة سيحل بالمسلمين ايضاً عند اتساع مدنيتهم ويقوم يومئذ « حق الملكية (١) المطلق » الذي عليه مدار المعاملات في هذا العصر مقام كل شيء

ولما همّ عمر بالرحيل الى معسكر المسلمين قرب بيت المقدس وهو على بعيره وعليه مرقّعته قال له بعض الامراء « يا امير المؤمنين لو ركبتَ بدل بعيرك جواداً ولبستَ ثياباً بيضاً » * لاستقبال الروم بها . فاجابهم عمر الى ذلك « فلبس ثياباً مصنوعة في مصر تساوي خمسة عشر درهماً (٢) وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخلق دفعه اليه ابو عبيدة وقُدّم اليه برذون اشهب من براذين الروم » * فلما صار عمر على ظهر البرذون صار البرذون يهملج به ويتجلجل ويختال . فاسرع عمر الى النزول عنه وضرب وجه البرذون وقال « لا اعلم من علّمك هذه الخيلاء » (٣) ثم التفت الى اصحابه وقال « اقيلوا عثرتي اقال الله عثرتكم يوم القيامة فقد كاد اميركم ان يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر واني سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرة من الكبر ولقد كاد إن يهلكني ثوبكم الابيض وبرذونكم المهملج » * ثم ان عمر خلع الثوب الابيض وعاد الى مرقعته وبعيره

فيا لجمال هذه الحركة التي نبذ بها عمر الثوب المصري الابيض ليعود الى لبس المرقّعة الصوفية وابعد الفرس المختال ليعود الى البعير الذلول المتضع . وربما يظهر ذلك لابناء هذا العصر حتى المسلمين انفسهم امراً غريباً صغيراً ولكن الذين يعرفون سرّ فعل عمر لا يستغربون صنعه . نعم ان كل ما في الارض من شقاء وشرور وفساد مصدره شيء واحد وهو « كبرياء الانسان » فالانسان لا يحلّل كل المحرّمات في سبيل جمع المال وانماء الثروة الاّ ارضاء لكبريائه . لا يسطو فردٌ على فرد او شعب على شعب لاذلاله وسلب ما في يده الا لارضاء كبريائه . لا يُرى الانسان متصدراً مختالاً فخوراً كانه مفرد في الدنيا كلها وكأنّ الدنيا كلها ملك يده مع انه اصغر من فيها — الا ارضاء لكبريائه . لا تُسخّر الالوف من البشر في بناء المدن

١ اي حرية الانسان في ان يملك ما يشاء ويتصرف به كما يشاء . وما دام هذا حقه المطلق ففرض الاحسان والزكاة عليه من قبيل العبث والغلو لان ذلك معلّق بارادته ٢) الواقدي عن الزبير ٣) ابن الاثير

والقصور وصنع الزخارف وحشد الجنود واقامة المعامل التي تشقى فيها فئة من البشر لتسعد بها فئة اخرى — الا ارضاء لكبريائه . فمتى مُحيت هذه الكلمة « الكبرياء » من قواميس البشر ومن نفوسهم فحينئذ تصبح الارض مكاناً طيباً ويبطل اصل الفساد فيها . حينئذ لا يعود فيها سيد ومسود . وعبد وحر . وكبير وصغير . وغني وفقير . بل يكون الجميع اخوة في الاتضاع والدعة والسذاجة ومكارم الاخلاق كما يكون الاولاد في طور سذاجتهم . فلنخفض هنا رؤوسنا احتراماً للامام الجليل الذي رام بتلك الحركة الجميلة سحق افعى الكبرياء في نفسه ونفس امته . ولنؤاخين بين هذه الحركة الجميلة وقول كتاب المسيحيين «ان لم ترجعوا وتصيروا كالاولاد فلا تدخلوا ملكوت السموات » — فان هذه بمعنى تلك وتلك بمعنى هذه

الفصل التاسع عشر

بين الامام عمر والبطريرك صفرونيوس

(فتح المدينة صلحاً)

معرفة البطريرك عمر من صفته . في ان نفس الاسكندر لم تكن اكبر من نفس عمر .
حديث سري بين الامام والبطريرك . الرق السري . صورة العهد .
فتح العرب اورشليم كان بلاء على الشرق كله

ثم سار عمر من الجابية وحوله امراء المسلمين وما زال سائراً حتى اشرف على معسكر الجند وبيت المقدس . فلما ظهرت له المدينة صاح « الله اكبر اللهم افتح لنا فتحاً يسيراً واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً » * وما اشرف عمر بموكبه على المعسكر حتى قامت العشائر والقبائل على ساق وقدم وهرعت لاستقباله بالتهليل والتكبير * فارتجت الارض واشرف اهل المدينة من عن الاسوار ليعلموا سبب تلك الضجة الهائلة . ولما علموا بقدوم عمر ذهب احدهم واخبر البطريرك « فاطرق البطريرك ولم يتكلم » * اما عمر فانه نزل في خيمة من شعر * ضُربت له بجانب خيمة ابي عبيدة * « فجلس فيها هناك على التراب . ثم قام يصلي اربع ركعات » *

وبات العرب تلك الليلة فرحين بقدوم اميرهم وخليفتهم . فلما كان الغد وصلى عمر صلاة الفجر قال لابي عبيدة « يا عامر تقدم الى القوم واعلمهم اني قد اتيت » * فذهب

ابو عبيدة وابلغ الواقفين على الاسوار هذا الخبر. فذهبوا واعلموا البطريرك «فخرج البطريرك من كنيسته وعليه المسوح وترجّل الرهبان والقسس والاساقفة معه وقد حمل بين يديه صليب لا يخرجونه الا في عيدهم وسار معه والي المدينة وهو يقول للبطريرك . يا أبانا ان كنتَ تعرفه معرفة حقيقية والا فلا نفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فاما ان نبيدهم واما ان يبيدونا »*

فاجابه البطريرك (— يا ولدي . انّ ولدنا ايليا الذي تعرفه كان يطوف امس على الاسوار فابصر الفارس الذي ذكره لنا وهو ابن معدي كرب فارسل اليه هذا الفارس نبلة وقد ربط بها كتاباً فيه ثلاث كلمات باللغة اليونانية وهي هذه « لقد وفد عمر » ولستُ اشكّ في صدق هذا الرجل بعد ما بلغني عنه . وفضلاً عن ذلك فان ولدنا يوحنا الغساني يعرف الامير لان بعض عرب المدينة وصفوه له . فقال الوالي وما صفته . فقال البطريرك : هو في الخامسة والخمسين من العمر (١) اصلع طويل يظهر لطوله كانه راكب . ابيض اشيب ابهق (اي شديد البياض) تعلوه حمرة وهو يصفر لحيته و يرجل رأسه » (٢)

فلما اشرف البطريرك ورجاله على ابي عبيدة من عن السور قال البطريرك « ما تشاء ايها الشيخ الباهي »* فاجاب ابو عبيدة « هذا امير المومنين عمر وليس عليه امير قد اتى فاخرجوا اليه واعقدوا معه الامان »* فقال البطريرك « يا ذا الرجل ان كان صاحبك الذي ليس عليه امير قد اتى فدعه يدنو منا »* واقرأه عني السلام (— وقل له انني احبُّ مقابلته فاستغرب ابو عبيده هذه اللهجة الودادية الجديدة . فعاد الى عمر وابلغه جواب البطريرك ولكنه لم يبلغه سلامه الا همساً في اذنه . فاطرق عمر ثم همّ بالقيام * « فقال له اصحابه يا امير المؤمنين . اتخرج اليهم منفرداً وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وانّا نخشى عليك منهم غدراً او مكراً فينالون منك »* فلم يجب عمر ولكنه قرأ الآية * « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتكل المؤمنون » ثم استوى على بعيره وعليه مرقعته « وعلى راسه قطعة عباء قطوانية وقد عصب بها راسه وليس معه الا ابو عبيدة وهو سائر بين يديه حتى قربَ من السور و وقف بازاء السور والبطريرك والوالي » *

وكان يوحنا الغساني الذي تقدّم ذكره واقفاً وراءهما

فلما دنا عمر من السور ووقع نظر يوحنا عليه همس يوحنا في اذن البطريرك والوالي قائلاً : وحياة العذراء مريم هذا هو

---

١ كان عمر عمر يوم وفاته اي بعد ثماني سنوات من هذا التاريخ ٦٣ سنة برواية ابن الاثير

٢ ابن الاثير

فاحنى البطريرك رأسه مسلماً ونادى من اعلى السور : افتحوا الباب للامير

فلم يفهم عمر كلام البطريرك ولكنه لم يلبث ان ابصر الباب يُفتح في وجهه وخرج الناس منه * « فتواضع عمر حينئذ لله وخرَّ ساجداً على قتب بعيره » * ثم نزل لملاقاة البطريرك اذ اعلموه انه قادم لاستقباله

وبعد دقيقتين ظهر البطريرك صفرونيوس في الباب ومعه قس من اخصائه يعرف العربية ليترجم له . فلما رآه عمر وابو عبيدة تقدَّم الاول وتنحَّى الثاني

وكانت الاسوار حينئذ غاصة بالناس وهم يتطاآون ليشاهدوا ملتقى عميدي المسيحية والاسلام وكأنَّ على رؤوسهم الطير

اما قبائل العرب من بعيد فانها كانت تهلل وتكبر ابتهاجاً بفتح بلد عيسى وموطن الانبياء

ولما دنا عمر من البطريرك مدَّ البطريرك اليه يده مصافحاً فمدَّ عمر يده اليه . وكان البطريرك ينظر في وجه عمر وعمر ينظر في وجه البطريرك . فيظهر ان نفسيهما اتفقتا الاول نظرة لانَّ النفوس الكبيرة تتعارف حين التقائها بالنظر كما يتعارف باقي الناس بالكلام . فابتدأ البطريرك الحديث بقوله : لقد طلبتُ ان يكون الامير الكريم متولي عقد الصلح بيننا لانني اذا وضعتُ هذه المدينة المقدَّسة في عهده وذمته خاصةً اكون في امنٍ عليها وعلى اهلها من كل وجه : وانا الآن التي مفاتيحها اليه

فلما ترجم الترجمان هذا الكلام لعمر اشار عمر برأسه موافقاً على كلام البطريرك واجاب : المسلم من حفظ العهد ورعى الود . ونحن جميعاً عباد الله فعلينا ان نكفل بعضنا بعضاً

فسرَّ البطريرك بهذا الجواب . وعلم انه وضع ثقته في من هو اهل لكلّ ثقة . فطلب من الامير ان يدخل معه الى غرفة قرب باب السور ليخلو به فيها بضع دقائق . فلم يتردد الامير في الدخول بل مدَّ رجله وتخطَّى عتبة الباب . فلما رآه ابو عبيدة يضع قدمه في تلك المدينة المدججة بالسلاح ليدخل اليها وحده اصفرَّ وجهه خوفاً عليه . وكأنَّ البطريرك قد تنبَّه لذلك من تلقاء نفسه . فانه لما رأى اصفرار وجه ابي عبيدة تألَّم من سوء الظن ووقف ممتنعاً عن الدخول بالامير . ففهم حينئذ عمر ذلك فنظر الى ابي عبيدة وابتسم ابتسامة تأنيب ثم دخل مع البطريرك

يروى في التاريخ القديم ان اسكندر الكبير كان يثق بطبيب له كل الثقة . ففي ذات يوم ورده كتاب فحواه ان هذا الطبيب عازم على تسميمه . واتفق ان الاسكندر فرغ من تلاوة هذا الكتاب حين دخول طبيبه عليه يحمل له كأس دواء . فتناول

الاسكندر الكأس في يد وناوله الكتاب في يدٍ اخرى · ثم شرب الكاس قبل ان يقرأ طبيبه ذلك الكتاب * فالمؤرخون والكتّاب يهتفون هتاف الدهشة حين وقوفهم على هذا الامر اعجاباً بثقة الاسكندر وشجاعته و يقولون انه لا يصدر الا عن نفس عظيمة كنفس الاسكندر · _ قلنا ولكن صنع عمر هذا ليس باقلّ من صنع الاسكندر

وكانت الغرفة التي اجتمع فيها عمر والبطريرك بجانب باب السور · ولم يكن معهما غير القس ترجمان البطريرك

فقال الامير بعد جلوسه موجهاً السؤال الى الترجمان ماذا يريد البترك

فاجاب البطريرك : اريد قبل كل شيء صداقة امير مثلك · فاننا نحن معاشر رؤساء الامم تجمعنا جامعة الرئاسة وان فرّقت بيننا المذاهب · وكلنا نعبد الهاً واحداً لا اله الا هو ولا شريك له وعلينا تدبير نفوس رعايانا لابقائها في سبيل الفضيلة والخير · فاذا اختلفنا في الجزئيات والظواهر فنحن متفقون في الكليات والبواطن · فعلينا اذاً ان ننظر الى ما يجمعنا لا الى ما يفرّقنا · ولذلك اطلب من الامير ثلاثة امور · الاول ان يكتب لنا عهداً بالصلح نحفظه عندنا للمستقبل · والثاني ان يوصي رجاله بان لا يتعرّضوا لاحد منا في دينه · والثالث انْ لا يصلّي بجانب قبر المسيح في كنيستنا الكبرى لانه يعلم انه اذا صلّى هناك طلب المسلمون جعل المكان مسجداً

فلما تُرجم هذا الكلام للامير أطرق ثم قال · أهذا كل ما يريده البترك · فقيل له نعم : فنهض عمر ووضع يده في يد البطريرك وقال : نحن كما قلتَ · اما العهد فساكتبه الساعة وارسله اليك · ولولا رغبتي في ان يشهد عليه شهود من المسلمين لئلا يُشتبه به في ما يأتي من الزمن لكتبته الآن · واما الوصية فوالله الذي نفس عمر في يده انكم لا تجدون احداً منا يعتدي على احد منكم بغياً وظلماً · وعندنا « لا اكراه في الدين » · واما الصلاة بجانب قبر عيسى عليه السلام فساءفعل ما ذكرتَ لانني اشد رغبةً منكم في اجتناب النزاع على قبر عيسى في مستقبل الزمان وانتم احقُّ منا به

ثم همَّ الامير بالخروج فمدَّ البطريرك حينئذ يده الى جيبه وتناول منها رقاً مطوياً · ثم ناوله للامير يداً بيد وقال للترجمان : اخبره ان هذا الرقّ مكتوب بلغتنا وفيه امرٌ سري لا أحبُّ ان يعلم احدٌ انني صاحبه · فليمعن فيه النظر ثم يعيده اليَّ غداً او بعده

فاخذ الامام عمر الرقَّ ووضعه في ثيابه ثم خرج مودعاً · ولما ظهر الامام لابي عبيدة من الباب تنفّس ابو عبيدة الصعداء وحمد الله على سلامته · ثم سارا معاً عائدين الى

معسكر المسلمين · فاستقبلهما المسلمون بهتاف طبق السماء ابتهاجاً بفتح المدينة · وقبل الظهر كتب الامام عمر عهد الصلح وارسله مع احد رجاله الى البطريرك وهذه صورته (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم · هذا ما اعطى عبدالله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها و بريئها وسائر ملتها انهُ لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضارُّ احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود · وعلى اهل ايلياء ان يُعطوا الجزية كما يُعطي اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم(٢) واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسهُ وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من اهل الارض قبل مقتل فلان (كذا) فمن شاء منهم قعد وعليهِ مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى اهله · فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم · وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية · شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان · وكتب وحضر سنة ١٥ »

فيا اورشليم استعدي فهذا عنصر جديد قد انضمَّ الى عناصرك · وكل محب للشرق يتمنى لو لم يكن هذا الانضمام لانه سيجرُّ على الشرق كله ويلات هائلة(٣) سيأتي يوم يا اورشليم الجميلة يُنسى فيه هذا العهد العمري فتشتدُّ دواعي الجهل والبغض بين عناصرك · وحينئذ يختل ميزان العدل بين الناس و ينشو الاضطهاد فيتخذ الغرب هذا الامر حجةً للزحف على شرقك رغبةً في استخلاصك · حينئذ تقوم حرب هائلة بين الشرق والغرب · وهي الحروب التي سيسمونها حروباً صليبية · وستجني هذه الحروب يا اورشليم على الشرق جناية هائلة لانها ستكون من اسباب زوال مدنيته العظمى وانتقالها الى الامم الغربية وزيادة الاحقاد بين العناصر البشرية زيادةً تشوّه وا اسفاه وجه الانسانية

---

١) كما رواه الطبري ٢) اي اليونان وهذا القول يدلُّ ابلغ دلالة على صحة استدلالنا السابق من ان العرب في زحفهم لفتح الشام كانوا مسالمين للامة السورية اي اهالي الشام ولم يكونوا معادين الا للروم « اليونان » ورؤسائهم ٣) هذا الراي جدير بالاعتبار اذ لولا الرغبة في استخلاص قبر المسيح لما تمكّن رؤساء الغرب من اثارة نفوس العوام والجنود في اوربا لسوقهم على الشرق

الفصل العشرون

﴿في حيّز هيكل سليمان القديم﴾

(المسجد الاقصى ـ عود الى استير)

ترجمة الرّق السري · الجواب عليه بابتسامة · عودة الى استير بعد رحيل ايليا · تخاصم ضرار وابن معدي كرب فيها · في دائرة الهيكل · كعب الاحبار واسلامه · مراقبة عمر له · رسول البطريرك الى عمر · بين استير وايليا · ارميا يضرب ضربة ثانية

وبينما كان البطريرك يتلو صورة العهد الذي ارسله عمر اليه ويتأمل فيه وفي قوله « ان يخرجوا الروم » كان عمر منفرداً بابي عبيدة يسأله ترجماناً لترجمة ما في الرق الذي دفعه البطريرك اليه · فقال ابو عبيدة : العجب من انه لم يعهد البترك الى ترجمانه ترجمته لامير المؤمنين · فقال عمر : لعله يا عامر يكره ان يعلم به احد من قومه فهات من يترجمه لنا ·

فبعث ابو عبيدة في طلب اليهودي يوسف

فلما وفد الشيخ ابو استير كان مضطرباً دامع العين · فسأله ابو عبيدة عن سبب بكائه · فاشتد بكاؤه واجاب انه رام الرحيل بعيلته منذ مدة لمعالجة اعتلال ألمّ بابنته فحالوا دون سفره · فسأله ابو عبيدة : ومن حال دون سفرك · فسكت يوسف

وكان الامام عمر يسمع الحديث فقال دون ان يلتفت الى يوسف : ياذا الرجل قل من حال دون سفرك

فاجاب الشيخ : ضرار وابن معدي كرب

فاصلح عمر جلوسه في مقعده وقال : مأرب لا حفاوة · ثم قال مخاطباً ابا عبيدة · ياعامر انظر في امر الرجل فانني ارى هنا ظلامة

فانفرد ابو عبيدة بالشيخ واستخبره الخبر · فعلم منه ان ضراراً وعمراً بن معدي كرب قد تبارزا في ذلك الصباح وكاد يجري دم احدهما لولا دخول بعض المسلمين بينهما · وسبب ذلك ان عمراً بن معدي كرب كان يطلب نقل الشيخ ابي استير الى خيمته من خيمة ضرار وضرار يأبى ذلك · فسأل ابو عبيدة الشيخ : وانت في اي الخيمتين تريد الاقامة · فاجاب الشيخ مضطرباً · اما انا فانني استأذن في السفر ايها الامير فان ابنتي في اعتلال شديد وقد سهرتُ طول الليلة عليها · فقال ابو عبيدة · متى شئت فارحل واذا منعك احد فاخبرني

لكن قبل رحيلك ينبغي ان تدخل معنا غدًا الى بيت المقدس لتكون دليلنا فيها

ثم ذهب ابو عبيدة وهمس بضع كلمات في اذن عمر · فانغض الامام راسه وقال « انهنّ فتنة للعالمين » · وبعد ذلك دفع ابو عبيدة « الرق السري » الى الشيخ وقال له · ترجم لنا هذا الرق واكتب ترجمته على رقٍ آخر وادفعهما الينا ثم عد من حيث اتيت

فاطاع الشيخ وفعل ذلك ثم عاد مسرورًا بانه سينقذ ابنته من مخلبي اسدين

ولكن الشيخ كان يتساءل وهو خارج من خيمة الامام بقوله : ترى من هو صاحب هذا الاقتراح الغريب الذي يُسقط آمالنا في مملكتنا · وبقي يفكّر في ذلك طول الطريق

اما عمر فبعد خروج الشيخ تناول ترجمة الرق باهتمام وصار يتلوها · وكان تارةً يبتسم في اثناء تلاوتها وطورًا يعبس · ولما اتى عليها اعاد النظر فيها · ثم بعد فراغه منها القاها الى ابي عبيدة وهو يبتسم فتلاها ابو عبيدة ثم نظر الى عمر مدهوشًا · فضحك عمر وقال : مزّق الترجمة ياعامر وسارد الاصل الى صاحبه

***

وبما اننا قد عدنا الى استير بعد التفاصيل الطويلة التي تقدَّمت فيجب ان نذكر ما جرى لها بعد دخول ايليا الى المدينة

بقيتْ استير تنتظر ايليا في ذلك النهار حتى جنَّ الليل · ولما ابطأ ظنَّت انه ذهب الى خيمة الامير عمرو بن معدي كرب حسبما طلب الامير · فنامت تلك الليلة مضطربة · وقد رأت في الحلم في تلك الليلة ان ايليا جاثٍ امامها يعيد لها التصريح بحبه · فانتبهت في الصباح وقدزاد حبُّها له

لكن في الصباح لم يأْتِ ايليا

فلما تعالت الشمس ولم يأْتِ ايليا ايضًا ازداد قلق استير · وكان ارميا يُكثر التردّد عليها وينظر اليها نظرات خصوصية لم تفهم معناها · وكان كأنه يقول لها بتلك النظرات « لقد ابعدتُه عنك الى الابد » · فلما انتصف النهار ولم يأْتِ ايليا ايضًا قالت استير لارميا · يا كيريه ارميا اين ذهب كيريه ايليا هل بات الليلة عند عمرو بن معدي كرب · فابتسم حينئذ ارميا ابتسامة شيطانية وقال : كلا ايتها السيدة : ان كيريه ايليا قد رحل الى المدينة

فاجفلت استير لهذا الكلام · وشعر ارميا ببغتتها فقال ليجهز على آمالها : والارجح عندي ايتها السيدة انه لا يعود لانه ودَّعني وداع فراق طويل

فصاحت استير ولماذا لم تخبرني بذلك قبل الآن . فاجاب ارميا وقد استشاط غضباً : لانكِ لم تسأليني عنه . وما اهمية رحيله فانّ الارض لا تزال ارضاً

نعم يا ارميا ان الارض عندك لا تزال ارضاً لم تتغيّر ولم تتبدّل ولكن قلب استير كان قد تغيّر وتبدّل . وليس شيء كالجفاء يغيّر قلوب النساء . فان استير مع حبها لايليا في ما سبق قد قدرت على فراقه في المزرعة فراراً منه وقد شعرت يومئذ انها بفعلها هذا قد فعلت فعلاً جميلاً سامياً لان ذكر « واجباتها لدين آبائها ولامها » كان يعزّيها عن كل شيء . ولكن لما تركها ايليا وذهب عنها تغيّر وجه المسألة عندها . فان هذا الجفاء منه احدث في نفسها حدثين عظيمين : الاول انه زاد حبها له وهذا شأن الجفاء على الدوام . والثاني انه جرح كبرياءها وانانيتها جرحاً بليغاً . ولهذين السببين صارت استير لا تطيق ترك ايليا قبل معرفة سبب جفائه هذا

ومنذ هذا اليوم بداءت استير تنحل و تذبل كزهرة انقطعت عنها مادة حياتها . وصارت تذهب في كل يوم الى طريق المدينة مع ابيها لعلها تجد ايليا راجعاً . وكان يذهب اكثر الليل وهي قاعدة في فراشها واذا نامت قبيل الصباح قليلاً فان صورة ايليا كانت تطاردها في رقادها . وكان يتمثل لها ايليا في احلامها هذه غاضباً عليها معرضاً عنها فتنتبه باكية مذعورة وتبقى النهار كله مفكرة متألمة

فلما مضت على استير بضعة ايام على هذا المنوال هزلت وانقلب لونها الوردي الى الاصفرار وقلّ طعامها . فجزع عليها ابوها وامها جزعاً شديداً . ولكنهما لم يقفا على سبب علّتها لان الآباء والامهات قلما يقفون على امثال هذه العلل

وفي اثناء ذلك اشتد التحاسد عليها بين ضرار وعمرو بن معدي كرب واغتاظت استير من تعرضهما لها فعزم ابوها على الرحيل بها عن معسكر العرب . الا ان استير رفضت السفر لغير المدينة المقدّسة واقنعتْ امها العجوز المتدينة بالاقامة لحضور الحفلة الكبرى التي سيقيمها العرب لاعادة بناء هيكل اليهود القديم . فتمسكت العجوز بهذا المطلب لانه كان من اقصى امانيها كما تقدّم

* * *

وكان اليوم الذي تم فيه عقد الصلح يوم احد من شهر اذار * في مساء اليوم التالي وهو يوم الاثنين عزم الامام عمر على دخول المدينة لتخطيط مسجد فيها * فركب في نخبة من امراء المسلمين واعيانهم ودخل الى المدينة ليلاً * فاضطربت المدينة لدخولهم وصار

الناس يسترقون النظر اليهم من النوافذ . وكان الشيخ ابو استير معهم في دخولهم ليدلهم فيها وامامه حمار عليه زوجته العجوز وابنته استير وهي تكاد لا تستطيع الاستواء على مطيتها من الضعف والاعتلال

ومما لا يحتاج الى بيان ان ارميا كان وراء مطيتها بجانب ابيها

ولما صار عمر ورجاله في المدينة اخذهم الشيخ الى دائرة الحرم الحالية . فلما اشرفوا على هذا المكان الذي فيه المسجد الاقصى وبيت المقدس هللوا وكبروا . وكان بيت المقدس (١) مدفونًا بالتراب وفضلات المنازل ولم يكن ظاهرًا منه غير الجدار الذي في زاوية سور الحرم الى الجنوب الغربي وهو من آثار هيرودوس الكبير * ولا يزال الى اليوم مناحة الاسرائيليين كما تقدم في موضع آخر

فترجَّل عمر ورجاله ودخلوا دائرة بيت المقدس * ولم يلبث ان بزغ الفجر فصلوا فيها صلاة الفجر *

وما كاد عمر يصلي صلاة الفجر حتى قيل له ان رجلاً من اعيان الاسرائيليين قد وفد من احد بلدان فلسطين يريد لقاء الامام * ثم ادخل عليه كعب الاحبار * فسلم كعب * فردّ عمر السلام وقال له « من انتَ » * فاجاب الرجل « انا كعب الاحبار واني جئتُ اريد الاسلام والدخول فيه » * فقال عمر « احقًا ما تقول يا كعب » * قال « الله يسمع ما اقول ويعلم ما تخفي الصدور . لكن يا امير المؤمنين هل ورد في كتابكم الذي انزل عليكم في امر دينكم ذكر ابرهيم » * فقال عمر نعم وقرا له الآيات التي ذُكر فيها ابرهيم . منها « ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابرهيم واسماعيل واسحق الهًا واحدًا ونحن له مسلمون » فاسلم حينئذ كعب وفرح المسلمون باسلامه *

اما ابو استير فانه اضطرب لاسلام كعب وقال في نفسه : اننا لا نستفيد شيئًا اذا كانت امتنا ستضيع في الاسلام كما تضيع جرة ماء في البحر . وهيكلنا سينتقل من يد عدوٍّ قديم الى يد عدو جديد

ولما اشرقت الشمس سأل عمر عن « بيت المقدس » (٢) وذهب اليه مع كعب الاحبار

---

١ اي هيكل سليمان القديم

٢) هيكل اليهود القديم كما تقدم والراجح ان هذا المكان هو مكان جامع عمر اليوم او هذا الجامع قسم منه واما المسجد الاقصى فهو بجانبه وكان يوم الفتح الاسلامي كنيسة للعذراء بناها الامبراطور جوستنيانوس

وجمهور المسلمين . وفي دخوله الى ذلك المكان قال « ارقبوا لي كعباً » * ثم قال « ايها الناس اصنعوا كما اصنع » * وبعد ذلك جثا الامام على تراب الارض واخذ فرجاً من فروج قبائه ووضع فيه التراب لينقله ويكشف عن آثار المكان * واذا به يسمع تكبير اصحابه وراءه * فقال ما هذا . فقالوا : كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره * فطلب كعباً فأُتي به فسأله عن سبب تكبيره . فاجابه ان احد انبياء بني اسرائيل تنبأ منذ عدة قرون بما يفعله الامير الآن من اكرام هذا المكان بعد اهانته وكان عمر قد قصد بكشف التراب تخطيط جامع هناك فوق الصخرة(١)وهو المعروف اليوم بجامعه * فسأل كعباً « اين ترى ان نجعل المصلى » فاجاب كعب « الى الصخرة » فقال عمر « ضاهيتَ والله اليهودية يا كعب . وقد رأيتك وخلعك نعليك » فاجاب « احببتُ ان اباشره بقدميّ » فقال عمر قد رأيتك . بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها . اذهب فانّا لم نؤمر بالصخرة ولكن أُمرنا بالكعبة *

ومنذ هذا اليوم ارتفعت تحت سماء اورشليم جدران هيكل سليمان القديم الذي هدمته المسيحية لانه كان السبب في صلب صاحب شريعتها

وقد اقام عمر في بيت المقدس من يوم الاثنين الى يوم الجمعة * فلما كان يوم الجمعة كان عمر قد فرغ من تخطيط مسجده وعزم على الصلاة فيه بالمسلمين * فيظهر ان الروم بعد ان شاهدوا العرب من قريب ازدروا بهم واستضعفوهم وندموا على مصالحتهم فتآمر بعض غلاتهم على نقض الصلح والهجوم على امراء المسلمين في يوم الجمعة في المدينة فاذا قبضوا عليهم او قتلوهم بقي المسلمون بلا قواد فيضعف امرهم وتتفرق كلمتهم(٢) فلما علم البطريرك بهذه المؤامرة غضب وبعث يُنذر المحرضين عليها بسوء المنقلب اذا خانوا العهد . فبدا لهؤلاء المحرضين امر آخر وهو انهم اوعزوا الى فريق من اهل المدينة ان يبدوا زيناتهم واموالهم ويخرجوا الحسان الى الاسواق والشوارع لعلّ العرب يمدُّون ايديهم الى تلك

١ اختلفوا في اصل الصخرة . على انَّ في جهات شرقي الاردن على الخصوص آثاراً من قبل التاريخ هي عبارة عن حجرين مستطيلين قائمين عمودياً وفوقهما حجر مستطيل ايضاً قائم افقياً . وبعضهم يقول ان هذه الآثار الحجرية كانت قبوراً بدليل وجود عظام في ارضها وبعضهم يقول بل انها مذابح كانت تُقدَّم عليها الذبائح قبل التاريخ . ويستدلون على هذا بان الحجر الافقي الممدود على الحجرين العموديين منحرف ومائل قليلاً ليجري عنه السيال دم الذبيحة . وربما كان بنو اسرائيل يقدمون الذبائح عليها للرب في الزمن القديم . والصخرة الحالية هي على الارجح احدها . وقد كانت جزءاً من هيكل سليمان القديم « رنه دوسو »

٢ لم نرَ في غير الواقدي اثراً لهذا الغدر . ومبالغاته مشهورة

الاموال والنفائس فيكون لاهل المدينة عذر في نقض الصلح . فبينما كان عمر يستعد لصلاة الظهر في يوم الجمعة واذ قد وفد عليه رسول من قبل البطريرك ومعه القس الترجمان فادخلوهما على عمر . وكان الشيخ ابو استير واقفاً مع استير في ذلك الحين بعيداً عن مضرب الامير في دائرة الحرم يريها حدود هيكلهم القديم . فلما مرّ الرسول والترجمان من امامها صاحت استير وامتقع لونها . — ذلك لان هذا الرسول كان ايليا

ولكن ايليا لم ينتبه للفتاة وابيها فبقي داخلاً مع الترجمان على الامير عمر . ولما مثل بين يديه اخبره من قِبل البطريرك بما قصده بعض متحمسي العوام وسأله ان يوصي قومه بان لا يدعوا لهم سبيلاً الى ما يريدونه . فسرّ عمر بصدق نصيحة البطريرك واوصى المسلمين في صلاة الجمعة بما اوصى . وبعد الصلاة ذهب ابو عبيدة يتجوّل بنفسه في الاسواق مع بعض رجاله . وكلما وقعت انظارهم على الحلى والنفائس والنساء الحسان كانوا يقولون : «الحمد لله الذي اورثنا ديار قوم لهم مثل هذا»* . وهكذا لم يلمس احد من المسلمين متاعاً لاحد من اهل المدينة . فلما سمع البطريرك بذلك قال « لا يقوى احد على هؤلاء ما داموا على ما هم عليه من التزام الحق » (١)

وبعد ان ابلغ ايليا الامام عمر هذه الرسالة بقيت عليه رسالة اخرى تقتضي مقابلة الامير وحده . فاستأذن ايليا منه بالانفراد به فاذن عمر في ذلك . فلما صار ايليا امام الامير وحده قال له بلسان رفيقه الترجمان « انا موفد ايضاً من قِبل البطريرك لاسأل الامير ماذا فعل بالرق الذي دفعه اليه » — فلما سمع عمر ذلك مدّ يده الى ثيابه واخرج الرق وقال « اقرىء البترك السلام وقل له ان هذا ما أتى اوانه بعد وربما عدنا اليه » فتناول ايليا الرق مختوماً ووضعه في جيبه

ولما همّ ايليا بالخروج من لدن الامير ليعود بالرق والجواب الى البطريرك قال له عمر : صبراً ايها الشاب فان لي اليك حاجة . فقال ايليا . انا طوعٌ لامر الامير . فقال له الامير . تربص هنا الى ما بعد الصلاة فاخبرك عن حاجتي

فامتثل ايليا امر عمر وخرج لينتظره خارج الخيمة

ولكن كان خارج الخيمة شخصان ينتظران ايليا ايضاً وهما استير وابوها

فلما وقع نظر ايليا على استير من بعيد سرت في جسمه كهربائيته القديمة . فتضعضعت

---

١ معنى هذه العبارة منسوب في الواقدي لابي الجعيد . وهنا نعيد للمرة الثالثة قولنا ان الذي لا يوضع عليه علامة النجمة فليس من التاريخ في شيء الاّ اذا نبهنا اليه

حواسه وانقدت النار في صدره ودماغه

فتقدم ابوها مسرعاً الى الشاب وسلّم عليه ببشاشة . فردّ ايليا سلامه بعبوسة لانه لم ينسَ انه كان جاسوساً وخدعه . وفي هذا الحين سمع ابو استير صياحاً فعلم انه صوت زوجته العجوز المقعدة وكانت تتألم من مرضها فاسرع اليها . فبقيت استير مع ايليا وجهاً لوجه

فتقدمت استير حينئذٍ نحو ايليا ببطء مترددة ولما صارت قريبة منه مدّت اليه يدها وقالت : هل يسمح لي كيريه ايليا ان اصافحه كما يتصافح العرب

فرام ايليا الجواب ولكنه لم يقدر لشدة تاثره خصوصاً لما رآه على وجه استير من آثار الضعف والاصفرار والاعتلال . ولكنه جمع قواه بعد ذلك وصاح : ما بكِ يا سيدتي . فابتسمت استير ابتسامةً يسميها كتّاب الافرنج « صفراوية » وقالت بين شفتيها بصوتٍ منخفض « يسألني ما بي . . . كانه لا يعلم ما بي . . . . » ثم اجابت ايليا « طرأ اعتلال على صحتي يا كيريه ايليا . . وانتَ كيف انت . . . انني اراك في صحة وعافية فيظهر انّ هواء المدينة وافق مزاجك »

وقد قالت استير هذا القول متهكمةً لانها كانت ترى نحول ايليا واصفرار وجهه . فابتسم ايليا لهذا التهكم من استير واجاب « اشفقي عليّ ايتها السيدة لانني اشدّ اعتلالاً منك »

فسكتت استير واطرقت . وبعد حين قالت بغتةً « يا كيريه ايليا لماذا ذهبتَ دون ان تودّعنا »

فسكت ايليا .

فقالت استير « كيف طاوعتك نفسك يا ايليا على تركي وحدي بين هؤلاء الاقوام بعد ذهابك من المزرعة في طلبي . وماذا طرأ عليك فغيّر عواطفك هذا التغيير »

فسكت ايليا ايضاً

غير انه رأى انه لا بدّ من الكلام ففكّر في ماذا يقول واذ وجد ضالته اجاب متلجلجاً : ياسيدتي انني بعد ان اطمأنّ قلبي ووجدتك سالمة في حيّ العرب ذهب خوفي عليك واعدتُ قراءة كتابك الذي تعرفينه فرأيتُ من واجباتي الابتعاد عنكِ امتثالاً لارادتك

ولكن ايليا لم ينطق بهذا الكلام حتى سمع صائحاً يصيح من وراء خيمةٍ كانت قريبة منه ويقول بغضب « هذا كذب محض فلماذا لا تقول الصدق »

فالتفت ايليا واستير فابصرا ارميا

ذلك ان المعتوه كان مختبئاً وراء تلك الخيمة يسمع حديثهما . فلما راى ان ايليا

واستير يتدرّجان في حديث لطيف الى عواطفها القديمة خاف ان يعود ايليا الى استير ويضرب صفحًا عن حالة ابيها . ولذلك ثار من مكمنه كذئب كاسرٍ وقطع حديثهما

فلما رآه ايليا وسمع قوله ازداد وجهه اصفرارًا فغضب وصاح به « ما شأنك يا ابله اذهب في سبيلك »

فبهذا اخطاء ايليا خطاء عظيماً لانه زاد رغبة المعتوه في الانتقام منه وايذائه ابعادًا له عن استير . فصاح ارميا بغضب شديد . اذا كنتُ انا ابله فانتَ كاذب لئيم لا تستحقّ شعرة من رأس هذه الفتاة . اسمعي يا استير لاخبركِ الحقيقة . ان هذا الشاب يحتقركِ . وقد تركاك لاعتقاده بانك ابنة جاسوس دنيء باع شرفه للعرب . وهذا ما فهمته منه يوم تركه معسكر العرب ودخوله الى المدينة

فلما سمعت استير هذا الكلام صاحت صيحة من اعماق صدرها وسقطت مغشيًا عليها فخرج الناس من خيامهم لهذا الصراخ واسرع ابو الفتاة على صوتها . ولما رأوها في تلك الحالة نقلوها الى خيمة قريبة لمعالجتها وابوها يبكي ويسأل ماذا اصابها

اما ايليا فانه كان في اشد حالات الاضطراب فطلب من رفيقه القس الترجمان ان يقبض على ارميا لمعاقبته على افترائه عليه . فتملّص ارميا من القس وصار يضربه ويهجم على الاثنين صائحًا بجنون . انا لست منكم .. انا عرب عرب .. لقد صرتُ مسلمًا .. دعوني وشأني ... فانني لا اعرفكم ....

ومن ذلك يظهر انه من اوّل يوم من ايام الفتح الاسلامي بداء في جسم السلطة المسيحية في الشرق نوع جديد من الانحلال فيها كان يلجاء اليه كل مستاء منها . وكان هذا الالتجاء احيانًا للانتصاف من ظلمٍ واحيانًا للفرار من حق كما صنع ارميا هنا

الفصل الحادي والعشرون

✵ في قبر المسيح ✵

وبعد صلاة الظهر استدعي الامام عمر رسول البطريرك . فاتي اليه بايليا . وكان ايليا حينئذٍ كاسف البال لحادثة استير . فقال له عمر : ياذا الشاب . دلّنا على قبر عيسى عليه السلام وادخل معنا اليه لتكون دليلنا فيه . فامتثل ايليا امر امير العرب وسار به

وبنخبة من رجاله قاصداً كنيسة القيامة

ولما بلغوا باب الكنيسة وقف عمر وقال : الفاتحة ايها المؤمنون على ذكر سيدنا عيسى . فخشع المسلمون ووقفوا يقرأون الفاتحة قبل دخولهم الباب . فعجب ايليا والقس رفيقه من ذلك الخشوع في صلاتهم

ثم دخلوا الكنيسة حتى اتوا قبر المسيح

فلما وقف عمر امام القبر جمد في مكانه وجمد المسلمون وراءه واخذوا يحدقون بالغرفة المحيطة بالقبر . ثم طلب عمر الدخول الى الغرفة للتسليم على " روح الله " فدخل اليها مع رجاله . ولما صار رئيس الاسلام المنظور في ذلك المكان الهادئ الكريم المحاط بالاكرام من كل جانب لانه ضمّ يوماً جسم رئيس المسيحية الغير المنظور دبت قشعريرة شديدة في نفوس الحاضرين . وتحرّكت قلوبهم للصلاة في ذلك المكان . ولما فطن عمر الى غرضهم تذكّر طلب البطريرك فاسرع وقال : الفاتحة ايها المؤمنون . فقرءوا الفاتحة ثانيةً على قبر المسيح بدل الصلاة . وبعد ذلك استلم (١) كل واحد منهم البلاط الرخامي الذي على القبر ومسح وجهه وخرجوا . ولما صاروا بجانب باب الكنيسة الخارجي طاوع الامام نفسه حينئذ على الصلاة فقال : الصلاة ايها المؤمنون . ففرشوا ارديتهم على الارض وركعوا وراء الامام وصلوا هناك صلاة طويلة بخشوع يحق لجميع الامم ان يحسدهم عليه . — وهذا المكان هو الذي اقام فيه المسلمون بعد ذلك مسجداً تذكاراً لصلاة الامام هذه * وبذلك سوّى الامام عمر العادل بين الفريقين (٢)

ولما خرج الامام والمسلمون من كنيسة القيامة . قال الامام لايليا . ما اسمك ايها الشاب . فاجاب ايليا : ايليا ايها الامير . فقال الامام اسم مبارك . يا ايليا ولئن ابطأتَ على سيدك البترك دلنا على المكان الذي رُفع منه عيسى عليه السلام . فقال ايليا هو على جبل الزيتون خارج المدينة ايها الامير . فقال الامير لرجاله هلموا بنا الى جبل الزيتون

---

١ في اللغة استلم الحجر الاسود لمسه اما بالتقبيل او باليد او مسحه بالكف من السلمة وهي الحجر وربما استعمل في غير الحجر فيقال استلمت يده اذا مسحتها او قبلتها ومنهُ قول الفرزدق في الحسين

يكاد يمسكه عرفان راحته   ركن الحطيم اذا ما جاء يستلمُ

٢ بعض قصاصي العرب يقولون ان الامام عمر والبطريرك اتفقا على ان يطلب البطريرك كنيسة الحرم التي هي اليوم المسجد الاقصى و يعرض على العرب كنيسة القيامة وذلك لكي يرفض العرب ذلك و يطلبوا عكسهُ ولكن هذه الرواية بعيدة التصديق لان عمر كان قادراً على حمل العرب بباسه على ما يريده رغماً عنهم فلا حاجة لهذا التدبير

واجتاز الامام المدينة بموكبه مع ايليا قاصدين جبل الزيتون · وكان الامير في طريقه يمعن النظر في ما يبدو على المدينة واهلها ومنازلها من آثار البذخ والترف والجاه والثروة · فلما صار خارج المدينة قال لايليا · يا ايليا هل لك ان تقص علينا شيئاً من اخبار مملكتكم وقومكم خصوصاً حروبكم مع الفرس التي سمعت ببعضها · فانني ارى عندكم مملكة عظيمة واماً عديدة وجنداً كثيفاً ومدنية واسعة فماذا صنع ولاتكم الروم حتى تقاص هذا الظل ودالت هذه الدولة

فسكت ايليا ولم يجب اولاً لانه وجد انه لا يليق به الكلام بهذه الشؤون الداخلية مع امير اجنبي لايزال في حرب مع مملكته في جهات اخرى · ولكن لما آنسه لدى الامير من رقة الجانب والرفق ومكارم الاخلاق فضلاً عن معرفته ان هذا الفاتح الجديد قد حل محل الفاتح القديم قد رأى انه لا يخطىء اذا اغتنم هذه الفرصة لخطبة وداد رئيس الفتح الجديد وجر النفع لصاحبه الشيخ سليمان صاحب المزرعة · فاجاب الامير قائلاً · اذا شاء الامير دللته على شيخ جليل شهد حرب الفرس بنفسه وزار القسطنطينية ووقف على كل اخبارها فيستخبر الامير منه ما يروم الوقوف عليه · فصاح الامام عمر : احسنت يا ايليا · جئني بهذا الشيخ الذي شهد حروب الفرس فاننا ممن يكرمون الشيوخ وهو خير المخبرين

الفصل الثاني والعشرون

﴿ حديث سياسي للشيخ سليمان ﴾

الامام عمر يصغي الى ترجمة الامبراطور هرقل وحروبه الكبرى مع الفرس واسباب ضعف سلطنة القسطنطينية (بزنطية او الروم)

فاستاذن ايليا حينئذ واعمل المهماز في شاكلة جواده قاصداً المزرعة وراء جبل الزيتون بعد ان تواعدوا على الالتقاء تحت الارزة التي على الجبل ·

ولا يقدر القلم على وصف السرور الذي حاق بالشيخ سليمان واهل المزرعة حين عودة ايليا اليهم بعد ان يئسوا من عودته كل تلك المدة الطويلة ولم يقفوا له على اثر مع كل بحثهم وتفتيشهم وقد قص ايليا على الشيخ سليمان كل ما جرى له منذ وقوعه اسيرًا في ايدي العرب والتقائه باستير وابيها وتركه اباها وشانها بعد التقائها بابيها وفتح المدينة وطلب رئيس الفتح الشيخ

سليمان ليسمع منه اخبار المملكة وتفاصيل الحرب الكبرى التي قامت بين الامبراطور والفرس · وان هذه خير فرصة نغتنم للتقرب من هؤلاء الفاتحين

فركب الشيخ سليمان مع ايليا وقصدا الجبل فوجدا الامام عمر والمسلمين ينتظرونهما تحت الارزة

ولما وصل ايليا والشيخ سلّم الشيخ باحترام على الامير فردّ عليه الامير السلام وحادثه هنيهةً ثم طلب ان يرى المكان الذي رُفع منه عيسى فذهب ايليا به وبحاشيته الى هذا المكان · وبعد ان شاهدوه عادوا وجلسوا تحت الارزة

ولما اخذ كل واحد منهم مكانه قال الامام : ايها الشيخ قصّ علينا ما رايته في تلك الحروب الشديدة · وقبل ذلك اخبرنا عن اصل ملككم هِرَقْل (١) فانني سمعتُ انه لم يكن ابن ملك

فقال الشيخ · بل هو ابن امير ايها الامير · وقد نال المملكة بهمته · وتفصيل ذلك (٢) انه في زمن الامبراطور موريس حدثت ثورة في بلاد الفرس اضطرت ملكها هرمز الى الفرار منها والالتجاء الى القسطنطينية · فاكرمه سلطانها موريس وامده بالجنود فعاد هرمز الى كرسيه* وملك باسم كسرى برويز (٣) وكانت الحروب يومئذ قائمة بين الامبراطور موريس والتتر · وكان لدى ملك التتر الوف من اسرى الروم · فطلب ملك التتر نصف دينار فدية كل اسير · وكان الامبراطور موريس مشهورًا بالبخل مع شدة بأسه فأبى دفع هذا المبلغ فقتل حينئذٍ ملك التتر اولئك الاسرى نكاية له · فلما علم الشعب في القسطنطينية بذلك ثاروا على الامبراطور وخلعوه وولوا مكانه احد قواد الجند ويُدعى (فوكاس) (٤) فقبض فوكاس على موريس وابنائه وقتلهم · فلما بلغ هذا الامر الى مسامع ملك الفرس غضب ونهض لمحاربة فوكاس · وذلك لسببين · الاول الانتقام منه لموريس الذي احسن اليه والثاني لاغتنام هذه الفرصة وتوسيع املاكه · فدخل جيش

---

١) في الاصل « هرافليوس » وهرقل ماخوذة من Eracle وهي اسمه مصغر تحبيبًا

٢) كل ما يرد في هذا الفصل عن لسان الشيخ ملخص من تاريخ بزنطية وان لم يوضع عليه نجمة

٣) يسميه الافرنج خسرو الثاني اي كسرى الثاني او « الملك العظيم »

٤) هو المشهور في مصر بانه امر عامله فيها بمنع المصريين من تولي الوظائف الاميرية لتخصيصها باليونان فثار لذلك المصريون بالاسكندرية بتحريض اليهود على الاكثر فانتقم الامبراطور من اليهود بان اجبرهم على التنصّر وعمّدهم قسرًا

الفرس يومئذ الى سوريا فاتحاً . وفي اثناء ذلك ظهر ضعف فوكاس وسخط عليه الناس فكاتبوا رجلاً من اكابر قواد الجيش كان والي افريقيا ويُدعى « هراقليوس » ان ياتي اليهم ليخلعوا فوكاس ويبوّأوه . وكان لهذا الوالي ابن يُدعى ايضاً هراقليوس وابن اخ يُدعى نيستاس . فجهّز هراقليوس الابن اسطولاً عظيماً وحشد نيستاس جيشاً كثيفاً واتفقا على الزحف الى القسطنطينيّة لاسقاط فوكاس . الاوّل بحرًا والثاني برًّا عن طريق مصر وسوريا . وتعاهدا على ان الذي يسبق الى العاصمة تكون المملكة له . فسبق اليها هراقليوس الابن باسطوله فخلع فوكاس اعداؤه وقتلوه وولوا هراقليوس مكانه وهو الامبراطور الحاضر

وما مرّت اربع سنوات على ملك الامبراطور حتى فتح الفرس سوريا ومصر واستولى قائدهم شهرباز الملقب « بالجاموس الملكي » على هذه المدينة (القدس) فاحرق كنيسة القيامة واخذ منها الصليب الحقيقي (١) . ثم اشتدّ الاضطراب في السلطنة وقام انصار فوكاس يطلبون ثأره وتوفيت زوجة الامبراطور فتزوج ثانية باخت زوجته خلافاً لنظام الكنيسة . وكان الامبراطور فقيرًا لا يملك مالاً ينظّم به امور ملكه . فيئس من هذه المصاعب وعزم على الالتجاء الى قرطجنة (تونس اليوم) ليتخذها قاعدة ملكه بدل القسطنطينية استراحةً من الفتن . ولكن البطريرك سرجيوس شدّد عزائمه واخذه الى كنيسة آجيا صوفيا واجبره فيها على ان يقسم بانه لا يترك العاصمة . فقوي عزم الامبراطور وبعث برسالة خصوصية الى ملك الفرس يجامله فيها ويطلب منه الصليب ويسأله عقد الصلح . فاجابه كسرى برويز جواباً مهيناً ثارت له الامة كلها . ففتح البطريرك سرجيوس خزائن الكنيسة واخرج منها للامبراطور الاموال اللازمة لحشد الجند وتهافت الناس من كل صوب على التطوّع في سبيل استرداد الصليب . وفي ثاني يوم من عيد الفصح سنة ٦٢٢ تناول الامبراطور سرّ القربان في حفلة رسميّة حافلة وخرج من القسطنطينية بجيشه يطلب بلاد الفرس والحماس شديد في الامة . وقد نزل باسطوله وجيشه في عرصوص (قرب الاسكندرونه) وهو المكان الذي نزل فيه قبلاً اسكندر الكبير لما قصده داريوس . وقد احسن الامبراطور بهذا الاختيار لان المقاتل يستطيع من ذلك المكان اصابة سلطنة الفرس في قلبها

وكنتُ يومئذ ايها الامير الجليل قائد مئة في هذا الجيش . فاجبرنا الفرس على الانسحاب من مصر وسوريا واخذنا نطاردهم من مكان الى مكان والنصر حليفنا . وكانت الامبراطورة

(١) سنة ٦١٤ م

معنا ترافق الامبراطور لرغبتها في ان تكون اول من يسترد الصليب . وكان كسرى برويز قد نزل في قنزكا من اعمال اتروباتينا (١) باربعين الف مقاتل وجعل باقي جنده تحت قيادة قائده الكبير سايس . فهاجمها الامبراطور وهو في طريقه يخرب المدن والقرى ويحرقها . ولما بلغ قنزكا فرّ كسرى من وجهه فدخلها الامبراطور وهدم هيكل الشمس المشهور الذي كان فيها وحطم آلات صناعية كانت فيه تمثل انقضاض الصاعقة ونزول المطر . (٢) ولما خاف انضمام الاتراك الى الفرس تقرب الى « زبيل » زعيم الترك فقابله في تفليس ووعده بان يزوجه ابنته . وبذلك جعل الاتراك من حزبه . وبعد ست سنوات من سفره اي في سنة ٦٢٨ وصل دستجرد عاصمة الفرس ففرّ كسرى منها ايضاً فدخلها الامبراطور واحرق تلك العاصمة الفاخرة . وبذلك تضعضعت مملكة الفرس فدبت بين اهلها عقارب الانحلال والفتنة . واصيب كسرى بمرض عضال فاوصى بالملك لاحد ابنائه فقام عليه ابن آخر فاستأثر بالامر وسجن اباه وعذبه حتى مات . وكتب هذا الابن فصالح الامبراطور ومن ذلك الحين اشتغلت مملكة الفرس بفتنها واضطراباتها الداخلية

اما الصليب فقد كان مخبوئاً في قنزكا عاصمة عبادة النار وقد دل عليه القائد شهرباز . فلما وجده الامبراطور دخل به الى القسطنطينية ظافراً ارتجت السلطنة من جهاتها الاربع . ثم جاء به بنفسه ونصبه هنا في الجلجلة بيده

وكان الشيخ يتكلم والترجمان يترجم كلامه والحاضرون مصغون كأن على رؤوسهم الطير . وكان خالد بن الوليد اشدهم اهتماماً بهذا الحديث لانه دخل بلاد الفرس وفتح كثيراً من بلدانها كما تقدم . فلما فرغ الشيخ من كلامه ووقف يستريح انحنى خالد نحو ابي عبيدة وقال له (— كان مثل الروم مثل كلاب الصيد فانها اصطادت لنا لا لها . اذ بسحقها سلطنة كسرى سهلت علينا الاستيلاء على بلاد فارس . ولولا ذلك فربما تعذر علينا فتحها

فالتفت حينئذ الامام عمر الى خالد وقال (— لقد سمعتك يا خالد فاتقِ الله فانه لا معين سواه .

فسكت خالد ولم يبدِ جواباً .

---

١) هي اليوم توريس من اعمال اذربيجان . ومعنى اذربيجان بلاد النار وقد سميت كذلك لان الفرس كانوا يومئذ يضعون فيها اعظم نيرانهم التي كانوا يعبدونها ـ وقد خبئوا يومئذ الصليب في هذا الموضع

٢ » هذا يدل على ارتقاء الفنون عند الفرس يومئذ

ثم التفت عمر الى الترجمان وقال (— سل الشيخ . فاذا كانت هذه قوة الملك وجنده يومئذ فما حلّ بتلك القوة . ولقد سمعتُ ان الملك احتاج المال فاين ذهب بالغنائم التي غنمها جيشه من الفرس وهم مشهورون بالغنى والكنوز

فاجاب الشيخ اما الكنوز التي عاد بها من بلاد الفرس فانه دفعها كلها الى بطريرك القسطنطينيّة وفاء للاموال التي اخذها منه لتعبئة الجيش والانفاق على الحرب كما تقدَّم . وهذا ما اسخط الجند والامة . وقد قال بعضهم ان ذلك حقٌ لانه وفى ديناً عليه ولكن البعض الآخر يقول ان املاك واموال الاكايروس انما جُمعت من الامة فاذا انفقت في سبيل الامة كان انفاقها في خير الوجوه . فبدل اعادة تلك الاموال الى خزائن الاكايروس وحبسها فيها كان يجب اصلاح احوال الامة بها

فقال عمر احسنتَ ايها الشيخ البهي

فاردف الشيخ بقوله . اما ضعف المملكة بعد تلك القوة فله اسباب عديدة . واذا شئتم بسطتُ لكم تلك الاسباب كلها

فاجاب عمر تكلم ايها الشيخ

فقال الشيخ بعد ان تنحنح والقى نظرة الى ايليا

لما تغلّب قسطنطين الكبير على رومه نقل كرسي الملك الى بزنطيه (١) فانشقت الامبراطورية الرومانية الى شطرين : شرقي وهو هذا وغربي وهو شطر رومه . وبما ان العنصر اليوناني كان حفظ نفسه في المستعمرات الرومانية اثناء الحكم الروماني فقد نمت امبراطوريته الشرقيّة نموًّا سريعًا . وكان سلاطين هذه الامبراطورية يسمون انفسهم « امبراطرة الرومان » ويجعلون اللغة اللاتينيّة لغة رسميّة الاّ ان السلطنة مع ذلك كانت يونانية في الباطن . وهذا ما كان من اسباب قوّتها . وهكذا بينما كانت رومه والامم التابعة لها تخضع لملك القوط وتصير امماً بربرية كانت سلطنة الشرق بمركزها البزنطي الجامع بين يونان الغرب ويونان الشرق زاهية زاهرة لا سلطة لاحدٍ عليها

ولكن في مقابلة ذلك كان بين كنيستي رومة والقسطنطينية فرق كلي . فانّ الاولى كانت تهتمّ بالمسائل العمليّة المفيدة فائدة اجتماعية وتطبّق عليها المبادىء الدينية . واما الثانية فانها انصرفت من سوء الحظ الى مجادلات عقيمة في لاهوت المسيح (٢) كما سيجيء

---

١) الاستانة اليوم

٢ بايبيت في تاريخ بزنطيه

ولما قام الامبراطور جوستنيانوس المشهور عدل عن السياسة اليونانية الى سياسة عمومية . فبدل ان يهتمّ ببلاده واهلها اليونان فيقوّيها ويقويهم ويصلح شؤونها وشؤونهم انصرف الى اعادة السلطنة الرومانية الى ما كانت عليه من الاتساع . فبعث لاسترداد افريقيا من ايدي الفنداليين الذين انشئوا فيها مملكة واسعة وناصب القوطيين الحرب في ايطاليا حتى مزقهم تمزيقاً . وكان ساعده في ذلك القائد بليزار المشهور انيبال العصر الجديد . ولكن الامبراطور لم يستفد من ذلك كثيرًا لان السلطنة كانت تعجز عن حكم بلاد واسعة الاطراف الى هذا الحد . فكان كأنه افنى قواه في الغرب واهمل الشرق مع ان فيه حياة سلطنته . ولذلك كان يترضى الفرس بما يسكتهم ويلهيهم عنه بينما البرابرة في شمال القارة الغربية يخربون الولايات والهونيون يبلغون حتى اسوار القسطنطينية (١)

هذا من جهة الخارج اما جهة الداخل فانه اضطهد العنصر اليوناني الذي هو قوة الامبراطورية وعضدها فقاوم المشتغلين بالعلوم القديمة وحذف درس الفلسفة والحقوق في آثينا واوجب اتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية . هذا فضلاً عن تضحيته لكنيسة رومه الاستقلال الذي كان يطلبه بطاركة الشرق منذ القرن الرابع (٢)

وبعد وفاته ثار مغاربة افريقيا واستولى اللومبارديون على شمالي ايطاليا واستمروا يحاربونها للاستيلاء على شبه الجزيرة كلها . ثم تحرك الفرس يتهددون حياة المملكة في آسيا والسلافيون يتهددون حياتها في اوروبا . فلما قام الامبراطور هراقليوس كما تقدم الكلام وجد المملكة بين هذه الامم التي كانت تنازعها البقاء نزاعاً شديدًا . وقد فصلتُ لكم ماذا فعل بالفرس وكيف سحق سلطتهم . اما السلافيون فانهم لا يزالون يهاجمون سلطنته

فمن كل ما تقدم يظهر سببان عظيمان من اسباب ضعف السلطنة . « الاول » رغبتها في ان تحكم العالم اجمع ولذلك تفني قواها عبثاً ولا تحسن حكم نفسها . « والثاني » اعداؤها المحيطون بها ينازعونها الحياة دائماً

ولكن هنالك سبب ثالث ربما كان اصل الاسباب كلها وهو المسالة الدينية . واريد بها مداخلة الدنيا بالدين والدين بالدنيا

واصل البلاء في هذه المسألة مداخلة الامبراطرة في شؤون الكنيسة لان ذلك جرّ بحكم الطبع مداخلة الكنيسة في شؤون الامبراطورية . وفي ذات يوم قال احد

١ بابيت . وكل هذه التفاصيل له

٢ بابيت

الامبراطرة لاحد البطاركة : دبّر انت الكنيسة ودعني ادبّر سلطنتي . فاجابه البطريرك . هذا قولٌ لم يُسمع بمثله فانه بمثابة قول الجسد للنفس دعيني وشأني فانني غير محتاج الى مساعدتك (١) فنشأ عن هذا سعي البطاركة والامبراطرة في وضع العقول كلها في قالب واحد ليجعلوها تعتقد اعتقاداً واحداً . وبما ان السلطنة كانت مؤلفة من عدة عناصر مختلفة الآراء والمشارب والمصالح فقد تحتم حدوث الشقاق فيها

فيومئذ قام آريوس يجحد لاهوت الكلمة والمكدونيون يجحدون لاهوت الروح القدس وقام النساطرة ينكرون اتحاد الطبيعتين في المسيح واوتيشيوس ينكر الطبيعة البشرية في المسيح بعد التجسد والقائلون بالمشيئة الواحدة ينكرون المشيئة البشرية مع اعترافهم بالطبيعتين . فجمع الامبراطرة المجامع للفصل في هذه المعتقدات فحكمت المجامع برفضها ونبذ اصحابها . ولكن بعض الامبراطرة كانوا يعودون الى بعضها فتعتقد رعيتهم فيهم الكفر فيقومون الى خلعهم . ولما كان يثور الشعب عليهم كان الامبراطرة يلجئون الى الكنيسة . والمقرر انه في هذه الحالة من حق البطريرك الاذن في تسليمهم للشعب او حمايتهم منه . وعلى ذلك كان الامبراطرة تحت سلطة البطاركة (٢)

وكما كان الاضطراب من حيث الامبراطرة فقد كان من حيث البطاركة . فقد كان للبطريركيّة الواحدة ثلاثة بطاركة (الاول) البطريرك الذي يُعزل لمقاومته الامبراطرة او الشعب . (والثاني) البطريرك الذي عُين مكانه (والثالث) البطريرك الذي يُرشح نفسه لان يكون بطريركاً . وكان لكل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة اعوان وانصار متحمّسون . ولكل فريق منهم آراء ومصالح واهواء . فكانوا في اضطراب دائم . واضطرابهم هذا كان يقلق كل السلطنة لما بين السلطتين من الاتصال (٣) كما تقدّم

ومما لا يحتاج الى بيان ان الرغبة في توحيد المعتقد تؤدي الى اضطهاد المخالف في المعتقد . وهذا ما جعل بعض الامبراطرة يضطهدون الطوائف المخالفة لهم والتي عاشت قبل ذلك في ظل الرومان بكل حرية كالسامرين واليهود والمانيشيين والسبتيين والمونتانيين والوثنيين الذين كانوا كثيرين في داخليّة البلاد خصوصاً بين اهل الزراعة لاصرارهم على دينهم القديم .

---

١ » مونتسكيو الفيلسوف والشارع المشهور . ولكن هذا القول متاخر عن زمن الشيخ

٢ » مونتسكيو في كتابه اسباب عظمة الرومان واسباب سقوطهم

٣ » مونتسكيو

ولقد كنت أحب ان يكون الامبراطور جوستنيانوس حيًّا الآن ليرى الخطاء الذي ارتكبه في افناء السامريين في هذه البلاد (فلسطين) واضطهاده اليهود فيها اضطهادًا جعلهم اعداء لمملكته واضعف منها هذا الجانب الذي دخلتم منه الى الشام وفلسطين مع انه كان من المصلحة تقويته (١) فانه حينئذ كان يعلم انه لم يكن بذلك الاضطهاد والقتل يزيد عدد المؤمنين بل كان ينقص عدد الرجال اللازم بقاؤهم واستمالتهم للدفاع عن السلطنة ويربي في قلب السلطنة عدوًا شديدًا لها . — وهذا الامر لازم دائمًا عن المظالم والاضطهادات الدينية

ولو كان الخطب من هذا الوجه فقط لكان هيّنًا بل كان هنالك خطب اشدّ . فان الاديرة غصت بالرهبان والشبان الهاربين من تنازع الحياة لان الرهبانية تضمن رزق الراهب وتعطيه السيادة بثمن بخس . ولرغبة الرهبانيات في السيادة المطلقة كانت تتخذ السياسة الدينية آلةً لمحاربة البطاركة والاباطرة . والذي جعل لهم هذه القوّة صرفهم الشعب الى ظاهر الدين عن باطنه وتحريضه على عبادة الصور والايقونات (٢) فشغف الشعب بهذه العبادة شغفًا مابعده شغف . وكلما قويت شهوته هذه زادت سلطة الرهبان عليه . وسواء كانت هذه العبادة عبادةً او اكرامًا فان الشعب انصرف اليها عن باطن الدين وصار عنده الفضل كل الفضل في تقديس الايقونات لا في فضائل النفس ومكارم الاخلاق . والذي زاد تمسك الشعب بهذا النوع من الظواهر الدينيّة انطباع البشر على حب الفنون وتمثيل هذه الفنون لهم الاشخاص والرجال الكرام الذين يحبونهم . فلما قام بعض الاباطرة لمقاومة الايقونات والصور اعتبر الرهبان ان هذه المقاومة موجّهة اليهم (٣) . وكان الاباطرة ينسبون اولئك الرهبان الى « الوثنية » واولئك الرهبان ينسبون الاباطرة الى السحر . وكانوا يشيرون الى الكنائس التي ازال منها الاباطرة الصور والايقونات ويقولون لهم ان حكامهم لم يفعلوا بها هكذا الاّ لكي يعبدوا فيها الشيطان (٤) فكان الشعب يهيج لذلك اشدّ هياج ويعتقد ان من واجباته خلع حكامه . ولم يكن هنالك ملوك يتخذون الطريق الوسط ويسكّنونه بتخفيف استعمال الصور والايقونات بدل حذفها واظهار الغرض الحقيقي

---

١ » مونتسكيو . وقد نقل عن بروكوب المؤرخ اليوناني ان جوستنيانوس استاصل السامريين في فلسطين فصارت مقفرة بعدهم

٢ » بما اننا نتكلم هنا عن اسباب سقوط سلطنة بزنطية القديمة ، الاستانة ، فقد راينا جمع كل تلك الاسباب في كلام الشيخ وان كان اكثرها منا خرّاعته

٣ » مونتسكيو ٤ » مونتسكيو

منها. ولذلك كان النزاع الشديد مستمرًا بين الفريقين . وكثيرون من البطاركة والاساقفة انتصروا للامبراطرة على الرهبان لان الرهبان كانوا ينازعونهم كل سلطة وسيادة . وكان هؤلاء يغتنمون كل الفرص لرفع شأنهم لدى الشعب بالتزلف اليه واسقاط مزاحميهم . ولما كانت تُعاد الصور والايقونات الى الكنائس كان شأنهم يرتفع عند الشعب ارتفاعًا عظيمًا . وهكذا بلغوا بسذاجة الشعب اسمى درجات السلطة وطردوا باقي الاكليروس منها وصاروا عملكة في المملكة حتى ان الامبراطرة كانوا يضطرون للدفاع عنهم (١)

فماذا كانت نتيجة هذه التربية الرهبانية في المملكة

انكم تستغربون ولا شك اذا علمتم ان قائدًا من قواد السلطنة رفع الحصار عن مدينة كان يحصرها في مقابلة اثر ديني اعطوه اياه (٢)

ولا ريب انكم تدهشون ايضًا اذا اخبرتكم ان احد قواد الامبراطور موريس لما كان يومًا على وشك الدخول في قتال مع عدو له قبل المعركة اخذ يبكي حزنًا على الدم الذي سيسفك فيها (٣) ولست اجهل ان دموع هذا القائد جميلة للغاية لحبه الخير والسلام وكراهته للآثام . ولكن ما الحيلة . ان هذه العواطف لا تُستحسن الا في الاديرة والمجالس الادبية . لانه يجب على الجندي المدافع عن وطنه ان يُحسن وظيفته اي يجب ان يحسن ان يكون شديدًا قاسيًا غليظ القلب والحسام . وبدون ذلك لا تثبت المملكة اذا كان امامها اعداء اقوياء

ونهاية العجب والاستغراب ان امبراطورًا (٤) أهمل قواه البحرية لانهم اخبروه ان الله راضٍ عنه كل الرضى لغيرته على الكنيسة ولذلك فهو لا يسمح لاحدٍ بمهاجمة مملكته . وهذا الامبراطور نفسه كان يقول انه يخشى ان يناقشه الله الحساب عن الزمن الذي يصرفه في تدبير سلطنته اذ يجب عليه صرف جميع اوقاته في الاهتمام بالشؤون الروحية (٥)

هكذا كانت نتيجة السياسة حين مداخلتها في الدين . « فكان من اعظم اسباب مصائب اليونان جهلهم الحدود التي بين السلطة الاكليريكية والسلطة المدنية . ولذلك وقع الفريقان في اغلاط متواصلة . والفصل بين هاتين السلطتين الذي عليه تُبنى دعائم راحة الشعوب ليس اساسه الدين فقط ولكن اساسه ايضًا العقل والطبيعة . فانهما يقضيان

---

١) لما فتح كانتاكوزينوس القسطنطينية وجد الامبراطور حنا والامبراطورة حنة مشغولين بمجمع ضد اعداء الرهبان . ولما حصرها محمد الفاتح بعد ذلك ليفتحها كما تمّ له ذلك كان اهلها مهتمين بمجمع فلورنسا اكثر من اهتمامهم بجيش الاتراك (مونتسكيو) ٢ مونتسكيو ٣ مونتسكيو

٤) هو اندرونيكوس باليولوغوس وقد رواه مونتسكيو ولكن بابيت يقول ان آل باليولوغوس لم يهملوا بحريتهم واساطيلهم الا اعتمادًا على بحرية الجنويين حلفائهم ٥ مونتسكيو

بانّ الاشياء التي من طبيعتها الانفصال والتباعد والتي لا يمكن ان توجد معاً الا منفصلة متباعدة بعضها عن بعض — يجب ان لا تمتزج ابداً · وهذا الفصل كان معروفاً عند قدماء الرومان اكثر مما كان في القسطنطينية ولئن كان اكليروسهم الوثني غير منفصل عن طبقات الهيئة الحاكمة · فانه لما وقف الامبراطور كلوديوس منزل « شيشرون » للحرية بعد نفيه وعاد شيشرون من منفاه طلب استرداد منزله فحكم رؤساء الكهنة بانه يمكن رد منزله اليه دون ان يكون في ذلك اهانة للدين اذا كان المنزل قد وُقف بلا أمر خصوصي من الشعب · قال شيشرون · وقد قالوا انهم ينظرون في صحة الوقف لا في صحة الشريعة التي سنها الشعب وانهم اذا كانوا نظروا في القضية الاولى كرؤساء كهنة فانهم ينظرون في هذه القضيّة كاعضاء مجلس الشيوخ » (١)

هذا هو اعظم الاسباب في ضعف سلطنة بزنطية · وانما يستمد هذا السبب اهميته الخصوصية من صرفه فكر الحكومة والامة عن الاصلاحات الاجتماعية والحوادث الخطيرة وشغلها بالمجادلات الدينية العقيمة

انظروا ايها السادة لاعطيكم برهاناً صغيراً يدلكم علينا احسن دلالة · قبل ان تصلوا الى هذه المدينة بيوم واحد لتحصروها كان شعبها يملأ الدنيا ضجيجاً على طريق بيت لحم طلباً لتعميد فتاة يهودية وجدها في طريقه · وكان يهتمّ بهذه الفتاة اكثر من اهتمامه بجنودكم الزاحفة الينا

ومن هنا تعلمون مبلغ ضعف تربيته السياسية · وعواطفه الوطنيـة · استغفر الله فانه يجب عليّ ان لا اذكر « الوطن » بشفتيّ اذ الوطن عندنا الدين · بل الدين عندنا فوق الوطن وفوق كل شيء

وهكذا بدل ان يقوم الشعب ويطلب اصلاحات اجتماعيّة كانشاء جمعيّات لمساعدة الزراع والصنّاع والعمال وفتح الترع لجرّ المياه للحقول وانشاء المدارس لتعليم ابناء الامـة ووضع نظامات جديدة لتقوية العائلة والسلطة الحاكمة ضد الرهبان الذين تقدّم ذكرهم ونقل معامل الفرس الى السلطنة او انشاء مثلها فيها — نراه اذا قالوا له مثلاً هذه قطعة من حذاء بولس او بطرس او هذا أثر من مريم المجدليّة فانه ينسى كل تلك الاصلاحات ويبيعها كلها بهذا الاثر

فما اسهل ارضاء الشعب الديني ايها السادة

---

١ هذه الفقرة مترجمة حرفياً عن مونتسكيو

ولكني اذا كنتُ الوم الامبراطور لاهماله شعبه الى ذلك الحد فانا اشفق عليه . فان السلطنة متعددة الاحزاب الآن وهذا من اسباب ضعفها ايضاً . فان الاحزاب في البلاد الجمهورية تنفع الامة لظهور الحقائق بالبحث واحتكاك الافكار ولكنها في البلاد الملكيّة المطلقة تكون سبب ضعف لها لان كل حزب منها يقدر ان يستبدّ بالحزب الآخر فيقوم هذا الى الثأر منه وهكذا دواليك الى ما شاء الله . واهمّ احزابنا الآن « الخضر » و « الزرق » واصل تسميتهم هكذا ان ساقة المركبات الذين كانوا يتسابقون الى الجوائز في حلبة السباق كان فريق منهم يلبسون ثياباً زرقاء وفريق ثياباً خضراء . فكان الحاضرون يتحزّبون لهم حزبين يسمون « الخضر » « والزرق » (١) وقد انتشرت هذه القسمة في كل مدن الامبراطورية وصارت قسمة سياسية . ولما قام جوستنيانوس انتصر « للزرق » وظلم « الخضر » فقوي الزرق حتى صاروا يدوسون نظامات المملكة . وكذلك الخضر عبثوا بالنظامات لانهم رأوا ان رفاقهم الزرق لا يحترمونها . وكان كل قاتل وشرير في ذلك الزمن من حزب الزرق وكل مقتول من حزب الخضر (٢) فسادت الفوضى بين الناس وانتهكت حرمة النسب والصداقة والواجبات ومعرفة الجميل بقيام الناس والعائلات بعضهم على بعض يفنون بعضهم بعضاً .

ومما زاد الاضطراب واختلال الأمن اعتقاد شاع في المملكة وهو « انه من المحرم سفك الدم المسيحي » (٣) فكانت كل الجنايات والجرائم التي لا تتعلق بالدين يُعاقَب اصحابها عقاباً خفيفاً (٤)

وبما ان امراض العقل تتحوّل ولا تزول فقد اتخذ التنجيم والتنبوء صورة غير الصورة القديمة . فقد كان الوثنيون من اليونان والرومان يستطلعون البخت ويرون الغيب بنظرهم في احشاء الذبيحة او مراقبتهم طير الطيور يميناً او يساراً . فحلّ عند المسيحيين محلّ هذه الطريقة استطلاع البخت والغيب بالنظر الى اشياء توضع في حوض ماء (٥)

وكانت حوادث المملكة السياسيّة تضرم نار الطمع في النفوس حتى انه لم يكن في السلطنة رجل عظيم الا وقد تُنبيء له بانه سيتولى الامبراطورية . وكانت الثورات والفتن في الامبراطورية تتوالى بلا انقطاع . وبما ان الاسر المتنازعة على الملك كانت تمرّ على العرش بسرعة فلم يكن الناس مخلصين لواحدة منها . وكانوا يتخذون كل الطرق للوصول الى العرش . فتارة بالجند

---

١) مونتسكيو ٢) مونتسكيو ٣) شاع هذا الاعتقاد على الخصوص حين ظهور الاسلام ٤) مونتسكيو ٥) مونتسكيو

وطوراً بالاكليروس وآونة بشعب القسطنطينية واخرى بشعب باقي المدن (١)

ولما تكاثرت الفتن والثورات وحلّت بالمملكة المصائب في الخارج صار الناس ينسبون كل ذلك الى سوء تدبير ملوكهم فازدادت الفتن والمصائب بهذا الاعتقاد . وهكذا انتجت الثورات ثورات وصارت النتيجة سبباً (٢)

ومما كان يزيد ضعف الحكومة يومئذ انقيادها الى آراء النساء . فانه كان من المقرر في الشرق اتخاذ عدة نساء اضعافاً للسلطة العظيمة التي تكون للمرأة الواحدة على الرجل في هواء الشرق الحار . اما في عرش القسطنطينية فقد كانت المرأة واحدة تبعاً لنظام المسيحية . وهذا الامر كان من اسباب ضعف الحكومة احياناً (٣)

وبما ان الجيش كان له يد ورأي في السياسة فقد افضى هذا الامر الى تمرده احياناً . وبذلك ضعف نظام الجندية . وقد كان القائد بليزار يقول لجنوده في ساحة الحرب « ان جنود الفرس لا يفضلونكم في الشجاعة ولكنهم يفضلونكم في الطاعة لقوادهم » وفضلاً عن ذلك فان الترف والمدنية اضعفا نفوس الامة وميلها الى الحروب في حين ان باقي الامم التي تحيط بها لم يكن لها شغل غير الحرب . وبذلك وهن عزمها امام اعدائها وصار لا يجدد قواها ونشاطها الا التحريض الديني كالحث مثلاً على استخلاص الصليب كما حدث في حروب الفرس

هذه أيها السادة اهم الاسباب التي أضعفت السلطنة . وقد فصلتها لكم باختصار . فلو تداركها اليونان لكان عندهم اجمل واقوى واعظم سلطنة في الارض ولما تمكن احد غيرهم من منازعتهم في شيء

لماذا

بقيت سلطنة بزنطيه (القسطنطينية) قروناً طوالاً

بعد مصائبها وامراضها المذكورة آنفاً

وهنا سكت الشيخ ليستريح من تعب الكلام . وكان الحاضرون في اثناء كلامه يتحادثون همساً ويتبادلون افكارهم وهم تارة يبتسمون وطوراً ينقبضون . اما الامام عمر فانه كان بينهم كالجبل الراسخ لا يحركه شيء ولا تبدو على وجهه دلالة

---

١) مونتسكيو ٢) مونتسكيو ٣) منقول حرفياً عن مونتسكيو . ولكن ليس الذنب في هذا الضعف " للمرأة الواحدة ,, بل لعدم وجود دستور ومجالس نيابية دستورية توقف الامبراطور والامبراطورة معاً عند حدودها كالحال الآن في اوروبا واميركا حيث جميع الملوك والرؤساء بامرأة واحدة

ولكن لما سكت الشيخ همس الامام كلمتين في اذن ابي عبيدة . فقال ابو عبيدة للشيخ ايها الشيخ لقد احسنت الحديث . انما يؤخذ من حديثك هذا ان المملكة متهدمة فهل يظن انه قد دنت آخرتها على يدنا

فاطرق الشيخ سليمان مليًا ثم قال : انني ارى انكم لا تقدرون على هذه المملكة العظيمة في الغرب وان قدرتم عليها في آسيا . وذلك لعدة اسباب (اولاً) انكم فتحتم بلاد الفرس وستملكونها وتسقطون دولتها . فهذا الفتح سيقوّي الامبراطورية لانها ستسترد كل جنودها القائمين على حدود الفرس وهم خيرة جنودها لتدافع بهم عن نفسها دفاعًا شديدًا (ثانيًا) انكم بعد فتح الشام وفارس لا بدّ ان تفعل فيكم مدنيتها وتجذبكم الى الترف والتمتع وتثير الطمع والحسد في نفوس حكامكم لاتساع ممالككم فتنقسم كلمتكم ويتنافس امراؤكم فتقفون عن الفتح حيث انتم

فهنا نظر الامراء بعضهم الى بعض وضحكوا من حرية فكر هذا الشيخ . اما الشيخ فاردف بقوله (ثالثًا) ان القسطنطينية لا تفتح الا بالاساطيل البحرية . والامبراطور لديه ما يدفع اساطيلكم اذا كان لكم اساطيل . فان سوريًا يدعي « كالينيكشوس » اخترع له سيالاً اذا وضع في اسطوانات ونفخ على السفن احرقها ولم يدعها تدنو من الشاطئ . وتركيب هذه النار محسوب في جملة الاسرار الامبراطورية . واليونان يحرقون بها كل الاساطيل التي تدنو من بلادهم

(رابعًا) ان معامل الفرس الصناعية ستنتقل ولا شك الى الامبراطورية بعد فتحكم بلاد الفرس لانني اظن انكم في هذا الطور من الفتح لا تهتمّون كثيرًا بالمعامل والصنائع . اذ كفاكم منها ما لدى الشعوب المغلوبة التي تدخل تحت يدكم . وفضلاً عن ذلك فان اليونان هم سلاطين البحار الآن وتجارتهم اوسع التجارات . فلهذا كله سيبقى في مملكتهم من القوة الحيوية ما يمكّنها من المقاومة والبقاء دهرًا طويلاً

(خامسًا) ان القبائل الذين اضعفوا السلطنة بحروبهم على شواطئ الدانوب قد اخذوا يتمدنون . اي اخذوا ببناء المدن على شواطئ هذا النهر . فدخولهم في طور الاقامة بعد طور الارتحال سيقوي السلطنة لانه يجعلهم بمثابة سور لها مانعًا عنها كل غارة جديدة (١)

فالذي اراه ان هذه الاسباب ستتغلّب عليكم اذا لم تتغلّبوا عليها

---

(١) هذه الاسباب اوردها مونتسكيو ليعلل بها بقاء سلطنة بزنطية قرونًا بعد ظهور العرب واخذهم املاكها في الشام وفارس مع ما كان في السلطنة من الضعف والاعتلال

فانبرى حينئذ خالد بن الوليد وصاح : والله انني لاخوض الآن بجوادي البحر الى القسطنطينية اذا اذن لي امير المؤمنين · فابتسم عمر لشجاعة خالد · ولكن الشيخ وايليا ابتسما ايضاً

النبوءة (١)

عن مصير سلطنة بزنطية (القسطنطينية)

(دمعتنا الامام عمر)

وكان ابو عبيدة في اثناء ذلك مصغياً · فقال حينئذٍ : ايها الشيخ انت قلت ان التنجيم والرجم بالغيب كثير في بلادكم · أفلم يتنبأ احد عن مصير هذه السلطنة

فابتسم الشيخ واجاب بلى ان النبوءات كثيرة · وها انني اذكر لكم احداها

قال المنجم : ان السلطنة ستصير الى قوم مختونين · وهذه الولايات السورية التي هي اكثر الولايات عمراناً وفيها اليونان اقوى منهم في سواها ستدخل تحت حكمكم · واحد قوادكم (٢) سيصل في سنة ٦٦٩ حتى اسوار العاصمة (القسطنطينية) ويحصرها · ولكنه يرتد عنها · وسيعبر البلغار احد فروع السلافيين نهر الدانوب ويؤسسون في ولايات الشمال مملكة قوية تنمو مدة ثلاثة قرون · ثم ينتشر السلافيون في ابيروس والتراس (٣) ومكدونيا وتساليا والاتيك والموره نفسها حتى سالونيك · فيقوم النزاع العظيم في الغرب بين العناصر السلافية والعنصر اليوناني · ومن سنة ٧١٦ الى سنة ٨٤٢ يقوم امبراطرة مصلحون (٤) فيفرغون جهدهم في اضعاف نفوذ الاكليروس وعلى الخصوص الرهبان وتنقية العبادات وتقوية السلطة المدنية وسلطة الامبراطرة · ومن الاسف انهم سيضطرون بحماسة النزاع الى بعض الاضطهادات ولكنهم مع ذلك يصلحون اصلاحات عديدة فيحسنون احوال الفلاحين والزراع ويلغون الرقيق ويصلحون نظامات العائلة · وسيكون لهم أعوان ومساعدون من جميع الطبقات المستنيرة من الامة ومن عقلاء الاكليروس ايضاً (٥) وهذه الاصلاحات السياسية والدينية يقتبلها الناس بهدوء ولا يثورون ضدها الا في احدى الجزر (٦) وفي زمن احد الامبراطرة (٧) يجتمع مجمع مؤلف من ٣٤٨ اسقفاً ويقررون ابطال الصور

١» وضعنا هنا هذه النبوءة لنتمكن من ذكر مستقبل سلطنة بزنطية بعد ذكرنا حاضرها وماضيها

٢» هو معاوية ٣) هي رومانيا وبلغاريا اليوم ٤) هم لاون الثالث وقسطنطين الخامس ولاون الرابع ولاون الخامس ٥) بابيبت وكل هذه التفاصيل له ٦) جزيرة سيكلاده اليونانية في الارخبيل ٧» قسطنطين الخامس

والايقونات فتكون نتيجة هذا القرار سلخ ايطاليا والكنيسة الغربية عن السلطنة الشرقية ٠ لانه حين وصول خبر ابطال الايقونات الى ايطاليا يقوم في نفس الشعب ميل للانفصال عن سلطة القسطنطينية وطلب الاستقلال و يساعدهم على ذلك رئيس كنيسة رومه مقاومةً لقرار المجمع وسلطة الامبراطور ٠ و يومئذ يكون اللومبارديون مهددين ايطاليا والايطاليون يخضعون لرئيس كنيستهم اكثر من خضوعهم للامبراطور ٠ فلما يرى رئيس الكنيسة الغربيّة انه لا يُرجى من الامبراطور مساعدة على اللومبارديين يستعين بالفرنك عليهم فتسقط سلطة الامبراطور عن ايطاليا سقوطاً تاماً وتنضم ايطاليا الى املاك ملكين عظيمين للفرنك (١) ثم ان رئيس الكنيسة الغربية رغبة في تقوية نفوذه وسلطته يمنح اعظم هذين الملكين (٢) لقب « امبراطور » و يتوجه في سنة ٨٠٠ ٠ فيستاء من ذلك امبراطرة السلطنة الشرقية ولا يعترفون له بهذا اللقب ٠ ثم ان « الامبراطور الغربي الجديد » تحدثه نفسه بتوحيد الامبراطوريتين ليكون « سلطان العالم » فينوي الزواج بامبراطورة تكون على عرش السلطنة الشرقية (٣) ثم يقوم احد الامبراطرة (٤) و يعترف له بلقبه وان كان باقي الامبراطرة بعده ينكرونه عليه ٠ وفي سنة ٨٤٢ يجتمع مجمع في القسطنطينية و يقرر اعادة الصور ٠ وفي ختام القرن التاسع والعاشر تبلغ المملكة من السعة والقوة مبلغاً لم تدركه قبل ذلك ٠ حتى ان احد ملوكها (٥) يدحر السلافيين في بلاد الروس و يملي عليهم شروط الصلح و يصل الى ما وراء نهر الفرات ٠ ولكن هذا العدو الهائل — الروس وفرعهم من البلغار والسرب — يبقى في وجه السلطنة كجبّار رابض على صدرها ٠ الاّ ان هذا الجبار يتلطف يوماً و ينجذب الى المدنية اليونانية ٠ فتاتي في سنة ٩٥٧ ارملة الملك الذي هاجم القسطنطينية (٦) الى هذه العاصمة وتُعمّد فيها ٠ وفي سنة ٩٨٨ يتزوج احد ملوك الروس (٧) باخت امبراطور (٨) ويُدخل الى بلاده الدين المسيحي والمدنية اليونانية ٠ فتصير مدينة كييف ثانية القسطنطينية من حيث نمو العمران والحضارة والمدنية ٠ ولكن امبراطورية اليونان تربي لنفسها في هذا الشعب الهائل الجديد الآخذ في التمدن عدوًا لدودًا و « وارثًا » لقوتها وسلطتها وكأن الله يختار هذا الشعب الجديد لهذه الوظيفة لان الشعب اليوناني القديم يعجز عن اتمام وظيفته الى النهاية للامراض التي طرات عليه ومما يزيد اعداءه وامراضه حروب يسمونها يومئذٍ حروباً صليبية ٠ فان المنجم يقول ان

---

١ بيبنوس وشارلمان ٢ شارلمان ٣ الامبراطورة ايرينا ٤ ميخائيل الاول
٥ يوحنا تزيمسيس ٦ اولغا ارملة ايكو ٧ فلاديمير ٨) باسيليوس الثاني

امراء الغرب سيتحدون يوماً على الشرق بتحريض رجال الدين · ويكون لهم يومئذ من هذا التحريض غرضان · الاول اسقاط سلطنة اليونان لما بين الفريقين من الخلافات الدينيَّة والثاني افناء سلطة الاسلام واستخلاص القبر المقدس منها · وستكون هذه الحروب من اعظم الوسائل الى تمدين الغرب لان الصليبيين يجدون في القسطنطينية والشرق من آثار العمران والعلوم والفنون والحكمة والعظمة ما يبهر عقولهم فيتهافتون على اقتباسه · ولكنهم يجزون هذه الام المتمدّنة في مقابلة ذلك شرّ جزاء لانهم يضعفونها بحروبهم ويفرغون جهدهم في اسقاطها ويستولون مدةً على القسطنطينية منصرفين اليها عن الشرق وعن الاسلام · مع انه لو يتحد الفريقان يومئذ لتغير وجه الكرة الارضية · ولكن اذا كان يمكن اتحاد الماء بالنار يمكن اتحاد اليوناني باللاتيني لتخالف مصالحها السياسية والدينية معاً · ولما يظن احد الامبراطرة (١) ان النزاع بين السلطنتين وارد من جهة الاختلاف في الدين فقط يتقرَّب من كنيسة رومه لازالة الخلاف · فيرسل نواباً من قبله الى مجمع ليون(سنة ١٢٧٤)ولكن الشرق وكنيسته يرفضون الاتفاق · فكأنَّ هذا الامبراطور يجهل ما يعرفه الجميع من ان كل امة تحب ان تعيش حرة في بلادها وتفهم دينها بعقول ابنائها لا بعقول غيرهم · ثم تهيج الحالة في القسطنطينيَّة فوضى · ويكون للايطاليين فيها محاكم خصوصية وقناصل يحكمون بينهم كأنهم مملكة في المملكة · وتثور حرب اهلية بين شيخ وحفيده (٢) فيقوم خادم للشيخ (٣) ويغتصب الملك منها ويحالف الاتراك عليها (سنة ١٣٤٧ — ١٣٥٥) ويكون ملك هذا الخادم مقصورًا على النزاع على الملك بينه وبين الوارث الشرعي من آل الشيخ (٤) ولما يعود الملك الى الوارث الحقيقي يقوم عليه ابنه · وسيبذل البندقيون والجنويون والاتراك جهدهم للاستفادة من هذه الفتن الداخلية ويوسعونها · وحينئذ تبداء سلطة عظيمة في الانتشار · فان الاتراك بعد الاضطرابات التي ستسقط خلافة بغداد (سنة ١٢٥٨) تشتدُّ شوكتهم فينتشرون من شرقي جبال الاوليمب في وادي سنغاريوس حيث يقيمون ويزحفون الى القارة الغربية · ويساعدهم على انتشارهم هذا ان الاسرة المالكة (٥) بعد ان تترك القسطنطينية لعدوها الداخلي الذي قام عليها وتتخذ نيقية عاصمة لها حيث تقدر منها على مراقبة الاتراك والحرص على ولاياتها الاسيوية التي كانت كل قوة الامبراطورية منها—تعود فتترك نيقية لاستردادها القسطنطينيّة · فيخلو الجوّ حينئذ للاتراك ويثبون على البلاد · وبدلاً ان يتحد السلافيون واليونان واللاتين عليهم يستعين بهم

١ ميخائيل باليولوغوس ٢ اندرونيكوس الشيخ وحفيده اندرونيكوس الشاب
٣ كانتا كوزينوس ٤ يوحنا باليولوغوس ٥ آل باليولوغوس

الامبراطرة على سحق المملكة السربية التي اقامها السربيون . فيهدم سلطان تركي (١) مملكة السرب (سنة ١٣٨٩) وبذلك تقوى سلطة الاتراك قوة عظيمة . اما سلطنة بزنطيه فانها تصبح يومئذ عبارة عن بقايا ولايات منقطعة عن رأسها . ولكن بقاءها حينئذ انما يكون مسبباً عن تعدد سلاطين الاتراك وانقسام قواتهم . فلما يقوم فيها سلطان قوي (٢) و يوحّد قوتهم وسلطتهم باخضاعهم لسلطانه يهاجم القسطنطينية ويحصرها (١٣٩٧) ولكن انتصار سلطان المغول (٣) على جنوده قرب انقره يردّه عن هذه العاصمة . فيقوم بعده « التركي الفاتح » الذي كُتب للقسطنطينية ان تُفتح له (٤) فيحصرها و يفتحها (سنة ١٤٥٣) ويجلس على عرش القياصرة العظام بينما آخر امبراطرتها (٥) يموت بين جنوده موت الابطال دفاعاً عن عاصمته وعرشه . وحينئذ تقوم في القسطنطينية الجديدة سلطنة جديدة عظيمة تبلغ من بسطة الجاه والعظمة ان تصل جنودها الى قلب الغرب واساطيلها تستهزىء بشواطئه

فلما انتهى الشيخ الى هنا سكت ونظر الى ايليا فوجده مشغولاً عنه بالتأمل وعلى وجهه دلائل التألم من شيء يفكر فيه . اما امراء العرب فقد ساءهم ختام نبوءة الشيخ . وكان الزبير حاضراً بينهم فانبرى وقال : ان صاحبك المنجم يظن اننا سنصنع صنع الروم اي نشتغل لغيرنا . فوالله الذي لا اله الا هو اننا سنملك القسطنطينية كما ملكنا بيت المقدس ولو توارت عنا في السحاب

فقال الشيخ وقد رام تخفيف غضب الزبير وغيره : ايها الفارس الشجاع . لا تغضب لنبوءة المنجم فانه يتكهن على غير هدى . اما نحن معاشر السوريين فسيان عندنا ملكتم السلطنة انتم او ملكها غيركم لاننا لا نطلب من ملكها غير العدل والحرية .

فابتسم ابو عبيدة وسأل الشيخ . وهل فرغت نبوءة المنجم . ام بقي منها شيء لعل نوبتنا تأتي بعدها . فاجاب الشيخ . بل بقي منها شيء . وهي ان الذين رشحوا انفسهم لوراثة سلطنة بزنطيه كما تقدم الكلام يغضبون لانتقال هذا الارث من يد اليونان الى يد امة « الفاتح » كما غضبتم الآن انتم من ذلك . فيقومون الى طلب هذا الارث

فقال ابو عبيدة : وبعدُ

فاجاب الشيخ : هنا سكت المنجم ولم يعد يذكر شيئاً جلياً . وانما يقول انه بعد اضطرابات

---

١ مراد الاول ٢ بايزيد ٣ تيمورلنك ٤ محمد الفاتح المعروف بمحمد الثاني ٥ قسطنطين دراجاليس

وحروب شديدة يظهر فيها كل واحد من الفريقين منتهى البسالة والقوة تتحوّل سياسة العالم عن مجراها الاول . فانه بعد ان يكون كل الخلاف والنزاع محصورًا في سلطنة عظمى ينازعها جيرانها البقاء ويطمعون فيها تقوم سلطنات عظيمة اخرى على انقاض ايطاليا القديمة والسلطنة الغربية فتنصرف الاهمية السياسية عن بزنطيه الى عواصم سلطنات الغرب الجديدة . وبدل ان يكون حينئذ همّ « الوارث » مصروفًا الى منازعة « الفاتح » لطلب ارثه يكون مصروفًا الى مقاومة تلك السلطنات القوية الجديدة ليحفظ نفسه منها والى زيادة مستعمراته في جهات اخرى لان سياسة المستقبل سياسة فتوح استعمارية لا سياسة فتوح حربية واطماع فارغة . بل ان « الوارث » و« الفاتح » سيتفقان بازاء الخطر الجديد الوارد من باقي السلطنات الكبرى والصغرى ويعيشان جنبًا الى جنب بسلام وامان كجارين كريمين . فان الارض واسعة لا تضيق عن الناس الكرام

فقال ابو عبيدة . ولكن ألم يخبر المنجم شيئًا عن « الاصيل » صاحب الملك الاول . فاين يذهب

فاجاب الشيخ نعم اخبر عنه . فانه يقول ان هذا « الاصيل » يصغر بعد الكبر لانه لم يقدر على حفظ نفسه وينحصر في شبه جزيرة صغيرة قرب القسطنطينية . ومن هناك يبقى متطالاً دائمًا الى عاصمته القديمة مفكرًا فيها ومراقبًا « الوارث » عدوه القديم لئلا يسطو عليها

فقال خالد ضاحكًا . والعجب من تعادي «الاصيل» و « الوارث » مع انهما من دين واحد

فضحك الشيخ واجاب . ان المنجم يقول ان « الاصيل » سيتفق يومًا مع « الفاتح » على « الوارث » وعناصره (١) حفظًا لمصالحه لان السياسة مبنية على المصالح لا على الاديان . والقرون القادمة سيكون الدين فيها اضعف العلائق بين الناس

ويظهر ان الامام عمر ضجر من هذا الحديث فظهرت دلائل الملل في وجهه فقال : لا عرافة ولا تنجيم في الاسلام . والله لم يدهشني شيءٌ كغضب الزبير من تخرصات المنجم . فدعونا من هذه الاوهام . ايها الشيخ شكرًا لك لانك اوقفتنا على بعض اخبار المملكة . اتبعنا يا ايليا

ثم نهض عمر فنهض الجميع لنهوضه عائدين الى بيت المقدس وعمر كثير التفكير والاهتمام

---

١ هو اتفاق الباب العالي واليونان في العام الماضي على البلغار في المسألة المكدونية . ومما نحب ملاحظته هنا ان هذا الاتفاق جاء منطبقًا على سياسة اليونان الماضية لما استعانوا على سحق سلطنة السرب بمراد الاول كما تقدم

وكان ابو عبيدة يسير الى جانب الامام عمر في مسيره وهو يفكر ايضاً · وبعد حين قال (— ما قول امير المؤمنين في اسباب سقوط دولة الروم · والله ان نفسي في اثناء كلام الشيخ كانت تنتفض خوفاً من ان يصيبنا يوماً ما اصابهم

فسمع خالد كلام ابي عبيدة فدنا منه وقال (— ايها الامير نحن بعيدون عن كل ما اودى بالروم بعد الارض عن السماء · فلا رهبانية في الاسلام لنخشى منها على ديننا وشعبنا · ولا تجبّر ولا تكبّر عندنا لنترك ضعفاءنا يموتون جوعاً وضعفاً واقوياءنا يحشدون الاموال ويدّخرون لانفسهم باقي الناس باجور قليلة · وخليفتنا انما يهتمّ بصلاح حال الشعب قبل اهتمامه بنفسه وبامراء امته · وكل واحد منا احبُّ شيءٍ اليه الموت في ساحة القتال طلباً للجهاد لانه مروض على الحرب منذ نعومة اظفاره · وقبائلنا ملأ الله قلوبها بروح الاسلام وغسلها من ادران الجاهلية فهي متحدة على اعلاء كلمة الله اتحاداً لا انفصام بعده · — فماذا نخاف بعد هذا

فسكت عمر ولم يجب · ولكنه بعد حين قال لابي عبيدة (— ادعُ لي ايليا · فاسرع ايليا ووراءه الترجمان · فسأله عمر (— يا ايليا هل ورد للرهبان والصور ذكر في انجيلكم ·

فاجاب ايليا كلا ايها الامير · فقال عمر (— هل يعلمكم انجيلكم التجبر والتكبر وبقسم امتكم قسمين : سائدين ومسودين · فقال ايليا · معاذ الله ايها الامير فانه يعلّمنا ان الكبير فينا صغير والصغير فينا كبير وان رئيسنا يغسل قدمي كل واحد منا دلالة على اتضاعه واهتمامه بامته

فقال خالد (— سبحان الله

فقال عمر وقد هزّ رأسه (— وهل يحضكم انجيلكم على اذخار الاموال والاستئثار بها وانفاقها في سبيل الشهوات والملاذ · فقال ايليا : ايها الامير ان سيدنا المسيح كان يشترط على كل رجل يتبعه ان يبيع املاكه ويجيء بثمنها الى صندوق الطائفة وهو «كبيت المال» عندكم

فقال خالد ايضاً (— سبحان الله

فقال عمر وهل يحضكم انجيلكم على التنافس والتباغض وقيام افرادكم بعضهم على بعض وشعوبكم بعضها على بعض · فقال ايليا · ايها الامير ان انجيلنا يقول «لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضربكم على خدكم الايمن فحوّلوا له الايسر · واحبوا اعداءكم وباركوا مبغضيكم لانكم اذا لم تحبوا غير محبيكم فاي اجرٍ لكم»

فصاح خالد هذه المرة بصوت اقوى مستغرباً (— يا سبحان الله

اما عمر فانه انغض رأسه وسكت · وبقي يسير بجانب ابي عبيدة وخالد متنحٍّ عنهما ·

وبعد برهةٍ رفع الامام الجليل كه الي عينيه (ـ فنظر ابو عبيدة في وجهه فرأى دمعتين جميلتين تسطعان كلؤلؤتين في حدقتي الامام (ـ فصاح ابو عبيدة : ما ابكى اميرالمؤمنين . فازداد عمر بكاء وقال (ـ يا عامر انني ابكي على امتي لانني لا اعلم ما يحلُّ بها بعدي . يا عامر انك تعلم انني لم ارعَ العرب واجمعهم بعد تفرق كلمتهم الا بعصا من حديد فاخشى ان تدب عقارب الشقاق بينهم بعدي . يا عامر قد سمعتَ من الشاب ايليا ما هي شريعة الروم وسمعتَ من الشيخ كيف خرجوا عنها فانا اخشى ان نخرج عن شريعتنا في مستقبل الزمان كما خرج الروم عن شريعتهم فيصيبنا ما اصابهم . يا عامر ان بلاد الله وعباد الله لا تُساس الا بالعدل والصدق والحق . واطلاق الحرية للغير لان لكل فرد وكل شعب حيّزاً لا غنى له عن التحرك ضمنه . وانصاف الناس حتى اصغرهم واحقرهم . والاهتمام بالشعب قبل كل اهتمام . وتنزيه الدين عن اتخاذه دعامة للمصالح وللسياسة وآلة للبغض والشقاق . واعتبار الامم التي تقبلنا وندخل بلادها انسباء لنا . لها ما لنا وعليها ما علينا لانها في ذمة الله وذمتنا . فانا اخشى يا عامر ان نغيّر ما بانفسنا من هذا يوماً ما كما غيّر الروم فيغير الله نعمته علينا وتنتقض اعمالنا

فيا تربة جبل الزيتون التي شربتِ تينك الدمعتين الجميلتين اللتين جرتا من عيني الامام العادل العظيم هل حفظتِها في صدفة نفيسة كما يُحفظ الدرّ النفيس . يا طيف الكمال الذي يسكن جوّ ذلك الجبل الكريم منذ دوت في فضائه خطب ابن الناصرة الالهية ألم ترفرف حينئذ حمامتك السماوية على رأس ابن الخطاب حين لفظ هذا الكلام الجميل . ويا ايها المسلمون والمسيحيون في مشارق الارض ومغاربها خصوصاً يا اخواننا الشرقيين الا تنتفض عظامنا كانا ـ انتفاض العصفور بلّله القطر ـ بعد وقوفنا على اسباب سقوط سلطنة بزنطيه وتأملنا المنافي التي خلفتها وسماعنا الامام عمر بعد وقوفه على هذه الاسباب يقول ما قاله

الفصل الثالث والعشرون

استير

في البيت الاحمر

ولم يكد عمر يبلغ بركبه سفح الجبل حتى ظهر لهم من بعيد رجل يركض ركضاً شديداً . فلما وقع نظر ايليا على هذا الرجل عرف انه ارميا فقال في نفسه قبحاً لمنظر هذا الثقيل وللقاه

وكان الشيخ سليمان قد عاد الى المزرعة بعد ان ودع عمر وايليا يسير وراء الامراء منفرداً لان رفيقه القس الترجمان قد عاد الى البطريرك قبل قصدهم جبل الزيتون ليطلعه على نتيجة مهمة ايليا ويبلغه ان الامير امسك ايليا عنده

وكان ايليا يسير وفكره شارد عند استير وابيها . ولذلك استعاذ بالله لما نظر ارميا قادماً . فنوى ان لا يلتفت اليه فاطرق الى الارض وبقي سائراً في طريقه

اما ارميا فانه ما اقترب من الركب ولمح ايليا من بعيد حتى صاح باقوى صوته : كيريه ايليا كيريه ايليا . تعالَ تعالَ الي

فالتفتَ نحوه ايليا لفتةً ثم صرف وجهه عنه وسار في طريقه

وقد عجب الامراء من حالة هذا الرجل وصرف ايليا وجهه عنه . ولكن ابا عبيدة اخبر الامير انه معتوه فحلَّ الابتسام محل العجب عندهم

اما ارميا فانه هجم كالذئب الكاسر على ايليا واخذ به . ثم جثا على الارض صارخاً بكل قواه : كيريه ايليا كيريه ايليا . رحماك خلصنا . صديقي . اخي . حبيبي . لا تتركنا

فدهش ايليا من هذه اللهجة الجديدة فلم يرَ بداً من سؤال ارميا عن مراده وقصده فصاح ارميا والجنون يقصف ويعصف في عينيه

— ايليا . ايليا . اذا تركتَ استير فانني اقتلك . . ها ها . . هلمَّ معي اليها . . هي تنتظرك . . هي تنادي ايليا ايليا ولا احد يجاوبها . . . اسمع اسمع . ان البطريرك ارسلني اليك . . . وابوها عنده الآن . . وهو يطلب ان يراك . . ففتشت عليك المدينة كلها فلم اظفر بك الا هنا . . . ايليا ايليا . . لا تستغرب كلامي . . لا تظنني مجنوناً فانا اقول لك الحق . . نعم قد دخل الشيطان منذ مدة الى قلبي فصنعت ما صنعته معك . . . ولكن ما كنتُ اظن انها تحبك الى هذا الحد . . فاسمع يا صاحبي . . يا اخي في المسيح . الله يبارك لك فيها . . . انظر . . ها انني انفض يديَّ امامك منها . . خذها وحدك . . لك وحدك يا ايليا . . ولا آخذ منها انا غير خصلة من شعرها . ولكن خلّصها . . آه لو كنتُ علمتُ انه سيحدث ما حدث لما كنتُ صنعتُ شيئاً . . ولكن ما جرى جرى . . ولا نعود اليه . . . هلمَّ معي يا عزيزي لنخلّصها

فلما سمع ايليا هذا الكلام ونظر الى حالة ارميا اشتد جزعه على استير . فانهض المعتوه وسكّن باله واستخبره الخبر . ولما علم منه كل شيء طارت نفسه شعاعاً فاستأذن الامير وسار مسرعاً الى المدينة قاصداً المقام البطريركي

ولما دخل ايليا على البطريرك وجده جالساً على مقعدٍ وهو مطرق يفكر . ويظهر ان الاشهر التي مرّت في اثناء الحصار وما تلا ذلك من فتح المدينة قد اثر في نفس البطريرك تأثيرًا شديدًا ولذلك كان لونه الناصع الوردي الاعتيادي مشوبًا بالاصفرار . وجسمه قد نحل قليلاً . ولما وقع نظر البطريرك على ايليا صاح البطريرك : بمَ اجاب الامير يا ولدي . فمدّ ايليا يده الى جيبه وهي ترتجف واخرج له الرقّ السري وابلغه جواب الامير . فتناول البطريرك الرق بيد ترتجف ايضاً وقال بنزقٍ : من اين وصل هذا الرقّ الى يد ذلك اليهودي . فدهش إيليا وقال اي يهودي يا مولاي . فقال البطريرك : ابو الفتاة التي قبض عليها الشعب في طريق بيت لحم . ولذلك بعثتُ في طلبك مع ارميا لتدبّر هذه المسألة . فازدادت دهشة ايليا وظن ان ارميا كاذب بما قاله عن استير . فقال : وما شأن هذا اليهودي . فقال البطريرك اجلس يا ايليا

ثم ان البطريرك اخذ يقصّ على ايليا ما حدث . فعلم ايليا ان ابا استير جاء البطريرك باكيًا منتحبًا فانطرح على قدميه واخبره ان ايليا اساء الى ابنته وقد اشرفت على الموت ولذلك فهو يسأله ان يرسل اليها ايليا ليظهر لها الرضى ويعزيها حتى اذا شفيت من علتها وعاودتها صحتها سافر بها ابوها . فدهش البطريرك من هذا الاقتراح البارد وردّ الشيخ بخشونة . فذهب الشيخ باكيًا وارسل اليه مع احد الشمامسة ورقة مختومة فيها هذه العبارة « اذا لم يفعل البطريرك ما ذكرته له وماتت ابنتي فانني انتقم لنفسي بان اكتب للامبراطور واطلعه على مسالة الرق السري الذي دفعه الى امير العرب »

فلما قرأ البطريرك هذه الورقة اسقط في يده وارسل يسترجع الشيخ . فرجع الشيخ . وعلم منه البطريرك ما يريد عمله عن استير وايليا . وكانت السيدة تيوفانا التي ذهبت باستير الى دير العذراء على جبل الزيتون قد عادت من الدير بعد فتح المدينة فاستدعاها البطريرك وطلب منها ان تنقل استير من خيام العرب في حيّز بيت المقدس الى منزل موافق لصحتها وتحسن مداراتها . فاختارت تيوفانا فندق « البيت الاحمر » في بيت لحم فذهبت مع ابي الفتاة ونقلت استير اليه . وقد وعد البطريرك الشيخ بان يبعث اليه ايليا في المساء

وكان ارميا قد جاء مع الشيخ الى المقام البطريركي فارسله البطريرك في طلب ايليا . فذهب ارميا وجرى له مع ايليا ما جرى

فلما وقف ايليا على هذه التفاصيل خُيل له ان الارض اخذت تميد به . وسمع صوت استير في باطنه يناديه : ايليا ايليا . فما فرغ البطريرك من كلامه حتى وثب ايليا وقال : انا سائر

الى البيت الاحمر يا مولاي حسب امركم

فقال البطريرك مبتسماً مع اشتغال باله وكثرة همومه : لا بأس يا بني . فان انقاذ روحٍ محبةٍ من الموت كانقاذ نفس ضالةٍ من جحيم الضلال

وبعد خمس دقائق كان ايليا على جوادٍ يعدو على طريق بيت لحم ووراءه ارميا يركض كالكلب وراء صاحبه

ولما وصل ايليا الى « البيت الاحمر » نظر في الباب من بعيد ابا استير واقفاً ينتظره طبقاً لوعد البطريرك . وما وقع عليه نظر الشيخ حتى اسرع اليه والدموع في عينيه . فدخل ايليا الى الفندق مع الشيخ . اما ارميا فاهتمّ بتدبير مربط للجواد

وماصار الشيخ وايليا وحدهما في الحديقة التي امام الفندق حتى انطرح الشيخ على يد الفتى ليقبلها . فاجفل ايليا ورجع القهقرى . فقال الشيخ باكياً : يا كيريه ايليا لقد انقذتني مرةً فانقذني مرةً اخرى

فقال ايليا بجدٍّ وهدوءٍ : ماذا جرى

فقال الشيخ : جرى ما سيقتلني ويقتل امها اذا ماتت . فاذا كنتُ انا مذنباً فما ذنبها هي . يا كيريه ايليا لقد علمتُ كل شيءٍ . فانها ذكرتْ في اثناء هذيانها وذهولها كل ما حدث لك معها في المزرعة . ووقفتُ من ارميا على سبب اغمائها ونفورك منا . فانتحادث في ذلك الآن بهدوءٍ يا كيريه ايليا . ايّ جناية ارتكبتُ لاستحقّ احتقارك . نحن وانتم قوم نتنازع على هذه الارض وكلٌّ منا يحارب خصمه بكل سلاح يقع في يده . فلقد هدمتم هيكلنا وحرّمتم علينا الدنو من بيت مقدسنا وسفكتم دماءنا وجعلتمونا نهيم على وجوهنا في الارض كحيوانات سائمة . فهل يُنكر علينا بعد كل ذلك ان نحالف عليكم من يقوم لاستخلاص البلاد منكم . ولو كنتم في مكاننا وكنا في مكانكم افما كنتم تفعلون ما نفعله نحن الآن . بل انكم الآن تفعلون مثله مع اعدائكم العرب لانكم تبعثون اليهم من يتجسس احوالهم ويتنسّم اخبارهم . فلماذا تحمّلني وحدي يا ايليا عار الجاسوسيّة ما دامت هذه الوظيفة القبيحة من لوازم الحروب الاضطرابات

اما ايليا فلم يلتفت كثيرًا لهذا الكلام ولا جاوب عنه بل سأل الشيخ دون ان ينظر اليه : اين السيدة استير ايها الشيخ فانني احب ان اراها لاثبت لها انني ما زلت احترمها كما كنتُ وان ما بلغها عني خطأ محض

فاشرق وجه الشيخ واكبّ ثانية على يد ايليا صارخاً بدموع : بارك الله في شهامتك يا ايها الرجل الكريم . نعم يا ولدي . قل لها انك لا تحتقرها وانا على ثقة من شفائها .

انظر يا بني انها منذ الصباح لا تفارقها نوبة الا ونقع في نوبة · وكلما تكاد تصحو يشتد هياجها فتلطم وجهها وتقطع شعرها · وفي احدى المرات عرفتني فصاحت صياحاً شديداً وصرفت عني وجهها نائحة معولة · وهي في اثناء كل ذلك تنادي « ايليا ايليا » وتقص على غير وعي كل ما جرى لك معها · فيخيل لسامعها والناظر اليها انها فقدت عقلها · فيا ولدي الكريم ليس لي ولامها في الارض احد نهتمّ به ويهتمّ بنا غير هذه الفتاة · فهي شمس آمالنا وعصا شيخوختنا · فساعدنا على تسكين اعصابها وردّ عقلها اليها يكن لك الاجر والثواب عند الله والناس

وان القلم ليعجز عن وصف ما قام في نفس ايليا في اثناء هذا الكلام · فمدّ يده وأخذ بيد الشيخ وقال : هلمّ بنا اليها

فدخل الشيخ وايليا الى الفندق يقصدان غرفة استير

ولم يفتحا باب الغرفة ليدخلا منه حتى انتصب في وجهيهما شبح امرأة وضعت اصبعها على شفتيها واشارت اليهما بالرجوع · فوقف ايليا والشيخ في مكانهما ولم يدخلا وصاح ايليا بدهشة : السيدة تيوفانا

فخرجت تيوفانا واغلقت الباب ثم سلمت على ايليا وقالت · يا كيريه ايليا لا يمكن ان اتركك تدخل على الفتاة الآن لانني اخشى عليها من البغتة · وفضلاً عن ذلك فهي الآن راقدة · وهذه اول مرة رقدت فيها واستراحت منذ اغمائها

فشعر ايليا بان كلام تيوفانا هذا لا يخلو من تهكم المرأة التي يلذلها عذاب رجل وابعاده عن حبيبة له في قبضتها غيرةً منها

وفي هذا الحين وصل ارميا الى باب غرفة استير عائداً من الاسطبل · فلما سمع كلام تيوفانا عن راحة استير صلّب وقال في نفسه « كيريالايسون · ان استير بمجرّد دخول ايليا الى الفندق بداءت تستريح · فكأنها مسحورة منه »

وكاد ايليا يمتثل لامر تيوفانا وحيلتها فينتظر الى ما بعد انتباه استير من رقادها لا سيما وانه سرّ بهذا الرقاد لانه يدل على تحسّن صحتها · ولكنه لم يخطُ خطوة عائداً عن الباب حتى سمع من الغرفة صوتاً يصيح بذعر وبأس : ايليا ايليا

وكانت استير هي التي صاحت من الغرفة هذا الصياح في الحلم · ولكنها لم تلبث ان انتبهت مرتعدة لصياحها واخذت تبكي

فارتعد ايليا لهذا الصوت وبقي جامداً في مكانه · ولما سمع بعده بكاءها تقطّعت احشاؤه

فدفع باب الغرفة ودخل اليها

فلما سمعت استير صوت حركة الباب رفعت رأسها عن وسادتها والتفتت نحوه بعينين ثائرتين منتفختين

وكانت العجوز امها بجانبها فلما رأتها تنتبه الى صوت الباب و تنظر بعينين واعيتين عرتها الدهشة اذ كانت هذه اول مرة انتبهت فيها استير هذا الانتباه

وقد دخل ايليا الى الغرفة وحده و بقي الشيخ وارميا و تيوفانا خارجًا

فلما وقع نظر ايليا على نظر استير ابتسم لها ابتسامة كابتساماته القديمة و تقدم نحو فراشها

اما استير فانها الوت رأسها الاصفر النحيف وعادت الى وسادتها وهي تتلفظ بين شفتيها بكلام لم يسمعه احد

فدنا ايليا منها والابتسام لا يزال في شفتيه . ثم اخذ يدها ليجس نبضها

فلما التقت يده بيدها ارتعشتا معًا كما يرتعش سلكان كهربائيان مختلفان حين التقائهما

وكانت استير حينئذٍ بلون الاموات نحيلة كالخيال ضعيفة القوى كالطفل . وكانت تغض من طرفها وتحاول ستر وجهها من ايليا بيدها . فاثر ذلك في نفس ايليا تأثيرًا بلل عينيه بالدمع . فقال لها : كيف حال السيدة استير . وهل ذهب ألمها

فاجابت استير برزانةٍ وجدٍ وصوتها في منتهى الضعف : نعم قد ذهب كل شيء

ففهم ايليا معنى كلامها فابتسم اخفاء لتألمه وقال : فلماذا تبكين اذا كان الالم قد ذهب

فاظهرت استير الدهشة وقالت : انا ابكي ؟ معاذ الله . وانما تهيجت عيناي مما اصابني . .

ثم تنهدت وقالت : اف اف فلقد كنتُ متوقعةً ذلكَ منذ الصباح . فانني انتبهتُ من النوم ورأسي مثقل وصدري ضيق . فلعلّ ذلك من عدم تعودي الرقاد في خيام العرب في ليالي البرد

فعجب ايليا حينئذٍ من انفة استير ورشاقة حيلتها في نسبة علتها الى غير سببها . وكان ابوها يسمع كلامها من وراء باب الغرفة فسرّ بجوابها الدال على عزة نفسها . اما امها فكانت بجانبها تنظر شزرًا الى ذلك الشاب المسيحي

غير انّ ايليا رأى ان كتمان الداء لا يشفيه بل ربما زاده استفحالاً فعزم على مصادمته وجهًا لوجه . فانحنى نحو استير وقال : هل تستاء فتاة عاقلة مثلك من كلام رجل معتوه كارميا . فهنا غضّت استير من نظرها و ترقرق الدمع في عينيها . فقال ايليا : فلو كنتُ مكانك لضحكت من كلامه بدل ان أتأثر به . فانه مجنون ولا عتب على المجانين . واذا

شئت برهاناً على كذبه فانني اقول لك انه جاءني اليوم بعد الظهر واعتذر مني عن كذبه وافترائه · وهو حاضر خارجاً يشهد على ذلك · هل تريدين ان ادعوه لك

فلما رأت استير ان ايليا دخل في الموضوع الذي كرهت الدخول فيه صيانةً لكرامتها وشرفها تحوّل لونها بغتة من الاصفرار الى الاحمرار وبدت الدموع في عينيها · واذ رأى ايليا انها لم تجاوب عن سؤاله وكان يعلم ان السكوت في معرض الحاجة بيان نادى باعلى صوته — ارميا ارميا · ادخل بامر السيدة استير

وكان ارميا قد سمع من وراء الباب حديث ايليا مع استير · وكلما كان ايليا يذكر عن ارميا انه معتوه او مجنون كان ارميا يحرق الارم ويعضّ شفتيه من الحنق ويثور كالجمل قائلاً في نفسه — لقد سمحتُ له ان يأخذها ولكني لم اسمح له ان يهينني لديها · فلما سمع صوت ايليا يناديه دخل ونزق الجنون في عينيه · ولكنه ما وقع عليه نظر استير من وراء طرفها الكسير حتى تحوّل نزقه الى هدوء · فاحنى عنقه امام ايليا كالاولاد وقال : ماذا يأمر كبريه ايليا

فقال ايليا : يا ارميا اما جئتني اليوم واعتذرت الي عما فرط منك · فقال ارميا نعم يا كبريه ايليا · فقال ايليا اما ذكرتَ لي ايضاً انك لمّا كذبتَ كذبتك على مسمع من السيدة استير كنتَ مضطرب العقل · فتردد ارميا في الجواب ثم قال · نعم نعم قد قلتُ لك ذلك وانتَ قلتَ لي انك ... فهنا خاف ايليا من فلتات ارميا فقطع كلامهُ قائلاً : انا لا اسألك عما قلتُ لك بل اسألكَ عما قلتَ لي · فاخرج الآن مشكوراً على اخلاصك

فاحنى ارميا المسكين عنقه ايضاً وخرج طائعاً كولد صغير · وبهذه الكذبة وهذه الطاعة في حال كذه الحال لغرض كالغرض الذي اتفق عليه مع ايليا محا ارميا كل خشونته السابقة واظهر ان نفسه نفس رجل كريم · بل انه بهذا الامر الذي انكر فيه ذاته الى هذا الحد ارتقى بجنونه الى ما فوق العقل وفاق حبه حب ايليا

اما استير فانها كانت في اثناء ذلك ساكتةً هادئة لا تظهر على وجهها دلائل الرضى ولا دلائل السخط · وقد ظن ايليا انه اقنعها بهذه البراهين · وزاد عليها انه ذكر لها سبباً سياسياً لرحيله بسرعة من معسكر العرب كنصيحة عمرو بن معدي كرب ودعوة البطريرك له فضلا عن اتباع ما ذكرته له في كتابها · ولكن استير كانت تفكر في شيء آخر

وفي ذلك المساء تعشى ايليا في الفندق وتعشت استير براحة · وبعد العشاء خرج ايليا الى الحديقة مسروراً بانّ استير اخذت تتقدم من الصحة فوجد في الحديقة ارميا جالساً

على مقعد بعيد وهو حزين يتأمل ورأسه بين يديه · فعاد ايليا من حيث أتى اجتنابًا لملتقى ارميا · ولما علم انّ استير نامت مستريحة بعد العشاء اطمأنّ باله فطلب فرسه ليعود الى القدس على ان يعود في الغد · وقبل رحيله اختلى بابي استير وحادثه بما حادثه بشأن الرق السري ثم ركب وعاد الى القدس

ولم يكد ايليا يصل الى منتصف الطريق حتى لقي شرذمة من امراء العرب قادمين الى بيت لحم مع الامام عمر لانه رام مشاهدة المكان الذي ولد فيه المسيح كما شاهد قبره ومصعده · فاستأذن ايليا الامام باتمام سيره ليعود الى البطريرك بمهمة ارسله فيها فاذن الامام له

وفي اليوم التالي عاد ايليا الى البيت الاحمر فوجد استير على ما كانت عليه امس وقد ابتسمت له هذه المرة وحادثته وضاحكته

وفي اليوم الثالث اصبحت تقعد وتطلب دفاترها لتكتب فيها

وقد عجب ايليا من ان استير صارت في مرضها اكثر جمالاً مما كانت · ولكن ايليا نسي المبدأ المشهور « ان الجمال في عين الرائي » ولذلك لم يعلم ان ذلك الجمال الجديد الذي اصبح يجده لها كان في نفسه فقط وذلك من قبيل الشفقة على نحولها وضعفها والخوف على حياتها

واقامت استير خمسة ايام متتالية وعليها ظواهر الصحة مع صداع في راسها · وكان ايليا كلما زارها وجدها مشغولة بالكتابة في دفتر تضعه تحت وسادتها · وحين دخوله عليها كانت تطوي هذا الدفتر مبتسمةً وتدسه في قميصها

وفي اليوم السادس لما زارها ايليا طلبت ان تُحمل الى الحديقة تجلس ساعة فيها · وكان الوقت قبل منتصف النهار والشمس تكسر شوكة البرد بحرارتها المحيية · فاخرجوها الى مقعد تحت شجرة ظليلة فجلست هناك قريبة من امها ومن ايليا

وكانت هذه اول مرة تخرج فيها استير الى النور وتنتشق هواء السماء النقي بعد مرضها · فانشرح صدرها للذة الحياة وابرقت عيناها · ولكنها لم تلبث ان تغيرت فانقبضت وسطع في عينيها دمعتان جميلتان كنقط المطر الصافية التي كانت لا تزال على اغصان الاشجار تترقرق في نور الشمس الذهبي كاحجار ماسيّة معلّقة بها

فانتبه ايليا الى انقباضها هذا بعد الانشراح ولكنه لم يعلم له سببًا

اما استير فانها أسندت رأسها اللطيف الى يدها النحيفة وصارت تنظر بحزنٍ الى ما حولها من جمال السماء والارض

وبينما هي في تأملها هذا سقطت نقطتان من نقط المطر التي على الشجرة كأنّ احد العصافير قصد مداعبة استير فرشقها بهما ٠ فوقعت احدى النقطتين على يد استير والاخرى على التراب امامها

فحينئذٍ ابتسمت استير ونظرت الى ايليا وقالت : هل نظرتَ ما نظرتُ ٠ فاجاب ايليا نعم نظرتُ ٠ فقالت استير فبماذا تشبههما ٠ فقال ايليا اشبههما بمذهبيْ الجاحد والمؤمن ٠ فحملقت استير واشارت بعينها الى امها كانها ترجو منه ان لا يبحث في امر ديني على مسمع منها وان كانت لا تُحسن اليونانية : فعلم ايليا انها لم تفهم كلامه فقال : نعم اشبههما بمذهبيْ الجاحد والمؤمن ٠ فان النقطة التي وقعتْ على الارض وصارت وحلاً دنيئًا رمزٌ الى مذهب الاول في مصير الانسان والنقطة التي وقعت على يدك وبقيت ماسةً صافية جميلة رمزٌ الى مذهب الثاني

فبهتت استير وسكتت تفتكر ٠ فراب ايليا سكوتها فقال لها : وانتِ بمَ تشبّهينهما

فرفعت استير رأسها وابتسمتْ ولم تزد على الابتسام

وفي هذا الحين وصل الشيخ ابوها فلما رآها جالسة في الحديقة وهي تكاد ترتعد من البرد اسرع اليها واعادها الى فراشها رغماً عنها ٠ ويظهر ان هذه النزهة كان لها تأثير شديد على مرضها

فانه قبل دخول الليل اشتدّ صداعها وعاودها اغماؤها وهذيانها وكثر اضطرابها ولم يدنُ الفجر حتى وصل ارميا الى مزرعة الشيخ سليمان مذعورًا وهو يلهث من التعب ٠ فقرع باب غرفة ايليا حتى كاد يكسره فانتبه ايليا مبغوتاً فاخبره ارميا باكيًا ان استير في خطر فطار ايليا الى بيت لحم ٠ فوجد استير بلا حراكٍ في فراشها وحولها امها وابوها يبكيان بدمع سخين

وكان وجه الفتاة في سكونها هذا وجه ملاكٍ عابس وممدد في فراش كولد صغير

فعجب ايليا من هذا الانقلاب وسأل اباها وامها عن سببه فلم يستفد شيئًا

ذلك وا اسفاه ان الجميع كانوا يجهلون علتها

ولذلك كانت العلة كل الايام الماضية متمكنة منها ولم يشعروا بها

ولكن ما هي هذه العلّة ؟ الحب ؟

هذه علة قديمة فيها ٠ ولكن هنالك علة جديدة

وما هي ؟

هي سمّ ينتشر في دم الانسان بهدوء وبطء فيسمّمه ويفني قواه وحياته · هو الداء الذي ما عرفوا اسمه وميكروبه الاّ منذ زمن · هو الآفة التي ترتعد منها فرائص الامهات والآباء اذ كم اختطفت منهم عزيزات واعزاء

— هي الحمى التيفوئيدية

فيا ايها الميكروب القاتل الذي دخلت جسم استير النحيل وتمكنت منه دون ان يدري بك احد انك ستجري دموعاً وتكسر قلوباً

وقرب الظهر فتحت استير عينيها · فلم تعرف ايليا بل ظننه اباها · فقالت بصوت متقطع : ابتاه اما جاء كيريه ايليا

فوضع ايليا يده على عينيه ليمسح دموعه

فاردفت استير بقولها : انني راحلة يا ابتاه · وقد شعرت بدنو اجلي · فارجو منك ان تدعوه لي لاراه المرة الاخيرة ·· اما انت يا اماه فصلّي من اجلي

فمسح ابوها دموعه واخبرها انّ ايليا قد اتى وهو واقف امامها · فابتسمت استير ابتسامةً جرت عادة ملاك الموت ان يجعلها في منتهى الجمال والحلاوة على شفاه الراحلين · ثم مدّت يدها الى ايليا فاخذت يده وقالت بصوت متقطع : يا كيريه ايليا شكرًا لك · ثم خنقتها العبرات وعاودتها النوبة

وكأن استير شعرت حينئذٍ انها شرعت في الدخول في دار الابدية فاستجمعت قواها كلها ومدّت يدها الى قميصها فاخرجت منها دفترًا مطويًا ثم دفعته نحو ايليا قائلةً بصوت ضعيف منقطع لا يُفهم كلامه الاّ بصعوبة : هدية الى ايليا من عزيزته · فتناول ايليا الدفتر بيمناه بينما كان يمسح دموعه بيسراه · ويظهر ان الفتاة المسكينة قد رأت وهي في حشرجة النزع دموع ايليا فابتسمت سرورًا بان ايليا يبكي من اجلها · ثم اشارت اليه اشارة ان يتقدم منها · فتقدم ايليا · فاستجمعت استير قواها وهي على ابواب الموت فقدرت ان تنطق بهذا الكلام : صلِّ من اجلي بدل البكاء ···· ادفنوني في المزرعة ··· قرب القبر ··· لكي ابقى قريبة منك ابدًا ··

وهنا اطبقت الفتاة جفنيها واعادت روحها الى باريها

فيا ايها القارىء الكريم نرجو منك ان تعفينا من وصف حالة ايليا وارميا والشيخ والعجوز لما رأوا امامهم استير المسكينة جثة هامدة · فان هذا الوصف يزيد اشجانك واشجاننا ويجفف ينابيع الدموع في عيوننا

ولقد انفذ الشيخ والعجوز وصية ابنتهما . فاذنا في دفنها في مزرعة الشيخ سليمان بجانب قبر الراهب ميخائيل . وقد صلى عليها ابوها واشترك اهل المزرعة جميعاً في جنازتها والبكاء عليها لانهم عرفوها كما تقدم

اما ايليا فسار في الجنازة كموجود غير حاضر وقد نفد الدمع من جفنيه . وبقي طول ذلك النهار كمن مسه خبل في عقله . ولما غيب التراب في المساء جسم عزيزته استير عاد الى غرفته فاقفل الباب ثم انطرح على وجهه يتذكر ماضي استير وتقلبات حياته : وبينما هو يتأمل في ذلك تذكّر الهدية . فارتعد وجلس ليراها . فلما فتح الدفتر وتصفحه وجد انه عبارة عن « يومية » كانت استير تسطر فيه عواطفها كل يوم . فوضع ايليا شفتيه على الدفتر حيث كان خط استير وعواطفها وقبّله مرارًا وهو يبكي بكاء الاطفال . ثم ترك البكاء وشرع في القراءة فقراء اولاً مايلي

« يوم الاربعاء (اقراء هذا اولاً)

« خرجت اليوم معه الى الحديقة . فرأيته في النور اجمل منه في الظل . وشعرت بلذة الحياة في هذا العالم ... ولكن اواه انني لم اولد لاعيش فيه .. وهذا شأن البشر الذين يعطيهم الله نفوساً حساسة أكثر مما يجب .. يا الهي لا اعارض في احكامك وحمداً لك .. لما تأملتُ اليوم في جمال الكون ولذة الحياة اسفتُ لانني سأفارق الدنيا .. خصوصاً بالطريقة الشنيعة التي عزمتُ عليها .. آه عفوك يا الهي مقدماً .. واذا صدق الحلم الذي رأيته في هذا الليل اعتبرته نعمةً منك .. فانني رأيتُ رسولك جبرائيل هبط اليّ وقال : ايها الفتاة ان الله تحنّن عليكِ ورأف بك ولذلك سيغنيك عن جناية الانتحار . وقد ارسلني استدعيك اليه في زمن قصير ... فانتبهتُ من النوم مذعورة ولكنني سررت لانني ساموت موتاً .. لا انتحارًا . ولكن أصحيح هذا ..

. . . .

يا لله . يظهر ان الحلم سيصدق . فماذا حدث لي يا الهي ... نعم كنتُ اشعر في الايام الماضية بضعف وصداع وارتخاء في كل جسمي ولكنني كنت اقدر على الجلوس والوقوف . اما الآن بعد عودتي من الحديقة فقد صرت عاجزة عن امتلاك حواسي .. فهل هذا بدء الرحيل .. هل اقترب الملاك جبرائيل ..

ايليا ايليا . لقد شعرتُ الآن انني منحدرة الى هوة الموت .. آه . انني اخافه واتمناه .

اخافه لانه سيبعدني عنك واتمناه لانني لم اعد اقدر ان اعيش بدونك ·· ولا تقل احيي لاكون لك فانني ذكرتُ لك في مقدمة هذا الدفتر الاسباب التي تحول دون ذلك· فاشفق عليَّ وصلِّ من اجلي

· · · · · · · · · · · · ·

(فهنا مسح ايليا دموعه لانها صارت تستر سطور الدفتر عنه وطلب المقدمة· فقراء فيها)

· · · · · · · · · · · · ·

« يوم السبت

« اول ما فتحتُ عينيَّ امس وجدته امامي باسماً · ولكنه كان اشدَّ اصفراراً مما عهدته · فدنا مني واخذ يدي ··· آه · انني شعرتُ حينئذ بنار تحرق كبدي ·· ولقد سألني هل ذهب الالم فقلتُ له قد ذهب كل شيء ·· نعم قد ذهب كل شيء ·· وعبثاً يحاول تعزيتي وتخفيف مصيبتي فانني اشعر بانه لم يبقَ لي صبر على الحياة ·· فقد أُضيف الى الاسوار التي بيني وبينه سور جديد لا يُهدم ابداً · هو مسيحي وانا اسرائيلية فامته عدوة امتي خصوصاً في هذا العصر الذي كثرت فيه الدماء بينهما · فاقتراني به يكون عاراً عليَّ عند قومي · بل انا نفسي لا ارضاه لنفسي لانني لا اقدر ان انسى مصائب امتي واحالف اعداءها عليها · وفضلاً عن هذا فمن يعقد عقد القران ؟ ·· فلا اهله وكهنته يتركون يد كاهن يهودي ترتفع على راسه ولا اهلي وكهنتي يتركون يد كاهن مسيحي توضع على راسي ··· واولادنا ماذا يكونون ؟ ·· واي عار يلحقهم حتى ذريتهم كلما قيل لهم عند اليهود ان اباكم مسيحي وعند المسيحيين ان امكم يهودية ··· اف ما اشد طياشتي · لقد وصلتُ في الفكر الى الاولاد ··

« ثم ماذا يحل بامي متى علمتْ بفعلي · انني اعرف غضبها ولا اقدر على احتمال سخط عجوز ضعيفة على شفا القبر ·· وقد سمعتها مرة تقول : خير لها ان تموت من ان ينقذها مسيحي

ولكن كل هذا يا ايليا شيء يسير بالقياس على السرّ الجديد الذي فضحه ارميا على مسمع مني · انا ابنة جاسوس ؟؟ انا يُتجر بي للوصول الى اسرار الناس وخفاياهم ؟ تقول انك لم تصدّق ذلك ولم تعبأ به وتستشهد بارميا على قولك هذا · ولكن انا انا ماذا افعل بضميري · ماذا افعل باعتقادي بنفسي ·· آه آه · ان هذه الضربة قطعتْ حبل آمالي في هذه الحياة · ومنذ اصابتني لم تبقَ لي قوة على النظر اليك · لما فررتُ منك من المزرعة يا ايليا فررتُ وانا شامخة الراس لانني علمتُ انك تفهم قصدي هذا وتثني عليه

ويزداد اكرامك لذكري . اما الآن فانني صرتُ اشعر بكل جوانحي انني صرتُ صغيرة ذليلة في نظرك وفي نظر نفسي . واذا كنتَ انت شهماً كريماً تتجاهل ذلك وتتناساه اكراماً لي فانا لا يمكن ان انساه ابداً ... انني كلما وقع نظري عليك اقول في نفسي « انه الآن يتذكر انني كنتُ من بنات الجاسوسية وقد اتجرتُ بجمال وجهي » . فيا ايليا سامحني على الامر الذي عزمتُ عليه . لقد عزمتُ على الفرار منك مرة ثانية . ولكنني هذه المرة سارحل الى مكانٍ لا تستطيع ان تتبعني اليه ...

آه يا ايليا . انني هذه المرة سافارقك الى الابد فراقاً حقيقياً ...

. . . .

قلتُ آنفاً ان فراقنا الى الابد . فعفوك يا الهي . انني كفرتُ بنعمك ولم ادرِ . ليس فراقنا الى الابد يا عزيزي ايليا بل الى الملتقى . نعم الى الملتقى هناك فوق يا ايليا حيث لا مسيحي ولا يهودي ولا وثني بل كلنا بشر متساوون نستريح او نتعب تبعاً لاعمالنا الصالحة او السيئة في هذه الحياة . اضحك معي هنا من انني صرت فيلسوفة مثلك . آه انني لا انسى حتى في الدار الاخرى خطبتك بجانب قبر الراهب ميخائيل . وان يدي لترتجف اذا رمتُ ان اسطر لك الآن رأيي فيها . ولقد تأملتُ كثيراً في موضوعها بعد رحيلي عن المزرعة فوجدتُ انني لو بقيتُ فيها لما كتبتُ لك الكتاب الذي كتبته

نعم الى الملتقى يا صديقي وهذا هو الامر الذي يقويني على فعلي . لانني لو كنتُ اعتقد انه لا ملتقى لنا بعد فراقي هذه الدنيا لارتعدت فرائصي واحجمتُ عن الامر الذي عزمتُ عليه . اذ اين اجد حينئذ القوة على فراقه فراقاً لا لقاء بعده . اما الآن فانني قوية على ذلك راغبة فيه لانني اعلم ان دمي سيغسلني في نظره ونظر نفسي . واذا حال هذا الدم دون سعادتنا هنا فسيجعلني قادرة ان اكون سعيدة معه هناك واعيش بجانبه دون ان اخجل منه او يستحي بي . ولا ريب ان الله يسامحني على فعلي

. . . .

« يوم الاحد

بما انني عازمة على فراقه فقد صرتُ اجد في نفسي قوة على محادثته ومضاحكته . ولقد دخل عليَّ اليوم ضاحكاً مسروراً فاستقبلته ضاحكة مسرورة ايضاً . لماذا اجلب له الكآبة والحزن منذ الآن . اما يكفيه منهما ما سيصيبه بعدي .. آه . ايليا ايليا .. ان كل دمعة تنحدر من عينيك على قبري ستبرد لها عظامي .. ايليا ايليا ان كل مرة تراني فيها في

احلامك فانني ارسل اليك بدلها بركةً سماوية من منزلي الابدي · فبحياة عينيك لا تنسني ·· انني اعرف قلوب الرجال ·· فهم يقولون انهم يحبون الى الابد ولا تمرُّ عليهم سنة او شهر حتى ينسوا حبهم وعهدهم · آه يا ايليا لا اطلب منك كل يوم الا زهرة واحدة على قبري

. . . .

يا ايليا · اين تدفنونني · آه انني اشعر منذ الآن ببرودة وثقل التراب الذي سينهال على جسمي النحيف ·· اف · لقد ضاق صدري ·· واوشك ان يغمى عليَّ ·· آه يا الهي ارحمني ······ لكن وافرجاه وافرجاه ان صدري يتسع ونفسي ترتفع حينما اذكر في موقف كهذا الموقف كلمة « الهي » آه ما احلى هذه الكلمة يا ايليا في افواهنا وقلوبنا في حال كحالتي · اسمع ها انني بعد ان تلفظتُ بها واحضرتها في فكري وقلبي صرتُ قادرة على سحق الموت بقدمي · فتعالَ ايها الموت انني لا اخشاك لان نفسي الخالدة اقوى منك تعالَ ايها التراب البارد الثقيل فانك لستَ بابرد ولا اثقل من جسدي ·· لكن ·· لكن يا ايليا اين تدفنونني

هل تدفنونني خارج المدينة في مكان مهمل مجهول · لا لا انني ارتعد من وحشة القفر ويخيفني رقص الذئاب والضباع فوق قبري في ظلام الليالي المدلهمّة · هل تدفنونني في « طبريا » حيث يولد المسيح وفي «صفد» حيث يُقام عرشه (١) لا لا انني لا اريد الابتعاد عن ايليا مسيحي · فادفنوني في مزرعته بجانب قبر الراهب ميخائيل · هناك يراني ايليا في كل يوم ويسلّم عليَّ في كل صباح ومساء · وانني اذا كنتُ قريبة منه هكذا فلا اكون وحدي بل يكون لي بجانبي مؤنس اذا مرَّ قرب قبري دفأت عظامي بحرارة انفاسه وهشت له حجارة قبري

. . . .

(وكان ايليا في اثناء هذه القراءة يجهش في البكاء عند كل سطر او سطرين كأن عينيه وجدتا نبعاً جديداً من الدمع · فلما انتهى الى هنا عاد الى خاتمة الدفتر ليقف على آخر عواطف استير بعد وقوفه على الاسباب التي ذكرتها · فقرأ في الصفحتين الاخيرتين ما يلي)

. . . .

· نعم نعم ·· انني ارى الموت آتياً · حمداً لك يا الهي فانك انقذتني من جناية الانتحار وقتل النفس ·· بل انك يا الهي انقذتني من الحياة نفسها لانني لم اكن على ثقة من مقدرتي على الانتحار ·· فكنتُ اخشى ان اجبن حين الشروع فيه او تعود اليَّ غريزة

(١) رنه دوسو

الحياة بعد تمام عافيتي فاعود الى التمسك بها .. اما الآن فلا جبن ولا ضعف ولا خوف ...
غدًا ستطلع الشمس ولكن تكون استير غائبة . غدًا يناديها امها وابوها فتكون جثة باردة
و « هو » ماذا يصنع حينئذ . وما يقول ... وبمَ يفتكر ... آه انني لم اعد اقدر على لفظ
اسمه بفمي .. يا الهي احرسه بعدي . اواه هل يكون سعيدًا اوتعيسًا في مستقبل حياته .
وا اسفاه انني اختبرت الحياة ورايتُ مافيها من الشناعة والقبح والدناءة .. فمن الصعب فيها على محبي
الجمال المطلق والنقاء وطهارة الاخلاق ان يعيشوا مسرورين مرتاحين . افٍ انني لا ازال
اذكر ما رأيته من افعال الناس في حياتي . لا ازال اذكر الوحوش البشرية
الشرهة المرتدية بملابس جميلة تحيط بي وتصرف انظارها اليَّ كأنها تريد ابتلاعي . لا ازال
اذكر تنازع هذه النفوس الصغيرة واقتتالها على الامور الارضية التافهة اقتتالاً يسقط فيه
الخجول الظريف اللطيف العفيف ويقوم الخشن الغليظ الوحشي الكثيف . لا لا . ما احلاك ايها
الموت فتعالَ وارحني من هذه الحياة الدنيئة . ان حفرتك الهادئة الجميلة هي ملجاء امين من
كل فظائع وشرور هذه الحياة . هي مكان الراحة الابدي الذي يرفرف عليه ملاك الجمال
جمال الهدوء والسكون والسلام بعد شناعة القلق والاضطراب . فما احلى واطيب الرقاد
في ذلك المكان .. ولكن يااللذة العظمى والحلاوة الكبرى لو كان « هو » معي ...

. . . .

فمسح ايليا دموعه هذه المرة ايضًا وهو يشهق شهيقًا شديدًا . وكان قد اتى على آخر
الدفتر ولم يبقَ في الصفحة الاخيرة غير عبارة واحدة مسطَّرة بحروف مضطربة لان اليد التي
كتبتها كانت ترتجف من دبيب الحمى والموت . فقرأها ايليا فكانت كما يلي

« الوداع .. صرتُ عاجزة عن الكتابة ... فاقرأْ من قبيل الوداع الفقرات الثلاث
الاخيرة من كتابي اليك لما كنت في المزرعة »

فتذكر حينئذ ايليا هذا الكتاب (١) فاخرجه من جيبه واخذ يتلوه ويقبله باكيًا .
ولما لم يعد قادرًا على اتمام تلاوة الدفتر لشدة تأثره طواه ووضعه في جيبه وهو يبكي بكاء
الاولاد ثم خرج مسرعًا من الغرفة يقصد قبر استير . ولكنه لم يصل اليه حتى وجد هناك
فوق التراب الذي لم تكن مرت بعدُ ساعتان على انهياله على نعش الفتاة — رجلاً ممددًا على الارض
بطول القبر وهو يبكي . فعرف ايليا ارمنيا لاول نظرة . ولما وقعت عين احدهما على الآخر
اجهشا كلاهما في البكاء

---

(١) الصفحة ٩٩ السطر ١٢

فمن يعلم ان استير لم يسرّها وهي تحت التراب هذا الاخلاص من محب عاقل ومحب مجنون

الفصل الرابع والعشرون

الخاتمة

ماذا حدث لايليا بعد ذلك . الامام عمر والفروض . تسريحه الجيوش لاتمام الفتح . عودته من الشام . مراثي ارميا في اوروشليم . القبور الثلاثة

هكذا كانت نهاية هذه القصة المؤلمة التي مزج فيها المؤلف دموعه بدموع ايليا . وربما بدموع القارىء ايضاً

وفي تلك الليلة لم يزر الكرى جفن ايليا ولما اصبح الصباح لزم فراشه لاعتلال طرا عليه . ومنذ هذا اليوم عاوده ضجره القديم فصار سكوتاً منقبضاً لا يلتفت الى شيء ولا يبالي بشيء . ولما سمع الشيخ سليمان باعتلاله اسرع اليه شديد الاهتمام بامره

ذلك ان الشيخ سليمان كان كثير الخبرة في الحياة

ذلك انه كان يعلم تاثير بعض الامراض

فقد كان له في شبابه طفلان مات احدهما بعلة سرية في الاسبوع الاول وتبعه الثاني في الاسبوع الثاني

فيا استير ليتك لم تهبي ايليا دفترك . فانكِ وضعتِ له مع عواطفك ميكروبات مرضك

ولما كان يقبّل فيه عواطفك بشفتيه كان يلتقط بهما ميكروباتك

فافتحوا يا اهل المزرعة قبراً ثالثاً بجانب قبري استير والراهب ميخائيل

و يا استير سري وافرحي ان عزيزك ايليا راحل اليك

وهو ايضاً كان مسروراً بذلك

انه قبل معرفتك ضجر من هذه الحياة الباردة وسئم اهتماماتها الباطلة فلما عرفك اصبح يراها لذيذة جميلة . فهل من غرابة ان يكرهها بعدك كما كرهها قبلك

***

وفي اليوم الثالث من مرض ايليا بينما هو طريح الفراش يعاني الحمى التيفوئيدية و يهذي باسم استير و يراها في احلامه كان الامام عمر يودع امراء الجيش ليعود الى « المدينة » المنورة في بلاد العرب حيث كان الناس قد استبطئوه وظنوا انه سيقيم في الشام لكثرة خيرها ورخص اسعارها وطيب فاكتها ولانها بلد الانبياء ولذلك كانوا يخرجون الى

المدينة في كل يوم لاستطلاع اخباره (١)* فركب الامام عمر على بعيره وركب امراء المسلمين معه وضجت القبائل بالتهليل والتكبير . ولما وصل عمر الى الجابية اقام بها حيناً فاخذ خمس الفيء (٢) لبيت المال حسب العادة * . ولما رأى الامام كثرة الاموال والخيرات التفت الى ابي عبيدة وقال (— ياعامر لقد آن لنا ان ندون الدواوين ونفرض الفروض والعطاء للمسلمين فان الشام وفارس ملأت خزائننا بالمال . فسأل ابو عبيدة (— وكيف يكون العطاء يا امير المؤمنين . فاجاب عمر (— « على السابقة في الاسلام » ابتداء من المهاجرين والانصار فمن بعدهم الى اليوم . فقال ابو عبيدة (— والمساكين يا امير المؤمنين . فقال عمر (— ساجمع ستين مسكيناً واطعمهم الخبز ثم احصي ما اكلوا وافرض لكل انسان منهم ولعياله على هذا التقدير (٣) فلا ادع في المسلمين محتاجاً

ثم انه شرع في تسريح الجند لاتمام الفتح « وقسم الشام قسمين . فاعطى ابا عبيدة من حوران الى حلب وما يليها وامره بالمسير الى حلب وان يقاتل اهلها . واعطى ارض فلسطين وارض القدس والساحل ليزيد بن ابي سفيان وجعل ابا عبيدة والياً عليه . وامر يزيد ان يحارب اهل قيسارية الى ان يفتحها الله على يديه . وسيّر عمراً بن العاص الى مصر » (٤) « وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين واسكنه الرملة وجعل علقمة بن مجزر على نصفها الآخر واسكنه ايلياء » (٥) ثم ان الامام ودع الامراء واوصاهم بالاتحاد والنشاط وعاد مع رجاله على بعيره قافلاً الى « المدينة » عاصمته وهو يحمد الله على الفتح ومعه كعب الاحبار*

فبتسيير الرجال هذا التسيير الى اقطار الارض لفتحها وتوحيدها اشبه الامام عمر السيد المسيح لما ارسل تلامذته الى العالم ليفتحوه ويوحّدوه وينشروا فيه الوداعة والمحبة والسلام بقوة الكلام فقط . ولكن كأن الكلام لم يفعل في العالم الفعل المقصود ولذلك قام السيف الآن . واذا كان الكلام لم ينجع فالسيف لا ينجع ايضاً

* * *

وفي اثناء ذلك بينما كانت فلسطين قائمة قاعدة لحركات الجند المختلفة فيها كان رجل جالساً تحت الارزة على جبل الزيتون وفي يده كتاب يقرأ فيه بصوت جهوري قراءة جدية

---

١) الواقدي ٢) الغنيمة او الخراج او الجزية ٣) كذا فعل الامام بعد عودته الى المدينة في رواية ابن الاثير ٤) الواقدي . وروى درايبرون في ترجمة «هيراقليوس» ان بطريرك الاسكندرية وعد الامام عمر بان يزوجه ابنة الامبراطور هرقل ويؤدي الجزية اذا امسك عن مصر ولم يبعث ليفتحها فلما درى بذلك الامبراطور استدعاه واهانه وعذبه

٥) اي بيت المقدس (ابن الاثير)

وينظر الى اورشليم امامه

وكان هذا الرجل ارميا والكتاب الذي في يده نسخة من التوراة

وكان ارميا يقرأ فيها نبوءة(سميّه) ارميا ورثاءه اورشليم . فكان صوته يدوي في جو المدينة المقدسة كانه بوق ينذر بسقوط المدينة العظيمة ـ وكان في فكره يرثي اورشليم واستير معاً

ويا للعجب العجاب ان كثيرًا من تلك النبوءات كان كأنه كتب عن الامة الفاتحة . وهذا بعض ما كان يتلوه ارميا :

« يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموعٍ فابكي نهارًا وليلا قتلى بنت شعبي (١)

« كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب . كيف صارت كارملة العظيمة في الامم . كيف صارت السيدة في البلدان تحت الجزية (٢)

« كيف غطى السيد بالظلام ابنة صهيون . كيف القى من السماء الى الارض فخر اسرائيل(٣)

« كيف اكدرّ الذهب وتغيّر الابريز الجيد (٤)

« هكذا قال الرب . هوذا شعب قادم من ارض الشمال وامة عظيمة تقوم من اقاصي الارض . تمسك القوس والرمح . هي قاسية لا ترحم . صوتها كالبحر يعجّ وعلى خيل تركب . مصطفة كانسان لمحاربتك يا ابنة صهيون — امة قوية امة منذ القديم . امة لا تعرف لسانها (يا اسرائيل) ولا تفهم ما تتكلم . جعبتهم كقبر مفتوح . كلهم جبابرة — سمعنا خبرها فارتخت ايدينا . اصابنا ضيق ووجع كالماخض . لا تخرجوا الى اسفل وفي الطريق لا تمشوا لان سيف العدو من كل جهة (٥) وخيله اسرع من النسور(٦)

« من صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة (٧)

« ويلٌ لنا لاننا قد هلكنا . اغسلي من الشر قلبكِ يا اورشليم لكي تخلصي . الى متى تبقى في باطنك افكارك الباطلة (٨)

« طوفوا شوارع اورشليم وانظروا واعزفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انسانًا او يوجد فيها عامل بالعدل طالب الحق فاصفح عنها (٩)

« هم من صغيرهم الى كبيرهم كل واحد مولع بالربح الحرام ومن النبي الى الكاهن كلٌّ يعمل بالكذب

« بينهم منافقون يرصدون وهم كامنون كالصيادين . وقد نصبوا الفخ لاقتناص

١ نبوءة ارميا ص ٩ ع ١ ٢ مراثي ارميا ص ١ ع ١ ٣ مراثي ارميا ص ٢ ع ١
٤ المراثي ص ٤ ع ١ ٥ ارميا ص ٦ ع ٢٢ وص ٥ ع ١٥ ٦ ارميا ص ٤ ع ١٣
٧ ارميا ص ٤ ع ١٣ و١٤ ٨ ارميا ص ٤ ع ١٤ ٩ ارميا ص ٥ ع ١

الناس · بيوتهم امتلأت من الغش كالقفص المملوء طيوراً ولذلك عظموا واستغنوا · سمان لامعون وهم يتعدون وصاياي شرّ تعدٍّ ولا يقضون بينهم دعوى اليتيم ولا يجرون حكم المساكين · اعلى هذا لا اعاقبهم ؟ قد حدث في الارض دهش فظيع : الانبياء يتنبأون زوراً والكهنة يتسلطون بايديهم وشعبي يحب مثل هذه الامور ·· فكيف تكون الآخرة (١)

« ويل لمن يبني بيته بغير عدل وقصوره بغير حق (٢)

« ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي (٣)

« يا رب اذكر ماذا صار لنا · اشرف وانظر الى عارنا · قد صار ميراثنا للغرباء وبيوتنا للاجانب · صرنا ايتاماً بلا أب وامهاتنا كارامل · شربنا ماءنا بثمنه واخذنا حطبنا بثمنه · اباؤنا اخطأوا وذهبوا ونحن نحمل آثامهم · مضى فرح قلبنا · سقط اكليل رأسنا · اعدنا يا رب اليك فنعود · جدد ايامنا كالقديم (٤)

هكذا كان ارميا يخطب على جبل الزيتون ويرثي اورشليم حين دخول حامية العرب اليها لتولي شأنها . ولو سمعه حينئذ الاسرائيليون الذين كانوا يرافقون جيوش العرب لقالوا له انه قد جاءت نوبة قومه في هذا الرثاء بعد ان صرف قومهم فيه عدة قرون

***

ولم يكد ارميا يطوي الكتاب الذي بين يديه ويترك الرثاء حزيناً متالماً حتى طلع عليه بعض فرسان العرب · فعرف ارميا منهم عمراً بن معدي كرب وقد جاء بطلب ايليا لغرض له · فاخبره ارميا عن مرض ايليا ودله على المزرعة · ولما وصل الامير اليها كان ايليا غائباً عن الرشد وهو على اهبة الرحيل

ذلك ان الحمى التيفوئيدية فعلت فيه ما فعلته باستير

وكان الشيخ واهل المزرعة حينئذ في منتهى الحزن والغم لحالة ايليا وهم من ذلك في بكاء مستديم

ولما علم الامير بموت استير ومرض ايليا الى هذا الحد حزن حزناً شديداً · وقبل عودته من المزرعة سال الشيخ سليمان ان يدله على قبر الراهب ميخائيل الذي كان ايليا قد اخبره خبره كما تقدم · فذهب به الشيخ اليه · وقبل رحيل الامير ساله الشيخ ماذا يريد من ايليا ليبلغه اياه بعد انتباهه من نوبته · فاجاب الامير بلسان ترجمانه · هي مسالة كتاب سري بين خليفتنا عمر وبتركك لم يدرِ بها احد غير ايليا · فاحببت ان اقف منه على فحواه

---

١ ارميا ص ٥ ع ٢٦ ٢ ارميا ص ٢٢ ع ١٣ ٣ ارميا ص ٢٣ ع ١

٤ خاتمة مراثي ارميا

لامر ما ٠ وساراه مرة اخرى

ولكن هذا السر بقي في صدر ايليا ومات بموته ٠ لا سيما وان ابا استير الذي وقف عليه ايضاً قد توفي بعد شهر من وفاة ابنته

وقد فاتنا ان نقول ان زوجته العجوز توفيت في ذات الاسبوع الذي توفيت فيه استير من حزنها على ابنتها

وقد دفنوا ايليا بين قبر استير وقبر استاذه الراهب ميخائيل ٠ وكان يوم دفنه يوم عويل وحزن عظيم عند اهل المزرعة كباراً وصغاراً حتى الاولاد

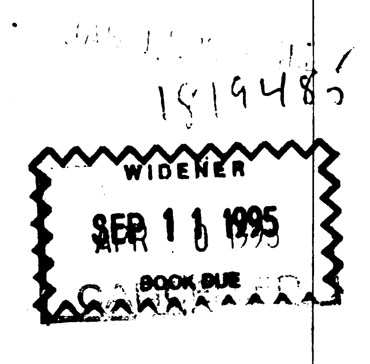
فيا ايتها القبور الثلاثة التي تعانقت رفاتها في جوف الارض تعانق الاحباء وضمت الحكمة والجمال والشباب والعقل : سلام عليكم من كاتب قصتكم وقارئها

سلام عليكم وهنيئاً لكم لانكم رقدتم براحةٍ وسلام قبل زمن الاضطرابات التالية ٠ هنيئاً لكم لانكم خلصتم من مشاهد الحياة الباردة واهتماماتها الباطلة وشهواتها الفارغة واعتداءاتها الوحشيّة ٠ انكم خلصتم من مشهد الصغير النفس يجرُّ ذيل الكبر منتصراً ٠ والدميم خلقاً وخلقاً يتيه دلالاً ويمشي اختيالاً ٠ والسالب يتمتع بما سلب مكرماً محترماً بين قومه لان الناس لم يتعودوا شم رائحة الذهب قبل اكرام صاحبه ليعلموا هل كان كسبه حراماً او حلالاً ٠ والوقح يبلغ مآربه بوقاحته و يزدري كل الفضائل والاخلاق اللطيفة لانها بين الحيوانات البشرية في الدنيا لا تجرّ مغنماً ولا تدفع مغرماً

هنيئاً لكم ايضاً لانكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامم والقارات بعضها الى بعض ليفني بعضها بعضاً ٠ انكم يا ايتها الجواهر الثلاثة قد شهدتم سقوط اورشليم الجميلة عاصمة العواصم وزينة الدنيا وعروس العالم ٠ ولكن كل هذا ليس بالشيء الذي يُذكر بازاء الاهوال الآتية ٠ ان عنصرين جديدين من البشر سيشتبكان و يتخالطان و يتماسكان وكل منهما يطلب اذلال الآخر او نبذه من الدنيا ٠ فاشفقوا على اخوانكم الضعفاء الآتين بعدكم في هذا النزاع الهائل ٠ اشفقوا على الدماء التي ستسفك من الفريقين والمظالم والفظائع والصبيانيات التي ستحدث في الجانبين ٠ وبما انكم قد خرجتم عن دائرة النزاع والعراك في الحياة واصبحت نفوسكم نفوس ملائكة لا نفوس حيوانات بشرية فاوحي الى الشرقيين يا ايتها النفوس الكريمة المبادىء الجميلة الشريفة التي تريهم اباطيل نزاعهم ٠ ثم ارسلي الى حكامهم روح العدل والحق والنزاهة والمحبة والالفة والسلام ليعيش الجميع في هذه الارض التي اصبحت مشتركة بينهم والتي سقوها بالدماء والدموع معيشة هادئة لا يسبّون معها الارض ولا يشكون من السماء

تمت




WIDENER
SEP 1 1 1995
BOOK DUE

